

بستان الخروب

مكتبة مصر

محمّد عبد الحليم عبد الله

ملاح

بَعْدَ الْفِرْوَوبِ

مطبعة خان بكية لاهور

بعد الغروب

الجائزة الأولى الممتازة في القصة

من وزارة المعارف سنة ١٩٤٩

محمد عبد الحليم عبد الله

النشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

كان آخر عهدي بالقرية التي قضيت فيها صباى وصدرأ من شبابى ،
فجرا لا أنساه .

كنا فى أخريات أكتوبر .. وفى وقت يتوازن فيه الصيف والشتاء ،
ويعتدل الصبح والمساء ، ويتلفع جو القرى مع كل فجر بملاية كثيفة من
الضباب تنام تحتها الحقول والأكواخ وكل شىء إلا نسيمات السحر .
ولم يكن هذا الجمال الشهى ليملاً أو ينفذ إلى قلبى ، على فرط حبى لهذا
الجمال لأننى كنت ذاхла عن كل شىء ..

— أنا نصف نائم : فقد نهضت من الفراش عجلان لأدرك قطارا يأتى مع
الفجر .. وكأننى نصف سكران : لأن حرقة وداع أمى لا يزال دوارها آخذنا
برأسى ، وما ودعتها قط وأنا مسافر إلا تركت على ظهر يمناها دمعة وقبلة ،
ولم يكف ذهنى وأنا فى طريقى إلى الخط عن استحضار صورتها تحت نور
مصباح ريفى ساذج خرجوا به ورائى لينير الطريق فى الحارة .

وكنت راكبا حمارا هزيلا أنف الزمان من منظره فلم يكسجه مع ما
اكتسح من ثروة أبى . لا يفتر عن الزحير ، وهو سائر .. يرأسل أنينه وقع
حوافره على التراب فتألف منها نغمات حزينة . وإذا تحركت على برذعته
تململ ظهره لما به من جروح ، لذلك كنت جامدا فى ركوبى كأنى تمثال ،
وملقيا بما بقى من خاطرى لأنبهه إلى عثرات هذا الطريق الزراعى الضيق .

كل شىء من حولى كاسف متخاذل ، والخواطر فى رأسى سريعة
الدوران تنتهى حيث تبدأ كأنها تيار كهربية يجرى فى حلقة جوفاء . ويسعى
من ورائى على كره منى أخ لا يزال غلاما فى الثالثة عشرة اغتصيناه

- ٦ -

من النوم ليونس وحشتى فى طريقى إلى محط سكة الحديد الذى يبعد عن القرية مسير نصف ساعة ، ثم ليعود بالحمار الذى ثمنت أن لو أعطاه الله من القوة ما يحمل به شخصين ولكنه كان ضائقا بمحملى أنا وحدى .. ولم يرض هذا الأخ العنيد أن تتناوب الركوب ونقتسم الطريق .

لم يكلم أحدنا أخاه بشيء كأنما سرت فى نفوسنا هجعة السحر ، على أننى كنت مشغولا بنفسى عن كل ما حولى فلم يشب إلى رشدى إلا حينما أحسست أن الحمار يجاهد بى جهادا شاقا صاعدا مرتفعا من الأرض يؤذن بوصوله إلى سكة الحديد فسارعت بالنزول إشفاقا عليه .

وهكذا نفس الإنسان ، لا يفارقها شيطان الجيروت ولا تصفو من شوائب القسوة حتى تطهرها المموم والآلام ، فتشفق لا على الإنسان وحده ، بل إنها لتحنو على الحيوان !! وقفل أخى راجعا بعد أن طع - ١٠ - جبينه قبله ، وأتبعته بصبرى تحت جناح الليل المولى حتى اختفى عنى بياض جلبابه وأحسست شيئا من الراحة فى هذا السكون الذى لا تشوبه حركة إلا ما تسمع من خشخشة أوراق الذرة كما تتلاقى السيوف . ولست أدرى مصدرا لراحتى هذه : لعله من دمعة ذرفت على بؤسى ويأسى وأنا فى فضاء طليق لا يعكره إنسان ، أو لعله راجع إلى خلائى بنفسى وقد عودتنى دائما أن تهدأ من غليانها إذا ما انتابها كرب ففررت بها عن الناس ، وجعلت أفكر فى هذا الكون الهاجع وما يرفرف فوقه من راحة وسكينة ، ثم ماذا سيكون فيه بعد ساعات حين يسترد النوم سلطانه فتندور رضى الجهاد مع الشمس ويتزاحم الأحياء على المآرب .

اتخذت حقيبة سفرى مقعدا جلست عليه بخذر لأنها لم تكن متينة ولم يكن فى هذا المحط الحديد كرسى يستريح عليه المسافر ، وكنت متجهها ببصرى نحو الشمال مرتقبيا وصول القطار الذى سيقلىنى إلى القاهرة .

- ٧ -

ونفذت أنداء الخريف من نسيج حلتى الخفيفة إلى بدنى الناحل فأحسست بردها ، لذلك أثرت أن أقطع الوقت جيئة وذهوبا على ممشى المحط حتى حمل إلى النسيم صفير القطار من بعد فزرت سترتى وحملت حقيبتى استعدادا للركوب .

* * *

بزغت الشمس على الأفق الشرقى فصاحت لمقدمها الحياة ، حتى كأنما زر كهربية عظيم تديره القدرة فيملاً الأرض حركة ونورا ، ونظرت إليها شاردة من إحدى النوافذ لأنها أول شمس فى حياتى العملية فخیل إلى أنها غير التى كنت أراها فأبسم لها وأنا طفل ، ثم تناولت الحقيبة بحركة آلية وفتحتها لأخرج منها جريدة قديمة لففت فيها طعام فطورى وهو قطعة من العجة ونصف رغيف حملتهما على كره ، ثم وضعت الحقيبة على وركى وسندت إليها مرفقى وأخذت ألوك الطعام ولا أكاد أسيغه والقطار يجرى بجسمى نحو الجنوب تاركا قلبى ولى فى قرية نحو الشمال .

وكنْتُ أغص بطعامى الفينة بعد الفينة فأتلفت فى حركة خفيفة غير شعورية كأننى أبحث عن ماء ، ثم أزدرد اللقمة ازدردا دون أن أرفع طرفى إلى الجالسين أمامى من الركاب حتى لا أقرأ فى عيونهم ما يزيد من أوصابى . أجل ، كنت مشغولا اليوم لا أزال أذكره وستبقى ذكره منقوشة على فؤادى ما حييت ، يوم كنت راجعا من القاهرة منذ أسابيع بعد غيبة تقرب من عام والفرح يطير بى ، وأستعجل الوقت الذى ألقى فيه أبوى فأزف إليهما بشرى فباحى وإتمامى الدراسة فى كلية الزراعة ثم ألقاهما فأكاد أنكرهما ويردان على بشرى بابتسامة كاسفة يكاد الأسف يقطر منها ، فتداركت دقات قلبى وأيقنت أن خطرا حاق بالأسرة ، وخیل إلى أن غبار الفقر يكسو كل شىء فى البيت من أثاث وآنية وحيطان ، وسألت عن خادم عجوز كانت تلقانى دائما أول الناس عند مقدمى من السفر ، فسمعت

أمى تجيب بصوت خافت كأنما ترجو ألا أسمعه فتقول : لقد استغنينا عن خدمتها منذ زمن قريب . وبدا أبى غارقاً فى قفطانه من فرط هزاله كأنه استعاره من رجل طويل جسيم ، وعاث فى شعره الشيب وخبا بريق عينيه ولم يعد يتكلم اللهجة المسيطرة الأمرة التى تخضع السامعين ، فأحزننى استخناؤه وانكساره حتى كأن مدية تعمل فى قلبى . أما أمى : فقد رأيت فيها صلابة العنيد حين يقهر فلا يزيده القهر إلا شراسة وضراوة ولم يكن عليها إلا سفعة من الحزن تعلو وجوه البيض كأنها أثر اللطمة .

ولست أدرى لم أكبر أولئك الذين بثتوا على الصهر وتصلب أعوادهم أمام المصائب ؟ كم ثنيت أن أكون واحداً منهم ، فهم ولا شك طراز من الناس فيه زيادة على الناس ، أما أنا فإننى لا أجزع من البلايا فحسب ولكن توقعها كفيل بأن يخيفنى .

وزاد جهودى فى مكانى كأننى صبيت على الكرسى صبا وأظن أن شرودى كان آية من الآيات وأعجوبة من الأعاجيب تملأها الجالسون أمامى وأنا غير شاعر ، لأننى كنت أستعيد محادثة طويلة جرت بينى وبين أبى حين جلست بينه وبين أمى بعد عودتى إليهم بساعات ، وعلى وجهيهما سمات الحيرة واللهفة التى تكسو وجوه القواد حين يؤذن نجم نصرهم بالأفول . وهز أبى رأسه ثم مال إلى وقال بهمس يملأ القلب فزعا :

« اسمع يا بنى : كثيرا ما يحمل الأبناء أخطاء آبائهم وهم راغمون ، ولعل الله لم يفرس فى قلوبنا حب الولد والحرص على إيجاده إلا ليصل بشبابه شيخوخة أبيه ويصلح بصوابه خطأ والده فيحيا الأب بولده » .

فكان هذا كثيرا حين أحسست أن الرجل يقف منى موقف المعتذر ، فلم أستطع أن أمسك دمعى ، فتنفس الصعداء وقال :

« هذا حسن ، لقد كشفت عن برك بهذه الدموع ، ولا مناص من أن تسمع هذه القصة » .



وَجَرَى فِي جَسَدِي تِيَارَ بَارِدٍ وَأَحْسَسْتُ فَلَاحَةَ الْمُسْتَوَلِيَةِ

- ١٠ -

ولكنه سكت ثانيا ولم يتكلم ، وتحسس جيبه بمركة ذاهلة فأخرج علبة فيها تبغ وورق وأخذ يجهز لقيفة منه بأصابعه الطوال التي سرت فيها رعدة خفيفة ، وما أن فرغ من شأنه حتى بدأ يقول :

« كانت تجارتى فى القطن محدودة كما تعلم يرضينى منها ما أناله من أرباح ضئيلة تساعد إيراد عشرين فلانا أملكها ، فعشنا فى بحبوحة من الرزق جسدنا عليها كثير من الناس ، ولكن زين لى بعض معارفى من التجار أن أتوسع فى هذه التجارة ولم يكن عندى من المال ما أستطيع أن أدخل به السوق . فلجأت منذ أعوام إلى مصرف عقارى فأخذت منه مبلغا طائلا وأمنت على خمسة عشر فلانا ، وما أن فعلت حتى أصيبت السوق بالكساد وبدأت أيدى المضارين تلعب بها فلم تعد ثمرات زرعى ولا تجارتى تكفى نفقات الأسرة وسداد الديون ، وأخذت أوجل أقساط المصرف عاما بعد عام حتى تكاثرت المطلوب . وكانت أرضنا تحت يدى على أننى مستأجر فحسب فجعلت أودى من ديونى ما أستطيع أدائه على الرغم من التذمر الذى رأيته من أولى الشأن فى المصرف .

ثم كان هذا العام ففوجئت بأن تقدم أحد المشترين من قريتنا على أثر نزاع دب بين أسرتنا وأسرته ، ودفع الثمن ونقلت إليه الملكية وأصبحت خمسة الأفدنة هى كل ما نملك يا بنى . وتبع هذا أننى تخلصت من الماشية التى كانت تستبعبها سعة الزراعة ورأيت أنه من رأى أن نخضع للواقع وأن نجري فى نطاقنا الضيق ما دام قد كتب علينا ضيق النطاق .

على أن كل هذا لا يحز فى نفسى بقدر ما يحز فيها أننى تحكمت فى مستقبلك وأجبرتك إجبارا على دخول كلية الزراعة ، لقد بنيت قصورا على الماء وتقبلت فيما مضى أن ولدى الأكبر سيجعل من أرضنا جنة من جنات الدنيا بعلمه وعمله .

ولكن الله لم يرد . فلعينا أن نرسل سفيتنا مع التيار وأن ندع خطانا حرة مسترسلة فى دروب المقادير ثم نرى ماذا يكون .

- ١١ -

وجرى فى جسدى تيار بارد ، وأحسست فداحة المسئولية . فكنت كالجندى الغر فرضت عليه ظروف القتال أن يصرف أمر موقعة ، كنت على وشك أن أقول : ليتكم تركتمونى أختار لنفسى . إذن لدخلت كلية الآداب . لكننى استرجعت كلماتى هذه ونظرت إليهما قائلا :

— والآن لابد من الوظيفة ١٩

فقالا معا :

— نعم لابد منها .

ثم كان أن خرجت مع الفجر ووقفت أمدى تودعنى عند عتبة الباب حيث استبقت كفى فى كفها مدة غير قصيرة ، وهى تستودعنى الله رافعة إلى السماء عينيّ مخضلتين بالدمع ، فتزعت يمدى بلطف بالغ قبل أن ترى الدموع على وجهى الناحل .

لست أدري ما مر على من الزمن فى جلستى هذه ، غير أن أطراف شعورى التى كانت بعيدة فى زحمة التفكير أدت إلى جمعة القطار المنتظمة التى تجلب النعاس وتسرى فى البدن كالمخدر الخفيف . كما أدت إلى نظرات تحتلسها أسرة تجلس نجاهى . ثم استطعت أن أسترده شعورى كاملا حين هددتنى دمة خجلت أن يراها الناس فانتفضت لها وأفقت كما يفعل المغمى عليه حين تصب على رأسه الماء .

وأنا من الذين يؤلمهم أن يرى الناس آلامهم على حين يرتاح الكثيرون أن يثرثروا بمتاعبهم . ولا أحب شكوى الحال ولا شكوى المقال . وقد رأيت على وجه السيدة التى أمامى علامتى تعجب وتأثر فأذانى ما رأيت - وإن اعتبرتني وإهما فيما أقول - ففتحت حقيبتى وأخرجت كتابا سرت به وجهى وأنا أطلع فيه .

ولم يكن عنوان الكتاب بأكثر مرحا ولا أقل تشاؤما من مظهرى وعنوانى فقد كتبت على جلده بحروف ضخمة كلمتان هما :
« آلام ... » .

قرأوها ولا شك لأننى رفعت به كلتا يدي ودفنت وجهى بين صفحاته كما سبق أن قلت لك . وما ليث أن أحسست رجل الجالس أمامى تحتك برجلي وهو يهم بالقيام كأنها حركة غير مقصودة وإن كنت واثقا أنه يقصدها ، فأخرجت وجهى من حجبته ونظرت إليه نظرة استفهام مودب فطالعت على شفتيه ابتسامة حلوة قال على أثرها :

« أستاذك فى فتح زجاج النافذة وأظن أن الجو الآن قد تخلص من رطوبة الفجر ، فهل تأذن ؟ »

فقلت : بلا شك . وأيقنت أن هذا مفتاح يديره فى باب الحديث لأنه استطرد يتكلم عن الجو :

— أترافقنى على أن جو الخريف أكثر إنعاشا للنفوس من جو الربيع ؟
ثم ضحك نصف مقهقه لأنه خمن بأننى لا أوافق .
قلت : كيف ؟ والربيع فصل الأناشيد والألحان أما الخريف يا سيدى فهو فصل احتضار الجمال ؟

كان محدثى رجلا يخطو إلى الخمسين من عمره قوى البنيان ، تلبو على ملاحظه قله المبالة وعدم الاكتراث ، ويلو لك سميننا جدا لأنه ملئ الجسم غير مديد القامة ، ويخيل إليك أن شحمه لم يوزع على بدنه بالمساواة لأن معظمه قد تكل فى كرشه وشدقيه . وإذا تكلم هدر وخرجت الكلمات منه متتابعة متلاحقة يجرى ورائها السمع والذهن فلا يلحقانها إلا بمشقة وجهه . ولعل مظهره هذا قد جعل عليه شيئا من اللطف يستملحه بعض الناس ، ولا أنسى أن أقول : إنه قد أحس أنه ثقیل الجسم فعمد إلى أن يكون خفيف الحركة وكان هذا يكلفه عناء غير قليل . كان يلوح كلما تكلم بكف ثخينة بيضاء كأنها من صنع النجاد ، ثم يمسح بها بعد الكلام على فمه الزبد الذى تجمع عليه ، وكثيرا ما يرسل إليك إشعاعا من الضحك لأنه يضحك لا لشيء فتضحك أنت لأنه يضحك ، ثم ما تلبث أن تحس بعد قليل أنك تضحك من قلبك كالمتناعس الذى يأخذ النعاس .

قال لى كأنه يعرفنى منذ زمان :

— ما هذا الذى أراك مكبا عليه يا بنى ؟ .. « آلام ... » بحسبنا ما فى الحياة من آلام غير مصنوعة . أريد أن أقول : من آلام طبيعية .. أقصد .. إنها آلام من صنع الله وحده لا من صنع الإنسان .. وضحك ضحكة اهتزت لصدائها فى مقعدى .

فابتسمت فى عجب وهممت أن أقول : إن الأزهار الطبيعية تملأ الرياض ولكن الإنسان الذى جبل على محاكاة كل شيء صنع أزهارا من

الورق . فلم يمهلى وتدفق يقول فى هدير شديد :
 - الآلام يابنى تملأ الحياة فلا تفتش عنها فى صفحات الكتب ، والدنيا
 التى يرسمها المؤلفون أشبه فى نظرى بالفاكهة التى يصنعها التلاميذ من الشمع
 والصلصال . ولقد كنت وأنا فى مثل سنك مشغولاً بالقراءة حتى ظننت أن
 الحياة علة محاضرات يطالعها المرء فيعرف كيف يحيا حياته ، ولكنى فجعت
 فى خيالى هذا يوم أن ولجت أبواب العمل فأدركت أنى كنت أتعلم السباحة
 على رمل أو حصير .

ثم أخرج منديله ليجهف به عرقه فى غير موسم العرق .
 أما أنا فقد سبحت سباحة قصيرة فى معانى كلامه وفطننت إلى أن هذا
 المظهر الأبله قد يخفى من ورائه حكمة ، وتفرست فى ملامح زوجته فقرأت
 فيها آيات من القلق والاشتزاز ، إنها ضائقة بثرة زوجها .
 ثم اتجهت إليه بعينين فيهما تعطش إلى الحديث فقد كان يبدو عليه أنه
 متأهب لأن يقص قصة . فقلت موجزا وأنا أطوى كتابى : صدقت ..
 فالحياة أعمق وأدق من أن تكون محاضرة يلقيها أستاذ .
 ولم يبد على محدثى أنه سمع شيئا مما أقول أو أنه أحس تيرم زوجته فقد
 كان سلطان الكلام مستوليا عليه حتى أنساه كل ما حوله . فجعل يتابع
 حديثه كأن لم يقطعه عليه أحد :

- ولجت أبواب الحياة فتيين لى أن ما تعلمناه فى المدارس كان سباحة
 على رمل أو حصير ، لأننا فى مدارسنا لا نشرب الفرد حب الجماعة ، ولا
 نعلمه التنافس الكريم ، ولا نرصد المواهب فنوجهها ، وإنما يسير كل شىء
 منها كما اتفق ...

قلت متدخلا وقد استطعت أن أحول بينه وبين الكلام كما توفى فى
 كبح حصان جامح :

- أجل ... أجل . وقد وقعت أنا شخصيا فى هذه النقطة .
 فضحكت أسارير وجهه بضياء من البشر لأننى صدقت رأيه ، وفترت

- ١٥ -

فى نفسه شهوة الكلام ومال فى كرسيه إلى الأمام فاستراح كرشه على
وركبيه وأدنى رأسه منى قليلا ثم قال بلهجة فاضت بتأثر بالغ : وأنت وقعت
فى هذه الغلطة ؟ مسكين يا بنى ... ستدفع ثمن هذه سنوات كثيرة من
عمرك إن فكرت فى الرجوع . وقد حدث لى أننى فكرت فى الرجوع
فدفعته خمس سنوات من أيام شبابى الزاهية ...

فابتلعت ريقى فى عسر من هذا الفأل السيئ وأردت أن أقص عليه طرفا
من محتى وأثقا أننى سأنال من وراء هذا بعض راحة ينالها المكروبون إذا
أفاض كل بما فى نفسه ، لكنى لم أوفق واستمعت إليه يقول :

— كان ذلك منذ ثلاثين عاما على التقريب حين بدأت حياة العمل
مدرسا فى إحدى مدارس التجارة ، وكان أبى صائغا عوده استعمال الدرهم
والقيراط أن يزن مشاكل الحياة بميزان علمى دقيق . فلما رآنى متهللا لهذه
الوظيفة ضحك منى ضحكة سخرية لا أزال أذكرها حتى اليوم ، إذ كشفت
عن تجويف فمه الخالى من الأسنان والتمعت معها عيناه من وراء منظاره
السميك . وقد اعترضت عليه يومئذ بأننى محسود من زملائى على هذه
الوظيفة وبأن مستقبلا باهرا ينتظرنى ، فقد كنت آية من آيات الله فى عملى
المدرسى .

قال أبى :

— أنا لا أحب تسفيه رأى ولا الجدل الطويل العقيم وإنما أقول لك
يا بنى وأنا رجل طالت صحبتي للذهب : إنك إن أقدمت على هذا فلن
تكون غنيا ، ستكون أداة من لحم ودم تستخدمك الدولة وتمتلك بزيت
يسمونه قوتا ، فإذا ما فسدت الأداة دفعوا تعويضا يسمونه مكافأة أو معاشا
وهو شيء لا يغنى فتىلا عن شيخ ضعيف يدب فى طريقه إلى القبر . وقد
تكون كثير الأولاد كأبيك ، فلا تورث أبناك إلا فقرا ویتما ، إياك والبريق
الكاذب .. خلها نصيحة والد أو تقبلها نصيحة صائغ .

ولكنى لم أؤمن بما قاله أبى وبدأت حياتى مدرسا ، وتلقانى زملائى فى

المدرسة بما اعتبرت نفسى فيما بعد أهلا له ، لقاء غير كريم .. لقاء الخلد للطمعة .
فقد كنا هناك ثلاث فرق : فرقة المجتهدين الذين لا يعرفون إلا ما نذبوا
له من عمل ، وكنت - وأأسفاه - أمثلها وحدى ، وفرقة الذين حميت
ظهورهم فلا يضربون على بطونهم كما يقولون فى ريف مصر ، وكانوا
أقلية ، أما الأكثرية فهم حاشية الناظر وتختلف درجات سعادتهم بمقام
قربهم أو بعدهم عن القطب الأعظم .

ومضى على ذلك عامان ، كنت فيهما بين إخوانى كالمنبوذ عند المنود ،
لأننى كنت على يقين أن كل مقدمة تنتج نتيجتها كما تجرى الماء فينبت
العشب ، أو تثب من أعلى جدار فتجذبك الأرض ، ولم أكن أعلم أن هناك
جزاء يسمى جزاء سمنار ، فى حكمه أن يصفق الناس للفاشل وأن يضحكوا
من المجيد ساخرين . كنت مخلصا ولكنى مكروه . وأشق شىء على النفس
أن تسير فى طريق رزقك حذرا تتلف وتتوقع مع كل خطوة أن تحمل بك
كارثة . هناك لا يستقيم لك السير ولا تأمن سوء المصير .

ثم انتفخ شلفاه قبل أن يرسل زفرة طويلة حتى كأنه ينفخ فى ناي من
القصب ، وفارق المرح ملاحه الساذجة الصريحة السهلة واستطرد يقول :

- نعم مضى عامان على حالى هذه ومات أبى وورثنى بين إختوتى
الكثيرين مالا قليلا ، ووجدتسى فى الثانية والعشرين من عمرى
فتزوجت ، ثم نظر إلى زوجته كأنه يستأذنها فى أن يتابع الحديث ويرجوها
ألا تتضايق ، وقال :

- وإذا كنا فى وظائفنا نأخذ علاوة كل سنتين فإن الله كان يمن على
بعلاوة كبرى فى كل عام ، فقد كان يميننا مع كل ربيع طفل أو طفلة حتى
إننا احتفلنا بذكري زواجنا الخامسة يوم سبوع ولدنا الخامس . (فاحمر وجه
السيدة خجلا وفرت ببصرها إلى نافذة القطار فى الناحية الأخرى . أما أنا
فقد تبسمت فى أدب) .

- وهكذا صلقت فراسة أبى وبدأت أعانى ضائقة مالية ، ولا تسل يابنى

عن حال رجل مضطرب البال فى بيته وعمله ، والبيت دنيا صغيرة مستقلة عن دنيانا نلجأ إليه آخر النهار نطلب فيه راحة وسكنا ، فإذا كان غير مريح لسبب من الأسباب كان سعيره أشد من سعير جهنم ، لذلك فقدت توازننى فهويت مذعورا كالذى يمشى على حبل عال مد بين ساريتين .

ولست أنسى اليوم الذى ختمت به خمس سنوات فى حياة المدرسة ... لقد كان يوما عسيرا ، تركت فيه زوجتى تعاني مرضا شديدا من آثار الولادة وتركت ولدين كذلك مصابين بالحصبة وذهبت إلى المدرسة لأزاول مهنتى المحبوبة . وشاءت ظروفى ذلك اليوم العظيم أن أتاخر عن الحصّة الأولى عشر دقائق ، وما اجتزت فناء المدرسة حتى استدعانى الناظر . دخلت ذابل العينين من طول ما سهرت ، وشعرى غير منتظم كما ينبغى . وعذارى نابت غزير ، ورباط عنقى مائل إلى اليمين أو الشمال قليلا فى بنية قميصى ، وشفتاى مشققتان ، لأننى لم أفطر ولونى حائل ومفاصلى مرتبكة وحالتى المعنوية هباء وهواء .. فرأيت سيدى الناظر ممسكا بقلم رصاص ومائلا بكرسيه إلى الأمام . وبادهنى حين دخلت عليه بأن طرق بطرف القلم غير المبرى عدة طرق على ظاهر المكتب لينبهنى قبل بدء الحديث ثم قال : ليست هذه طريقة عمل يا أستاذ ... أسمع أنت هذه الجلبة التى فى فصلك ؟ .. فدخل فى نفسى أن أحد أتباعه قد أشعل الفصل ضوضاء ليهيئ أمرا يريد الناظر ، فاستشطت غضبا وتبادلت وإياه كلمات سباب بجمهر على رنينها أتباع من الإخوان الكرام ، ثم خرجت من المدرسة فى نهاية ذلك اليوم بعد أن أبرمت أمرا لايحل .

وسكت قليلا كأنه يشوقنى للبقية كما ينزل ستار المسرح فى آخر فصل عند مشكلة تشغل النظارة ، ولكن ما لبثنا أن خرجنا جميعا من جو قصته إلى حادثة تافهة وقعت فى القطار ولكنها لطرافتها وجدتها استزدتنا من ذكرياته التى شغلتنى وإياه .

كانت زوجه غارقة فى ضحك شديد على حين كان القطار آخذا فى

- ١٨ -

سرعته العادية بعد أن تهدأ فترة وهو يغادر إحدى المحطات .
أما الركاب من حولنا فبانّت على وجوههم آثار انفعال مختلفة المعاني ،
فمنهم من كان يضحك لسروره ، ومنهم من كان واجما فى صمت ، ومنهم
من كان يناقش رجلا ريفى المظهر يقف إلى جانب إحدى
النافذ . وسمعت أحد الجالسين على مقربة منى يهمس :

- ليست هذه أخلاقا .

وتمتم آخر :

- إنها لاتعلو أن تكون حيلة لطيفة .

وقال صوت ثالث بصوت عال :

- لقد ضحكنا على كل حال ، إنه رجل ظريف .

قالت الزوجة :

- قبل أن يتحرك القطار من الخط السابق ، طلب هذا الرجل كوبا من
عصير الليمون من بائع يقف على رصيف الخط ... انظروا إليه الآن تعرفوا
بقية القصة .

ونظرنا فاذا الكوب لا يزال فى يده وإذا بصوت يقول له :

- عصير مثلج بعشرة مليمات ، وكوب بعشرين مليما على الأقل .. إنها

حقا غنيمة باردة !

لم أعلق على ما رأيت إلا بنظرة احتقار سلدتها إلى الرجل :
أما محدثي فجعل يتململ فى كرسية من وقلة الغيظ ، ويصق من النافذة بين
الفينة والفينة فى حركة عصبية ، كأنما وقعت عيناه على جيفة ، وقد كان
صاحبى من قبل فى اكتئاب من أثر الذكرى ، فزاد من اكتسابه ما قد رأى ،
فأغار الموضوع اهتماما خلقيا بالغا من المحتمل معه أن يؤدى إلى شجار لو أنه
وجه إلى الريفى كلاما مباشرا ، ولكنه ما لبث أن مهد للتخلص من الحاضر
والتراجع إلى الماضى الذى عشنا فيه فترة من سفرنا :

- نحن يا بنى فى زمن لا يدفع فيه أحد منكرا ، (ثم خفض من صوته

كثيرا ليقول) :

- ١٩ -

- لو أن لى أن أعاقب هذا الرجل لحطمت الكوب على رأسه الشرير .
وهكذا كان إخوانى فى المدرسة ينظرون إلى ظلمى كما ننظر نحن الآن إلى
ظلم صاحب الليمون ... ساجر ، وآسف ، ومحمد ، أما أنا فقد قفلى إلى
منزلى ظهر ذلك اليوم الذى اشتبكت فيه مع الناظر ، وقد أقسمت بينى وبين
نفسى ألا أدخل أبواب المدارس بعد أن أمهد طريقا آخر لرزقى . وألفيت
البيت مستشفى صغيرا خاصا ، درت فى أرجائه كارها كالمرض المغبون ،
فجهزت الطعام بمعونة خادم صغيرة ، وأعطيته الدواء ، وقدمت الغداء ،
وسويت الفراش ، وأمرت كل مريض بأن يستجم ، وأويت إلى غرفة
أوصدتها على لأفكر برهة فى هم نفسى .

وفى أصيل ذلك اليوم ارتديت ملابسى وركبت إلى أحد أطراف القاهرة
وهناك فى جنوبها وفى أحضان جبل المقطم ترى بقعة واسعة جرداء تسطع
فيها رائحة غريبة تملأ خياشيم المزكوم كأنها رائحة ريش يحترق ، وتمتاز
أرض هذه البقعة بأنها كثيرة التراب ، أما سماؤها فلا تخلو ساعة من ساعات
النهار من أسراب الخلد التى تنقض على بقايا الجلود فى نهم وجراحة وشراسة
.. ولعلك فهمت الآن أننى قصدت مكانا أهلا بالمدايح .

واستقبلنى رجل كهل من أصدقاء والدى زاول هذه الصناعة منذ ريعان
صباه وأفاد واستفاد . وعجب من أننى آثرت زيارته فى هذا المكان العطن ،
ولكننى أخبرتته أننى راغب فى أن أنشئ مذبغة وأننى جئت أستعين برأيه
وخبيرته . فقال صديق أبى : إن كنت تريد المال فتعال إلى هنا وإن اخترت
الوجهة فابق حيث أنت يا بنى .

قال محدثى :

- هناك يا بنى تنساب جداول الذهب من ثنايا الروائح المنتنة ومن تحت
أقدام أناس يخوضون الخوايب وعلى جسد كل منهم نصف غرارة ، وما أشبه
هؤلاء فى مصر بعمال المناجم الذهب فى أوروبا !

- ٢٠ -

وقصارى القول أننى نفذت واستقلت ، وكانت ألد متعة طعمتها نفسى
فى حياتى أننى وقفت أمام الناظر آخر مرة وأنا أقدم استقالتى .
وقلت له :

- أنت نقمة فى طيها نعمة ، وقد استضأت بنار ظلمك فاحترت من بين
طرق الحياة ما يرضينى .. وداعا أيها الرؤساء ، من غد سأكون سيد نفسى .
وقد كان .. ولما وقفت علاوة الوظيفة وقفت على أثرها العلاوة السنوية
الكبرى ، فلم يزد عدد أولادى الخمسة الذين ذكرتهم وانفسح لى مجال
العمل وأقبلت على الدنيا وتركنا العلم لمن يخدم العلم ، وهم أحد رجلين :
إما مستغن ، وإما زاهد .

وضرب بكفه كفه الأخرى وهز رأسه وهو يقول هذه
العبارة .
فقلت :

- شكرا ، أنت خير من كتاب ، وكأنك عرفت أننى على أبواب
مستقبل ، بقى لى يا سيدى أن أتشرف باسمك فهذا يسعدنى .
وأكبر الظن أنه لم يكن معه بطاقة تحمل اسمه ، لأن كثيرا من أصحاب
الأعمال لا يمنحون البطاقات أهمية تأسر كبار الموظفين ، الذين يحلون
بطاقتهم بذكر منصب أو عدة مناصب كما يزين الضابط صدره بالأوسمة .
وذكر لى صاحبى اسمه ، ولكن أذنى لم تسمعه ، وحافظتى لم تسجله لأن
القطار كان آنحا حين بدأ بذكر اسمه فى عبور جسر على النيل قريب من
القاهرة ، فعلت ضوضاؤه وارتفع صفيره حتى لم أستطع سماع ما يقول .
وحجزنى الحياء أن أستعيد ذكر اسمه مرة أخرى .. قد تعجب من هذا ولكنه
هو الذى حدث .

٣

كثير من الناس مثل «الثانية» التى يعبت بها الأطفال فى الأعياد ، ينفخونها حتى تنبج ، فإذا ما خلوا سبلها نفثت ما فيها من الهواء دفعة واحدة . نعم كثير من الناس أشباه لتلك ، يحمل الواحد منهم قصة نفسه على مضض فإذا سافت له الفرص شخصا غريبا عنه ، تخلص منها وألقاها بين يديه .

وقليلا ما يقص عليك أحدهم قصة غير مشرفة ، وإلا لقصصت أنا على صاحبي فى الفطار فجيلة والدى ، وغالبا ما نسمع فى هذه الفرص مأساة خاتمتها النجاح ، ولعل هذا راجع إلى ولوع كل متحدث بأن يرى فى مظهر الأبطال .

ولما هبطت القاهرة وجدتنى فى مدينة كأننى لا أعرفها ، غبت عنها شهرين كاملين ثم دخلتها فى يومى هذا ، فألفيتنى أتأمل مناظرها بنهم وطمأ كما تتأمل ملامح الحبيب الجميل بعد فرقة طويلة .

على أن نفسى كانت مفعمة بمحدث صاحبي الذى كشف لى عن آفاق كنت أجهلها ، ولعل خيالى الخصب الشرود كان يرسمها فى وقت من الأوقات سماء لا يزرغ فيها نجم نحس واحد ، أما بعد أن سمعت قصة ذلك الذى ما عرفت اسمه فإن فكرتى عن الوظائف تغيرت ، ولكنه ليس إلى الحد إلى أن أقطع فيه بشيء .. وماذا أقطع ؟؟ إننى لأسخر من نفسى .

لم يكن طريقي فى الحياة واضح المعالم ، بل كنت كالمسافر الذى يحزم حقائبه ثم يركب قطارا يصادفه دون أن يأخذ تذكرة . أو كالذى يركب قطار المفاجآت تماما ؟ فإذا سألتنى ماذا تنوى أن تكون ؟ قلبت لك

- ٢٢ -

كفى وهزئت لك كفى ، فتعلم أن جوابي : لا أعلم !
أما إذا سألتني : ماتحب أن تكون ؟ فإني أستطيع أن أجيبك ، ولكنى
لا أفعل إلا بعد أن أتق بك ، وسؤالك هذا يختلف عن سابقه ، لأن نيتك أمرا
غير حبك أمرا ، فإذا وثقت بك وعلمت أنك لن تقتات على حياتي أجبتك
وأنا محول بصرى إلى الناحية الأخرى ، ووجهي مصطبغ بجمرة نخجل خفيفة
قالا : أحب أن أكون أدبيا .

ولماذا ؟

لأنه ليس من ذنبى أن تخرجت فى كلية الزراعة ، وليس من ذنبى كذلك
وأنا فى الثالثة والعشرين من عمري الآن ، ألا يعلم أحد عنى شيئا لأن فرصة
واحدة لم تسنح لى .

وسأدع الخوض فى هذا الحديث ، لأنك ستعلم عنه الكثير بعد ذلك .
أثرت أن يكون مرورى على الحى الذى كنت أسكنه ، أول عمل آتبه ،
فترجلت من الزام وحقيقتى المتوسطة الحجم فى يمينى وعلى شعرى وحلتى
غبار خفيف من غبار السفر ، وسرت قاصدا تلك البقعة التى كانت آخر
مطافى فى عهد تلميذتى ، ودخلتها فشعرت أن كَأَننى
أحلم ، واضطربت جوانحي بمعان غامضة لم أستبين منها إلا أن ماضى
المتعثرين فى حبال الخط خير من مستقبلهم ، لأنه ماض قد وقع وانقضى ،
وفرغنا من الإحساس بالآلمه إلا من الذكرى ، أما المستقبل .. فيأله من
شبح !

كان الحى كما هو بصيانه الكثيرين المختلفين فى سنهم ، كأنما أنتجتهم
معامل التفرخ ، وشرفاته ونوافذه لا تخلو من المظللين كالعادة ، وحارته التى
رصفت بأحجار مربعة متلاصقة ، كانت كذلك كما عهدتها . هنا ماء
مراق تفوح منه رائحة الصابون ، وهناك قطعة أو عدة قطط تتنازع فضلات
سمك ملقاة على الطريق ، وغير هذا وذاك عربات بائعى الخضروات الجائلين ،
وقفوا وحولهم النسوة ، وقد ارتفعت حولهم أصوات المساومة ، مناظر إن

فصلتها عن أحيائها الوطنية فقدت ماهيتها وضاع قوامها ، فلا تستطيع أن تتصور حيا بدونها ولا تغدر أن تتمثلها بغير الحى ، كأنهما المسرح والرواية كما يقولون .

وبطوت خطاى فجأة من غير قصد لأننى واجهت منزلا كنت أنا ساكن طبقة الأولى ، ولذلى كما يلذ لغيرى من الناس أن أرى وجهها من وجوه أقامت فيه بعدى . وفى لحظة قصيرة المدى رسم خيالى وجوها سعيدة تنتقل بين حجرتين أو حجرة ونصف حجرة إن صح تعبيرى ، وألح هذا الخاطر على فؤادى حتى لم أستطع مقاومته ولم يكن من المألوف أن أقف وسط الحارة أرقب النوافذ من غير سبب فإنه شئ يلفت الأنظار ، فوضعت الحقيبة وأسندت عليها قدمى وفككت رباط حذائى ثم أعدت ربطه فى حركة بطيئة مصطنعة وعينائى تحتلسان النظر نحو النوافذ ولكننى لم أر أحدا .

ماذا عسى أن يكون شأنى مع ساكن أطل فرأيت وجهه ا
لاشئ .. إلا أن النفس كثيرا ما تهتم بمصير مستأجر أو مستعار كما تهتم بمصائر الملوك .

ثم اجترت الحى ذاكرة كل صباح ومساء فيه من عامى المنصرم ، وكانت وجهتى منزل صديق قديم يبعد عن حينا هذا مسير ربع ساعة ، ونيتى أن أنزل عليه ضيفا غير ثقیل حتى يقضى الله فى أمرى قضاءه ، لأن المال الذى استصحبته لم يكن يقوى على احتمال أجر النزل ونفقات الطعام ، وما عسى أن يجد لى من سفر ، وكان صديقى هذا موظفا عاجزا يزاول مهنة كتابية فى إحدى مصالح الحكومة ، ظريفا رقيق الطبع ، شابا فى الخامسة والعشرين ، ينظر إلى الدنيا نظرة خاصة به ، فلا يعتبرها أكثر من ابتسامة طويلة المدى ويقول لى : إن هذه الابتسامة سيكون طولها عنده هو ، خمسا وثلاثين سنة لا تزيد ، لأن قلبه أنباء هذا ، كان بوهيميا مرتجلا فى كل تصرفاته ، معاديا لما يكسب لا يفكر فى اليوم إلا إذا أطل من إحدى النوافذ وتحقق تماما أن شمسبه قد أشرقت عليه ، وعندئذ يهيمىء حساب هذا اليوم .

- ٢٤ -

ووجدتني على باب منزله ، فى الساعة التاسعة صباحا ، وهو وقت لا يكون فيه فى البيت ، ولما صعدت السلم وانتهى بى إلى السطح ، قصدت من فورى إلى كوة عميقة فى إحدى حيطان شقته ، وأدخلت يدى فيها فأخرجت المفتاح ، ثم عبرت فضاء السطح الفسيح الواسع إلى حيث يقبع هذا المسكن الصغير الضيق فى إحدى زواياه كما تقبع الهرة المقرورة .

ولم يكن صديقى على استعداد لأن يشتري لمسكنه مفتاحا جديدا كل يوم ، لذلك تعود أن يتركه فى هذا المكان الذى يعرفه كما يعرفه خاصة الأصدقاء . وبعد دقائق كنت ممحدا فى جلبابى على السرير أرقب قدميه بين ساعة وساعة تثب حركات ذهني من المستقبل إلى الماضي ومن الماضي إلى المستقبل وثبات ناشزة سريعة كالذى يمشى حافيا على أرض محروثة ، حتى غلبني النوم .

واستيقظت من نومي على صوت مفتاح يدور فى الباب ، ثم على دفعة شديدة أعقبها وقع أقدام ففركت عيني واعتدلت فى الفراش ، ولم يكن القادم غير صديقى « صالح » صاحب المسكن الذى نزلت فيه . فما بصر بى حتى صاح صيحة الفرح :

— عبد العزيز .. يالها من مفاجأة ، وهكذا وضعت المفتاح ثانية فى الكوة بعد أن دخلت لتهىء لى مفاجأة سعيدة .. أه أيها الماكر .
وأقبل على يقبلنى فى شوق واعتزاز وسرور ، ثم قال :
— وأخيرا جئت ؟

وشرع يخلع ملابسه : يرمى بسترته على كرسي وسراويله على طرف السرير ويحذاته تحت منضدة ، وهو يسألنى عن شىء ، ولا ينتظر الإجابة ، فيسألنى عن شىء آخر :

— هل لذت لك الإقامة فى الريف ؟ .. هيه يا عبد العزيز ، كيف

- ٢٥ -

صحتك ، لعلك بخير .. أوحشتنا والله . وكيف خلفت والديك .. ولكن
قل لى : أما زلت مولعا بكتب الأدب ؟؟

كل هذا وهو فى شغل بخلع ملابسه وارتلء ثوبه المنزل ، وما إن فرغ
حتى اتجه إلى بكل ما فيه ، وأنا فى سريره راقد وقال :

— ما بك يا صديقى إننى أنكر حالك ؟

قلت :

— لا شىء ..

قال :

— من الجائز إذن أن تكون قد أرهقت نفسك فى مآسى القصص التى
تبكيك ، وفى الناس ناس لا يكون للواقع .

قلت :

— بل إنها قصتى .. قصة أبى .. وقصة إخوتى . وقصة المستقبل

يا صالح .. قصة غزل نقض ، وصرح هدم ، وآمال تداعت ..

(ولست أعلم ما الذى كان يبدو على وجهى وأنا أقول هذا المقال ، لأن

صديقى هذا الذى لا يبالى ولا يالم ، قطب جبينه وسارع إلى إسكاتى كما

تمسك برجل قبل أن يلقى بنفسه فى اليم) قال :

— كفى .. كفى .. بحسبك . دع هذا العبارات الآن ، (ثم ابتسم

ليخرجنى من مأساتى ، قائلا) : نعم دعها لأننى محتاج إليها فى رسالة غرام

ستمليها على بعد قليل ، فقد كانت رسائللى إليها فى غيابك ضعيفة إلى حد

بعيد .

واكتست ملامحه ثانيا أمارات الجلد ، وجلس إلى جوارى على طرف

الفراش وقال :

— أخبرنى بالأمر على هيئة سهلة . أريده صورة فى غير إطار لأنك كثيرا

ما تبالغ .

- ٢٦ -

فنفضت إليه ما حدث لأبى ، وما أنا بصدده الآن من بحث عن الوظيفة ،
فإذا به يضحك ملء شديقه ، يضحك حتى يستلقى رأسه إلى الخلف ،
وحتى أرى لهاته ، فكدت أغضب ، لكننى ذكرت طبعه ، إنه كتاب عن
البوهمية .

قال صالح ، وقد مال إلى :

- استمع يا صديقى : أيجزك ضياع مالك ؟

قلت مسرعا :

- بلا شك .

قال :

- أيها القارئ الحاسب الأديب ، ليس عندى ما أقوله إلا حادثة واحدة
رأيتها فى أحد نوادى المقامرة .. وسكت ليرى فى عيني وقع هذه المقدمة
التي ظننى لا أحمدها ، فلما لم أعترض عليه أكمل :

- تقدمت خطى الليل حتى لم يبق على المائدة الخضراء فى النادى غير
رجلين ، ضابقت أحدهما الحسارة فأصر على اللعب الطويل ، حتى استنفد
كل ما فى جيبه ، وأراد الكاسب آخر الأمر أن يضايق هذا الخاسر ويشعل
نار غيظه ، فقال له قبل أن يقوم : أتدرى يا صديقى لم صنعت النقود قطعاً
فضية مستديرة هكذا ؟ (وعرض عليه قطعة منها) فقال الخاسر وهو يهز
رأسه : لا أدري . فقال الراح : ليرصها الذى يكثرها مثلى بعضها فوق
بعض هكذا ! (وجعل يجمع ما على المائدة ويضم القطعة إلى القطعة وهو
يقهقه) .

ولكن الذى خسّر قال له قبل أن يقوم : أخطأت يا صاحبي . أتدرى
سببا آخر غير الذى قلته ، لصنعها مستديرة ؟ قال : لا . فقال : إنها سكت
مستديرة على هيئة العجلات لتروح عاجلة من العالى إلى الخفيض أعنى من
الكريم إلى اللئيم . فأعجبني منطق الخاسر حتى اعتنقت مذهبه واحتقرت
المال .

فكان مثال صاحبي هذا كقطرة الماء هدأت غليان قدر .
 شئ لا يقبله المنطق ولكن النفس تسكن إليه .. آه .. إننا فى كل مراحل
 حياتنا أطفال ، تلهينا اللعب ، غير أنه لكل سن لعبة .
 وبعد غداء خفيف تحمل صاحبي كل نفقاته ، جلسنا ندخن ونشرب
 القهوة ، وقد استطاع صالح بما أشاعه حولى من المرح أن ينقلنى إلى جو
 تنفست فيه بسهولة ، جو من التفاؤل النسبي ولو إلى حين .

جعل يحدثنى عن كتيبي التى تركتها مع أثنائى الخفيف وديعة عنده ويقول :
 — إنها لم تغن عني شيئا فى كتابة رسائلى الغرامية . عجيب يا أخى
 أن يتحد وقع الحوادث على قلوب الناس وأن يختلف كل فى طريقة
 التعبير عنها . كنت أحس أن نفسى تجيش بمعان أريد أن أسطرها على
 صفحات الرسالة ولكنى لا أستطيع ، لذلك أريد أن ثملى على عدة
 رسائل تتناول كل واحدة منها معنى أو حادثة من التى تكون عادة بين
 الحبين ، فإذا ما غبت عني أو تخلت عن معاونتى استطعت بتغيير يسير أن
 أحصل على الرسالة المطلوبة فتتناول الأولى فناء الحبيب فى الحبيب ،
 وتعرض الثانية للهجر والدلال ، والثالثة للاعتذار ، وهكذا .. وهكذا ..
 كان الاهتمام آخذا عليه كل مشاعره كأنه يعالج مشكلة حيوية
 كبرى ، وكانت حقيقة موقفى أننى غير مرتاح لهذا المسلك الفج
 ولا لتناول الحياة بهذه الطريقة ، لكننى — ولا اكتمك — كنت أحسد
 هذا الإنسان ، والمرء إذا حفت أمانيه بالخاوف وكان حريصا على
 النجاح ، ألفى نفسه حاسدا من هم على النقيض من موقفه .. يحسد
 الغافلين ويغبط المتواكلين .

وفرغنا من أمر رسائله المحبوبة ، ثم أذنت شمس يومنا بالمغيب ، فجمع
 صالح أشنات ثيابه من كل مكان ، وخرج إلى حيث تحلوه السهرات ،
 أما أنا فقد بقيت حيث أقلب أمر نفسى وأتسلى بالقراءة .
 أويت إلى فراشى فى الساعة الحادية عشرة ، وجعل حلم يقذفنى إلى

حلم ، ولشد ما يرهقنى أننى من الذين يكمل ليلهم نهارهم وتتمم يقظتهم أحلامهم ، بشكل واضح وإلى حد بعيد ، على أن نوم بعض الناس انقطاع واستغراق يرتاحون فيه من سعي الحياة .

رأيتنى جالسا بين أبى وأمى وأبى غارق فى قفطانه كأنما استعاره من رجل طويل جسيم ، ورأيتنى فى القطار مستمعا إلى حديث جليسى السمين ، ورأيتنى ماثلا - مقدما - بين يدى من أرجو عنده الوساطة .. وغير هذا وذاك من أفعال وحركات قلق وارتباك .

واستخلصنى من حلمى المظلم الثقيل فتحة الباب وصوت صالح يقول فى آخريات الليل :

- عبد العزيز .. أنائم أنت ؟

وكانت نبرات صوته المتعثرة تدل على أنه مخمور ، فأفقت قليلا وبدد بقية النوم توهج مصباح الكهرباء حين أدار زره ، وجعلت أتفرس ملامحه وأنا أقول فى نفسى : حسن .. لقد ابتدعوها طريقة للفرار من هموم الحياة وهم مقيمون على ظاهرها الأرض . طريقة متوسطة . أدنى درجة من فرار المنتحرين ، ولكن أهى محمودة ؟ .. كلا .

- عبد العزيز .. أنائم أنت ؟ ها .. ها .. ها .. هاى . يقولون إن المرء ينام من عمره عشرين سنة .. ثم .. ثم يا صاحبنى ينام بعد أن يموت .. سنوات لا أقول عددها .. حتى لا تتهمنى بالإلحاد .. وأنا مؤمن .. ربما ينام ملايين السنين ، لذلك ينبغى أن نذود النوم عنا ما استطعنا ..

عبد العزيز .. اسمع يا صاحبنى (وقام من مقامه مقبلا علىّ باهتمام شديد حتى دخلنى الخوف ووقف أمامى كأنه يخاطب) :

- لقد حزنتم على ضياع ثروة أيبك ، أما أنا فإننى أحتقر دنياكم هذه ، أذبنا همومها فى النيبذ .. إياك أن تظننى سكران أهذى .. دنياكم هذه مومس هلوك ، أعرض عنها تقبل عليك .. لا تسألنى عن تفسير هذا فإننى لا أستطيع .. إن ذهنى الآن لا يدرك إلا المعانى الكليية المجردة

— ٢٩ —

السامية فلا يتدلى إلى حضيض الجزئيات .

ثم ما لبث المسكين أن فارقه اللمعة الخارفة الحادة التي تنتاب أذهان
السكرارى فى قليل من الأحيان ، فعاد إلى طبيعة السكر وجعل يقول :
— كدت أضل الطريق وأنا راجع ، فقلت ساخرا : لولا شرطى
المنطقة . لكنه قال وهو يقهقه :

— لولا أنه فى هذه الخزانة التي تراها زجاجة من النبيذ المعتق ، خمسة
وثلاثون عاما .. أجل .. أجل . خمسة وثلاثون عاما سأحياها . بقى
منها عشرة ..
قلت له :

— إن شمعة شبابك الموقدة قد تفتحت عليها نوافذ الملذات .. وعبث
الهواء بشعلتها مدعاة إلى سرعة احتراقها .

(لقد داخلتنى فى هذه اللحظة حسرة عليه) فقال وهو يرمى
بجسده المتهالك على الفراش بيجانبي :

— دعها تنفذ بسرعة فإننى أحترق دنياكم ، وثق أنه لن يكون من
ذوبها شمعة أخرى .. فلن أتزوج .

وما لبث أن غط فى النوم كأنما سحبه من تحت الوسادة .

٤

خرج صديقى فى الصباح إلى عمله متأخرا كعادته كل يوم ، حتى إنه لم يعقد رباط عنقه إلا وهو يهبط درج السلم مسرعا . وهناك بين أكداس الأضابير على المكتب يتناول الشاى وطعام فطوره .

أما أنا فقد استخرجت من حقيبة سفرى رسالة زودنى بها أبى ، من نائب الدائرة إلى موظف كبير فى وزارة الزراعة يستوصيه بى خيرا ، وقد حملت إلينا من أول الأمر مغلفة فلم نقرأ ما فيها . وتملكنى خاطر لم أستطع دفعه وهو أن أفرض الغلاف أقرأ الرسالة ، ثم أغلقها من جديد دون أن أكتب العنوان على غلافها مرة أخرى واكتفيت بأبنى حفظته وفعلت .

وما إن فرغت من قراءتها حتى وجهت .. عجباً لهؤلاء الناس ، لا أدري كيف يفكرون ، لم تكن لى من كفاية يعتز بها النائب ويحفظها وسيلته إلى الشفيع إلا أننى ابن فقير أناخ عليه الزمن ، هذه هى المواهب التى أبين أننى سأزاول بها عملى بنجاح باهر ، أما أننى مستقيم ، ذو كفاية يرجى فى أن أكون موضع تقدير فى وظيفتى فذلك شئ جدير بأن ينسى .

وأحسست موضع ألمى بالضبط كما يصدمك حجر طائش فى مكان مجروح من جسديك ، حتى نخيل إلى بعد أن خرجت ساعيا بين الناس أنهم جميعا يعرفون قصة فقرى وأننى لا أخفى على أعينهم كالذى فر من السجن بملايس السجن وضح النهار . وأتلف هذا الخاطر كل تصرفاتى فلم تعد مستقيمة حتى صرت فى مدينة القاهرة أشد ارتباكاً من الريفى الذى أجبرته الظروف على استعمال شوكه الطعام للمرة الأولى فى مكان عام .

وفكرت فى أن أمزق هذه الرسالة ولا أذهب إلى الشفيح وأن أكتب إلى والدى زاعما أن مسعى لم يوفق . ولكن هل أجرو ؟ لقد ربينا على أننا لا نكذب ، وكانت تصرفاتنا الكاذبة أنا وإخوتى تحمل معها دليل كذبها من حيرة فى العينين وارتجاف فى الأوصال يزيد أمرنا المكشوف وضوحا لفطنة أمى على الخصوص .

كانت قدماى تنهبان أرض الشارع فى حركة غير واعية وأنا أفكر فى كل هذا ، وخيل إلى أنني إن كتبت إلى أبى رسالة مفتراة فستحمل معها دليل اختلاقها فتكون على هذه الصورة :

« لم أستطع مقابلة الموظف الكبير يا أبى فى ديوانه لأنه فى شغل دائم بين العمل واللجان وأخيرا قابلته فى إحدى الأمسيات فى منزله ، .. فى الحديقة التى تجلى فيها فن رجل الزراعة ، بين زهر وبقل وحظائر دواجن ولكنه أياسنى .. إن باب الوظائف مقفل ، وسأسعى فى عمل آخر » .

وهذه الرسالة فى متناول قريب من عقلية خريج الزراعة عن موظف كبير فى وزارة الزراعة ، ولكن أبى يعلم كما يعلم النائب أن من حدثه عن حديقته ودواجنه رجل نباتى لا يأكل اللحوم قضى عليه بعد وفاة زوجته الأولى ألا يتزوج ولا ينجب ، لأمر لا يعيننا منه شىء .

وابتسمت ساخرا من خيالى ، وبدا لى أن أصلح من شعرى لأنه طويل ، ولأننى على عزم أن أقابل أناسا ، فعرجت على دكان حلاق ، ولما استويت على كرسيه أسلمت شعرى لضربات مقصه التى تبعث على الملل وجعلت أسلى ملالى بقراءة إحدى المجلات الأسبوعية التى تحفل بها عادة أمثال هذه الأماكن .

وهنا يحق على أن أقف قليلا لأنبهك إلى أن النفس تستسيغ من المشارب ما يوافق حالها فى كل ما يتعاورها من رضا واكتساب وقد كنت مكتئبا ، فلا تعجب أن رأيتنى أتوقف طويلا أمام هذا العنوان خاصة لأقرأ ما تحته .

كانت حادثة انتحار عصرية لعبت فيها الحضارة والاقتصاد معا دورا مرموقا طريفا : أصبحت الأسرة التى تتكون من أم وثلاث بنات كبيرات قعيدات البيت و غلام صغير لا يزال يتردد على باب المدرسة ، أصبحوا جميعا فاستبطنوا يقظة الأب من النوم فلما فتحوا عليه حجرة نومه تراجعوا مذعورين .

كان راقدا فى سريره والملاءة من تحته أرجوانية اللون لأنها تشبعت بدمه ، وعلى أرض الحجرة منه شئ غير قليل ، ووجهه فى مثل بياض الثلج ورأسه جلله المشيب مائل على الوسادة وهو مستلق على ظهره وإحدى ذراعيه متدلاة من السرير فى تراخ لا حياة فيها كأنها غصن طرى ذابل . وبين صيحات الفزع ولطمات الخدود رأت كبرى البنات خطابا فى مكان ظاهر بجانبه فى الفراش كأنه ينادى الناظرين إليه ، فاعتظفته فى ذهول وشرود وقرأت فيه : « بنى وبناتى » .

أعتذر إليكم لأنه لم يكن بيننا وداع متبادل ، فقد كان منى وحدى ، أعنى من طرف واحد ، وأعتذر إليكم لأننى فزعتكم ونشرت فى أفقكم سواد الحزن وحمرة الدم ، أعتذر إليكم قبل أن أثب فجأة إلى العالم الثانى وأبعث إليكم القبلات .

إن إسرافى فى حياتى التى لم تكن قصيرة أدى بنا إلى الإفلاس ، وكان حمقى كحمقى الذى زعم أنه يئرق مكانه فى السفينة فأغرق كل من فيها ، وأصبحت غير قادر على كسب يرضيكم ويحيط مستقبلكم فأسلت دمي قربانا على مذبح الأسرة .

أما المحكمة التى سأمثل أمامها حين يكون كتابى هذا بين أيديكم فأنا أو من بأنها عادلة ، بل عادلة رحيمة ، وإنى مطمئن إلى قضائها ، لقد قطعت شربانى لأموت وستدفع لكم شركة التأمين بعد مواراة جنسانى ألفين من الجنيهات . وهذا هو المال . رزقكم الله حنانا . ورزقنى غفرانا . وداعا أخيرا » .

والنفس الكسيرة المكدودة أشبه شئ بالجسم الذى لاحصانة فيه ،
هذا تعرض له الأمراض ، وتلك تعرض لها المآسى ، أو عللها بما شئت ..
وتجمدت نظراتى على الصفحة وبدا على الشرود ، وكان الحلاق
ولا شك يراقب منظرى فى المرأة . وجعلت أناقش الموضوع :

أهو انتحار ، أم هذه تضحية ، أم هو استشهاد ؟ المسألة فى رأى
فيها نظر .. عضو من الجسم أدى معظم رسالته ثم بتر نفسه ليحيا سائر
الجسد .. جندى شجاع ابتلع سماء فمات لساعته قبل أن يظفر بسره
الأعداء .. شخص واحد أنقذ مجموعا من الغرق ثم ابتلعه اليم .. إنسان
كان سببا فى وجود أناس ولذلك كفلهم ثم اقتضته الكفالة حياته .
ما الفرق بين قولنا لتحى الأسرة وبين قولنا لتحى الأمة ، وما الأمة
إلا مجموعة من الأسرات ، لقد مات فى سبيل الأسرة ، أو قد مات فى
سبيل الأمة ، فماذا أنتم قائلون يا علماء الأخلاق ؟

— نعيما .

—

— نعيما يا سيدى .

— أنعم الله عليك .

واتفضت على الكرسي كما تفيق من حلم مخيف ، ثم ما لبثت أن
دخلت فى غمار السائرين فى الشارع ، وأنا أقول : هل أستطيع أن أقدم
على هذا ؟ لقد قلت عن « صالح » ليلة امس : إن السكارى يفرون من
هموم الحياة وهم على ظاهر الأرض ، فهم إذن أدنى درجة من
المنتحرين ، وكنت ساخطا على كلا الموقفين فما الذى حملنى أن أَرْضَى
عن موقف هذا المنتحر ؟ يُخِيلُ إلى أن حكمنا على جسام القضايا فى
التخيل يُنتَلَف عن حكمنا عليها فى عالم الواقع ، وكثير من الحوادث
يفرض نفسه على عقولنا بعد أن يقع .

ولا أستطيع الآن أن أحدد لك موقفى ، تماما ، فقد بلبت هذه

(بعد الغروب)

الحادثة التى قراتها بقية خاطرى ، فأصبحت لا أنظر إلى الأجر والعمل على أنهما وحدة متصلة ، بل أصبحت كفة الأجر عندى أكثر رجوحا .. أريد المال .. نعم ، كل جارحة من جوارحى ، وكل ناحية من نواحي نفسى تعج وتنزى .. أريد المال لأنقذ الأسرة .

وقلت لك : إن توقع الكوارث لا وقوعها كفىل بأن يخيفنى . وليست هناك كارثة أشد على أمثالى من الشباب من أن يدفعوا عن باب الوظيفة التى تعلقت بها أفئدتهم .

ومن العجيب أننى اليوم أصبحت لا أرتاع إن توقعت ردى غير موفق لأن مسألة الحصول على المال من أى عمل شريف قد احتكرت كل اهتمامى .

كنت بعد قليل أسحب قدمى بحذر على أرض إحدى الردهات فى وزارة الزراعة ، لأن ارتباكى صور لى أن خشبها الناعم اللامع المدهون سيكون مدعاة لزللى إن لم أقدر لرجلى موضعها كمن يمشى فى الوحل . ثم تصورت السعاة فى حلهم الصفرة يضحكون من سقطتى وقد وضع كل منهم أمام باب حجرة مقفلة وبهيئة خمنت أن للنظام دخلا فيها ، ولم يحدث فى حياة تلمذتى ما دعانى مرة واحدة أن تقع عيناي على مثل هذا المنظر فتذكرت فى هذه اللحظة المتاحف المصرية القديمة ، حيث يتشاءب على جانبى كل باب من أبوابها تمثال أو تمثالان .

ودنوت وجلا متعثرا من أحد هؤلاء الجالسين ويدى فى جيب سترتى ممسكة بغلاف الرسالة كما تحرص على جواز المرور ، ثم سألت عن الموظف الذى أريده فرد على الساعى وهو جالس يبعث بأطراف شاربه الطويل :

— فى لجنة ..

(ألقاها بسرعة الذى يريد أن ينتهى من عمل) .

— إننى أحمل إليه رسالة .

— فى لجنة يا سيدى . (ولا أدرى لم ابتسم) .

أما وأنا أعير الردهة المدهونة الخشب وأنا راجع فقد كنت لا أخشى التعثر ، وصدقتى أنه لو كانت أرضها من الجليد لتزحلت عليها بمهارة بحيث لا تنزل قدمى . كنت أريد أن انشق هواء الشارع ، وكم حمدت الله أن الموقف لم يطل على ..

ونشقت الهواء شذيا نديا فى متنزه واسع قريب ، كنت أخطو على عشبى فيميد تحت قدمى برفق لكن خطوات تفكيرى لم تكن كذلك وكنت أقول مثلا : أليس من الجائز أن يكون هذا الساعى مكلفا رد أصحاب الرسائل ، ومطلبى منقوش على جينى بحيث يعرفه أشد الناس غفلة ، ولكن من الخير أن أنتظر هنا ساعة ثم أعود عله يكون قد فرغ من اللجنة .

ونفضت عن ثيابى حبات من السمسم تناثرت عليها بعد أن فرغت من أكل كعكة اشتريتها وكانت فطورى وأنا جالس على الحشيش ، ثم جعلت أدخن وفى عزمى أن أعود إلى الوزارة التى كانت منى على مرمى البصر بعد أن أفرغ من لفيفتى هذه . ثم فرغت ولكنى لم أزايل مكائى بل جعلت أرقب تقلص ظلال الشجر والنخيل من مكان إلى مكان على أرض الحديقة ، وكان ظلا غير كثيف . فأوحى إلى أن فى الدنيا رجالا لو خلقوا ظللا لكانوا هكذا .

وما لبثت أن وثب إلى خاطرى نص الخطاب الذى تصورت أننى كتبته إلى أبى مدعيا فيه أن الموظف الكبير فى شغل دائم بين العمل واللجان ، فابتسمت ابتسامة يائسة وقلت : لقد تحقق شطر منه .

كانت إرادتى نهبا بين حاجتى وحيائى ، يتجاذبانها فيما بينهما كما تشد خيطا من المطاط بين ذراعيك فيمتد ثم ينقطع متى فرغت طاقته .. وأخيرا كان للحاجة النصيب الأكبر من إرادتى لأننى استرجعت الصورة المؤثرة التى ودعنتى بها أسرتى ، وتمثلت بوارق الرجاء التى رأيتها على

- ٣٦ -

وجه أبوى فى نور المصباح الريفى الساذج ، فسرت متشاقلا . وما إن دخلت فناء الوزارة حتى سمعت من ينادينى باسمى فأحسست شيئا من الأنس يحسه الضالون فى الغابة إذا ما سمعوا صوت إنسان ، لأننى كنت فى وحشة شديدة . ودرت على عقبى فإذا بالذى ينادينى زميل تخرج معى هذا العام فأقبلت عليه متهللا مسلما ، ودار بيننا حديث فهمت منه أنه عين مهندسا زراعيا فى الصعيد ، ثم قال لى :

- وأنت ؟

قلت :

- لا أزال حتى الساعة خريج كلية الزراعة فقط .

قال :

- وهل تسير وحدك فى هذه الطريق الغامضة ، إن طريق الوظائف الآن يحتاج إلى دليل .

فقلت له :

- عسى أن يوفقنى الله (وتصافحنا وافترقنا) .

لم يكن الساعى قد غير مكانه من كرسية فى الردهة ولم يكن قد كف عن العبث بشاربه ، ولم تكن نفسى فى حالة خير من التى كانت عليها فى هذه المرة الأولى . ولما خطوت فحوه لم يكن متجها إلى لكن وقع أقدامى القريب نبهه لقدومى :

- من فضلك ، هل انفضت اللجنة ؟

- انفضت اللجنة .

- أريد أن أقابل البك .

- غدا إن شاء الله .

- ولماذا لا أدخل اليوم ؟

- لأنه انصرف .

- أشكرك .

— ٣٧ —

— —

آه يا أبى !! لقد أردت أن تصنعنى بيدك أنت كما تشاء ، فأنزلتنى
من سماء الشعر وأخرجتنى من جنة السحر فى عالم الأدب ثم دفعتنى إلى
المعمل حيث المخبار والسحاحة ، وإلى الحقل حيث الزروع والآفات ،
فأخرجت منى مسخا مشوها لا هو الزارع ولا هو الأديب ، من أجل
ذلك يا أبى لم تتسع لى مداخل الحياة !!



أريد أن أرتاح ولو راحة يأس لأن أملى كان حملا فادحا أرهق قواى .. كنت كمن يتوقع عقوبة صارمة لا يعرف مداها ، فتلهف إلى حركات شفتى القاضى وهو ينطق بالحكم .

وأظننى مساء وأنا واقف لدى باب بيت جميل أسأل البواب عن ساكنة الكريم ، أمعك بطاقة ؟ فتخلصت من الرسالة التى حملتها وقدمتها إليه ، فما لبث أن غاب عني ثم عاد يقول لى : تفضل .

وصعدت سلما قليل الدرج وأنا فى غمرة من الأسى ، لأننى تصورت الموظف الكبير يلتقى على نظرة عطف أو نظرة احتقار بعد أن قرأ رسالة النائب - وقد علمت أمرها - ومعنى هذا أننى إن رددت فلن أكون راضيا . عوملت بلطف أو عوملت بعنف فلكل عندى تأويل سيئ .. لأننى فقير .

وأنستنى منه ابتسامة خفيفة قابلى بها ساعة دخلت كانت سببا حال بين قدمى وبين العثور فى طرف السجادة التى بسطت على أرض حجرته . ولم يكلف نفسه عناء التصافح بعد أن رد على تحية المساء بل أشار إلى كرسي قريب آذنا لى بالجلوس .

وجلس على طرف المقعد جلسة غير متمكنة ، جلسة الذين يريدون القيام العاجل السريع . ثم جمعت أشتات أعصابى وغالبت اضطرابى حتى لا تخرج الكلمات من فمى لاهثة مرتجلة فأفلحت فى ذلك إلى حد ما ، وألقى الموظف نظرة على الرسالة التى كان لا يزال ممسكا بإياها بين سبابته وإبهامه ثم عاد فنظر إلى ليقول :

- ليس لحضرة النائب يا بنى أن يرجو فحسب ، ولكن من حقه علينا ان يأمرنا ، ونحن فى خدمته ..

- ٣٩ -

فتتابعت دقات قلبي ، وكاد الفرح يبكينى ولكن عيني لم تتحولا إليه وتشاغلته بتأمل نقوش السجادة وأنا مطرق ، وتركته يتابع الحديث :
- نعم نحن فى خدمته ، ولكن أحب أن أستوضحك شيئا فى هذه الرسالة .

قلت :

- مر يا سيدى (وزحفت ظلال اليأس إلى قلبي) .
- لم يوضح حضرة النائب ما إذا كانت هناك وظيفة خالية بالذات جئت تستعين على أن تشغلها ، أو أنه يطلب منى البحث والتوظيف فى وقت واحد ؟

- إن لم أكن مخطئا يا سيدى ، فإنه يقصد المعنى الأخير .

قال وهو يتتسم :

- هذا حسن ولكنها طريقة غير عملية .

ومن الخير فى مثل هذه المواقف أن نبخل بالجهد الذى نبعثه فى البحث عن المكان الخالى لننفقه ساعين فى أن نشغل المكان الخالى . وهنا تظهر يا بنى مشكلة الوقت ، ووقتى ليس ملكى كما تعلم إنما هو ملك للدولة .. أعمال .. ولجان .. وأسفار .. وغير هذا وذاك . ولولا أن بى وعكة خفيفة ألزمتنى بيتى الليلة ما وجدتنى .. إنه من حسن حظك .

فنهضت واقفا ، وهبطت على شجاعة غير عادية لعل لليأس دخلا فيها واستطعت بها أن أسأله قبل انصرافى :

- هل يستطيع سيدى بأن يصبرنى : أى الثلاثة فينا أصلح للبحث عن المكان الخالى : أنا ؟ أم والدى ؟ أم حضرة النائب ؟

فنظر إلى نظرة لمع فيها بريق غضب خفيف ، ولم أكن ليغيب عنى أنه سيغضب ، ولكنى ما رضيت لنفسى أن يظننى غيبا . قال :

- المهمة شطران كما ترى فتصرفوا فى شطركم كما تشاءون .

قلت :

- شكرا .

ودرت على عقبي فارا من الحجرة فى بيته بنفس حالتي التى فررت بها من الردهة فى الوزارة .. لقد كنت أريد أن أنشق الهواء .

* * *

اصطحبت معى عشائى وأنا فى طريقي إلى البيت ، وما كان غير ثلاث قطع أو أربع من سمك السوق ورغيف وحزمة من الجرجير ثم جلست أتعشى هادئا متشهىا بنفس الراحة والإقبال اللذين يتناول بهما الطعام فى غرفات السجون من أيقنوا أن الموت غايتهم . ولم يكن باب الشقة موصدا تماما فسمح لقطعة من القبط أن تلج على الباب وأن تقف قريبا منه وهى تموء مرة أو مرتين قبل أن تغادر مكانها وكأنها تستأذن ، فلما لم تر منى زجرا ولا أذى تقدمت نحوى تتملقنى فى سكينه وتمسح جسدها الناعم فى ساقى فألقيت إليها قطعة صغيرة حذفته من عشائى . ثم فرغت من أكلها وفرغت فوثبت إلى حجرى وأنا جالس ثم جثمت تهر ، وجعلت يدي تمسح شعرها ورأسها فى رفق وحنان ...

معذورون !! معذرون هؤلاء الذين يصطفون من الحيوان ألوانا يسبغون عليها من النعم والعطف ما لا يسبغون على إنسان ، لابد أن نفوسهم شقيت زمانا بوحشة أو اضطهاد أو ظلم من الناس ، لأننى فى هذه اللحظة ساعة اطمأنت إلى المرة - بعد أن نالت من عشائى - كنت على استعداد لأن أقتسم معها نعيم طارئ جديد .

ثم فررت إلى دنيا الكتب التى وصفها لى صديق القطار وصفها لا أومن به فقال : إنها فاكهة شمع أو صلصال .

وجدت كثيرا ممن وعى التاريخ أسماءهم ونصبوا على الأزمان منارات هداية للبشرية ، قد وقفوا على عتبة المجد طويلا يحسدون من سبقوهم من الأبحاد ، ثم يحاولون الدخول مرة بعد مرة فيدفعون ، ثم يتبدل الموقف فى لحظة قصيرة حتى نراهم من الماجدين . وليست الغرابة فى هذا ، بل

الغربة فى أن يقول عنهم الناس بعد ذلك : لِمَ لم يكونوا أول الأمر كذلك ؟

هذا شاعر شاب حىى متزدد يأوى بقصيدة من قصائده إلى صاحب مجلة ويدخل عليه متعثرا فى أذيال حياته : يقدم القصيدة وهو غارق فى عرق خجله ، ثم يعود إليه بعد زمن ليرى رأيه ، فيقول له الأديب صاحب المجلة : إن طريقتك يا بنى ليست كطريقة أحد من فحول الشعر فى عصرنا الحاضر ، إنها نسل مشوه غريب من زوجين ليسا من نوع واحد ، وأنصح لك يا بنى أن تسلك نهج أحد الشعراء الذين ذاع صيتهم وسحرت الأسماع أنغامهم فذلك خير لك ، فيأخذ الفتى قصيدته والجزع يمزق فواده ، ويقفل بها راجعا إلى بيته وهو يكفكف عبرته فى الطريق ويقول : لقد اغترفت شعورى من فوادى !! وما إن تضمه غرفته حتى يوصد عليه بابها ويشعل فى أوراقه نارا ، ثم يرقبها وهى تحترق ، بوجه ساهم ودمع واكف ...

وهذا قصصى ردت عليه المطابع والممثلون ثمانى قصص ألفها فنضد بعضها فوق بعض على مكتب صغير ليكسوها تراب النسيان ، وحلف ألا يكتب بعدها شيئا إلا قصة تاسعة يصور فيها مرارة فشله .

وهذا مصلح يقولون له : أيها الملحد ، فيفر من مكان إلى مكان ... وأخيرا يصفق المجتمع لهؤلاء جميعا ثم يفتح لهم ذراعيه ، ويفتح التاريخ سجله الكبير ليكتب فيه بقلمه العتيق أسماء هؤلاء العباقرة الذين أملوا عليه أسماءهم ، ولا يلبث الناس بعد قليل أن يشيعوا أحدهم إلى القبر ، فى أسى وحسرة ، ويعودوا ليمتعوا عقولهم بترائنه ، ولكن عيونهم تحن إلى صورته فيقيمون له تمثالا ..

قلت : هذه قصة كل عبقرى ، أجل ، وهذه قصة كل تمثال أقيم فى ميادين العالم ، إن فى المجتمع شبيها كبيرا من المرأة ، تمتع ودلال وصدود ، ثم وصل غير محدود قد يمله الموصولون أنفسهم .

- ٤٢ -

ثم دخل على « صالح » نصف مخمور ، فحياني تحية المساء ،
وفاجأني بقوله :

- وبعد هذا ستقول لى إنك لا تعرف الحب يأبها الخبيث .. لقد
رأيتك معها والله .

- مع من يا صالح ؟

- مع حبيبتي ، لا تقل إنها ابنة عمك فليس بينكما وجه شبه ،
ولا تقل إنها غريبة ضلت طريقها فإنها بنت الطريق .

- لا ، بل أقول إنك سكران .

- ولا هذا أيضا ، ليس من الصواب أن تقوله ، لأننى كنت فى حالة
استيقنت فيها ملاحظها واضحة : خضراء العينين ناعمة الصوت ... رقيقة
... ودیعة .

فنظرت تحت قدمى وضحكت وأنا أقول :

- وتناجينى بالمواء والهرير وتقاسمنى عشائى القليل .

لا زلت أعجب يا صالح من الذين تعجز مشاكل العيش على أن تسد
أمام قلوبهم طريق الحب . لقد قرأت عن كثير من أبطال الغنون أن الحب
روى عبقرتهم الثابتة فتمت وازدهرت حتى عطر الأزمان شذاها ، وقد
كانوا يعثرون فى طريق الرزق ، أما أنا الآن بعد أن حلت بأسرتى هذه
النكبة المالية ، فأعتقد أننى أفر من حب قد يعرض لى .

على أننى رقيق القلب بحيث ينفذ من شغافه كل مس خفيف ، وقد
كان لى أيام تلمذتسى هوى مثالى طاهر عذرى خلقتة المجاورة
أو المصادفات ، ثم جرى لغير غاية واضحة ثم سكت الحب وتكلم
الريغف ، فنسيت .

وأستطيع أن أعود فأقول : إنه حب الأسرة ، ألغى كل حب وقام
يدعونى .

قال صالح :

— ٤٣ —

— نعي الأناية ، إن الأنايين مستريحون .

قلت :

— لقد أخطأت فهم الأناية إذا قصدت بها أن المرء يعيش فى نطاق نفسه ، بحيث تكون نفسه وحدها هى الدنيا بجذافيرها ، فيحقق لها الخير ولو أركب غيره مراكب الهلاك . هذا لا يسمى أنانيا إنما هو شرير .

أنا أنانى حين أريد أحقق خيرا لأسرتى ، وأنانى حين أسدى النفع لصديقى ، وأنانى حين أغزو بلادا أخرى فى جيش وطنى ... أنانى فى كل هذا لأنه مضاف إلى شخصى وتعود على منه منفعة مباشرة أو غير مباشرة . فالصدقة ، والقراية ، والوطنية ، كل منها صورة من صور الأناية التى أفهمها أنا . أما أنت فقد ضغطت معناها وضيقته إلى حد أحاله إلى شيء جديد ، ولكى أزيد الأمر وضوحا لك يا صديقى ، أقول إن الأناية عندى تقابلها الإنسانية ، فإذا أردت ألا تكون أنانيا فأحب كل إنسان ، وكل وطن ، ولكن ، هل تستطيع ؟

وانقضى على إقامتى فى القاهرة ثلاثون يوما أخبرت خلالها والدى بحقيقة موقفى وبما نصح لى به الموظف الكبير ، وكانت بينى وبين أبى مراسلات قلت له فيها : يجب ألا تفكر فى أمر نفقاتى فإننى سأدبرها ، وقال لى : إن حضرة النائب قليل السفر إلى القاهرة فى هذه الأيام ، لأنه يجب ان يراقب بنفسه جمع المحاصيل ، وعندما ينتهى من جمعها ويجمعها سيتفضل فيبحث عن وظيفة خالية ، قلت فى نفسى حين قرأت هذا فى أحد خطاباتة : هذا كذب صراح ، لكننى وأبى نستريح إليه ونعلق به كما نركن إلى المنجمين وقارئى الكف ، ونحن نعلم أنهم كاذبون .

وبدا جيبى يندرنى ، وتسربت الدراهم شيئا فشيئا ولم يبق منها إلا القليل ، وصديقى صالح من الذين لا يترددون أن يشاطروا صديقهم كل شيء لكننى عزمت على ألا أرهقه من أمرى عسرا . فصرت إذا جمعتى وإياه موعد الطعام أدعى أننى راجع لتوى من الخارج وأننى تناولت غدائى فى أحد المطاعم . وقد أكون طاولى البطن فأقضى فترة طعامه وأنا أذافع نظرات عينى وتحلب ريقى ، وأصطلى خجلا من نفسى ، لكن رغبات الجسم الحيوية لا تتغلب عليها الإرادة ، ثم لا ألبث أن أتشاغل بأى عمل بعيدا عن مكانه حتى ينتهى من طعامه . ولا أنسى ذلك الصباح الذى خرجت فيه من بيت صديقى بعد أن ذهب هو إلى عمله وأنا أحس وخزا من ضميرى كالذى يحسه الشرفاء حين يدفعون إلى جريمة .. كنت سائرا أتلفت وأنا أحمل على ذراعى حزمة ضخمة ، وانتهى بى المسير إلى إحدى المكتبات ، فوقفت أمام صاحبها وحللت الحزمة دون ان أرفع إليه طرفا ، ثم ذكرت فى هذه اللحظة أنه لا يزال اسمى مكتوبا على زوايا الصفحات التى تحمل عنوان الكتاب ،

فجعلت أمزق بسرعة أطرافها لأحذف اسمي ، ويدي مرتجفة وقلبي كسير
... آه ... ما أشق هذا على نفس الأديب !! يُخيل إلى أنني كنت الساعة
في حقارة من ينبش القبر عن كفن ميت .

ونظر إلى الكتيب نظرة يُبِيد تمثيلها أمثاله ، ألقاها قبل ذلك ولا شك
على أناس كثيرين غيры ، وجعل يقلب الكتب واحدا واحدا وهو يقول
بلهجة المستغنى :

— هذا لا يزال في خزانتي منه عدد كبير ، أما هذا فهو غير رائع لأن
لمؤلفه سمعة خاصة ، وذلك يا صاحبي ، فإن مطبعة كذا ستغمر السوق
بعشرة آلاف نسخة منه ، فأنت ترى أن حاجتي إلى كتبك ليست
كبيرة ..

وانصرف عني إلى مشتر جاء يسأل عن كتاب ، ثم إلى صبي في
المكتبة ليلقى إليه بعض الأوامر ، كل هذا ليرى مقدار حرصى على
البيع ، لم أنصرف ولم أتكلم حتى فرغ إلى وأقبل على يقول :
— رأيك يا سيدى ؟ فقلت مستعجلا إنهاء هذا الموقف السيء : بل
رأيك أنت ، فنقدنى ما نقدنى ، مبلغا تافها لكنه يسد حاجة بطن ،
وسرت على « الطوار » أنقله من كف إلى كف وأقول : شتان بين المادة
والروح وبين الرأس والمعدة ! وقد كنت لا أستكثر الكثير أيام اشتريت
هذه الكتب لعقلي ، واليوم أرانى أرضى بالقليل لأننى أبيعها لبطنى ! .
أبيع تراث العباقرة .. برغيف .. وقطعة من السمك .. وحزمة من
الجرجير .. !! وتنهدت .. ولم تتكرر هذه الحادثة مرة أخرى لأننى
سهرت طوال الليلة التى عزمت على بيع هذه الكتب بعد شروق
شمسها ، سهرت أقلب صفحاتها وأثبت من أفكارها ، كما كنا نفعل
بكتب المدرسة قبل دخولنا الامتحان بدقائق ، ثم كان موقفى مع الكتيبى
فى الضحى تجربة قاسية لم تعد نفسى على استعداد لتحملها مرة أخرى .

وأخذت الأيام تمضى مرة ثقيلة وأنا عند موقفى لا أقول كأننى خارج عن دورة الفلك ، وليس هناك ما هو أطول من ليل الساهر ونهار المتبطل ، لذلك عمدت إلى أن أقضى كثيرا من الساعات فى معظم الأيام منزويا بكرسى فى ركن من أركان قاعة المطالعة بدار الكتب أتأمل الصفحات وأتأمل الوجوه كأننى غريب عن هذه الدنيا ، وبينما أنا راجع منها ذات يوم متخذنا طريقى فى شارع ضيق مزدحم رأيتنى وجهها لوجه أمام زميل ربطت بينى وبينه روابط الدراسة ، وطرات على فكرة هى أن أتغافل عنه وأمضى ، لأننى كنت أحس خجلا وحيرة حيث ألتقى بواحد منهم ، لكن الموقف لم يسعبنى فقد رأيت مقبلا على باهتمام من دفعت المصادفة فى طريقه بصديق ، وسلمنا وانتحى بى ناحية عن طريق المارة ، لأنه أراد أن يطيل الحديث ، قال باسم :

- وكيف أنت ؟ وماذا فعلت بك الأيام ؟

- كما ترى أيها الأخ ، ليس هناك من عمل .. باب الوظائف مقفل فى وجه أمثالنا ، ويقول الخليون : دعك من الوظائف ، وغامر فى عمل حر فذلك أجدى على الشباب ، أين رأس المال ؟

- نعم رأس المال ، ولا يغيب عنك أن الذين يملكون رءوس الأموال لهم من الواجهة ما يمكنهم أن يختاروا بين الوظيفة والعمل الحر ، وكثيرا ما يفضلون الوظيفة ، لأن الواجهة تحوطهم فى وظائفهم بأكثر مما تحوطهم به فى العمل الحر ، وبذلك نفقد نحن الوظيفة ورأس المال فى وقت معا . شد ما تغيرت يا صديقى . لقد كنت فى أيامك الخالية على حال خير من هذه الحال !

- كنت فى حلم سعيد فلما انتهت منه شقيت به .

وهنا ضغط على يدى برفق وقال لى :

- اسمع يا أخى .. هناك عمل ، ولكنه مؤقت ، أقصد أنه عمل يقتل الوقت ويسد ضرورة الحاجة ، شئ يلجأ إليه مثلى من الذين لم ينبتوا

فى الخصب (وضحك) فإن كنت من غرس حقننا استطعت أن تقابلنى
غدا .

ولم تمض إلا فترة وجيزة أطرقت فيها إلى الأرض ، ثم رفعت إليه
طرفى وأنا أقول :
— نعم .. وشكرا .. وسألقاك .

وقضيت ليلتى هذه أستبطى الصباح ، وعرانى نوع جديد من القلق
لم أكن أعرفه لأن صديقى لم يشأ أن يخبرنى بمقدار أجرى ، ولم أستطع
أنا أن أسأله عنه ، فجعلت أقدر الغاية لما عسى أن أمنحه ، ثم أحسب
النفقات فإذا بها لا تكفينى مقيما فى المدينة إذا مددت يدى بشيء لأسرة
تريد أن تعيش وأن تبنى مستقبلا لبنين وبنات ، فأتألم ، فلا ألبث أن
أرفع أجر نفسى جنبها أو جنيهن وأعد قائمة الحساب من جديد ، ولم
أزل هكذا بين إضافة وحذف وحل وربط حتى غلبنى المنام .

أشرقت على الشمس خارج المدينة وأما أمشى فى طريق زراعى ضيق
مترب يشق الحقول إلى أحد معامل المنتجات الزراعية . واستأثر ذلك
البناء الأبيض الزاهى بانبهاى فكنت أسعى إليه كأننى مسحور . سيكون
هذا المكان نقطة التحول فى حياتى ولو إلى حين ، سآمن منذ أن أعمل
فيه أن أرهق أبى بنفقاتى ، وأن أحمل شيئا من كتيبى مرة أخرى إلى ذلك
التاجر الجشع ، وسأضمن أن أخرج ولو شيئا من النطاق الضيق الذى
فرضته على نفقاتى ، وأن .. وأن ..

واستخلصنى من أفكارى وأنا على كئيب من المعمل تلك الحركة
النشيطة التى تدب حول موطن الصناعات كل صباح ، ولم أكن منتبها
إلى آنية اللبن وأقفاص الفاكهة التى يحملها الحمالون إلى الداخل ،
ولا منتبها إلى علب المعدن والورق وزجاجات الشراب التى يحملها صبية
المعمل إلى الخارج ، وإنما كنت أفكر وأعمل ذهنى ليصور لى هيئة
صاحب العمل وهو يلقانى وأخمن ما عسى أن يدأنى به من حديث ،

وسألت عن صديقى الذى لقينى بالأمس ، فما لبث أن جاء ورأته مسرعا نحوى فى معطف من التيل لبسه فوق قميصه وسراويله . واصطحبني إلى الداخل وتركني واقفا على باب حجرة ذى مفصل دوار ودخل هو ومكث فترة لا أذكر مداها لأنها كانت فى مدى الأزلية ، ثم انفتح الباب وخرج إلى صديقى بقوامه الفارع النحيف وعلى شفثيه ابتسامة قرأت فيها الخير والتوفيق .

وما كاد المصراع يستقر فى مكانه بعد تراقص مفصله الدوار حتى قال صاحبي :

— والآن لتدخل عليه ، وأنصحك أن تقبل ما يفرضه ولو مؤقتا وبعد ذلك نرى فى أمرنا رأينا .

دخلت مستأذنا بطريقة خفيفة على بلور الباب ، فألفيتنى أمام رجل تبدو على عياه أثار الزبد والفاكهة ، طرى ندى يندعك وجهه فتظنه فى الخامسة والثلاثين مثلا حتى إذا لحظت عبث المشيب فى رأسه ، ورأيت التجعيدات الدقيقة فى أسفل عينيه علمت أنه فى الخامسة والأربعين ، وليس يعينى إلا أنه صبح بسام ، فقد أزال وحشة رانت على قلبى قبل دخولى عليه ، وسمعته يلقانى بكلمات الترحيب قبل أن ألقى عليه تحية الصباح ، ثم جلست ، وما كدت أفعل حتى ضغط زرا اندفع الباب فى أثر ضغطته ودخل الخادم فأمر لى بالقهوة ، ولا أكتمك أننى ارتخت كثيرا لهذا اللقاء لأننى كنت فى حاجة جد عظيمة إلى أن تدعم شخصيتى المنهارة بشيء من الاحترام وقد حظيت بقدر منه ، وبدأ هو الحديث فقال بوجه باسم ونبرة رقيقة :

— أرجو قبل كل شيء ألا تواخذنى حين أنفض المسألة بين يديك بصراحة تستوجبها مصلحة العمل . ولست أقصد بما سأقوله أن أنقص من كفايتك أو أحقر قدر شهادتك . ولكن حقيقة الموقف هو أننا لا نأبه كثيرا بالشهادات ، فهناك أناس عركهم العمل وأكسبتهم الآلات مهارة

— ٤٩ —

ودراية فاقوا بها أصحاب الشهادات بكثير ، وهم لا يطلبون من الأجر
القدر العالى الذى يتشبت به خريجو الزراعة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فأنت ترى الأزمة الاقتصادية
الشديدة التى يعانىها العالم بأسره مما جعل الحكومة أن تتخرج أشد
التخرج فى قبول موظف جديد ، فتوالت على المنتجين الطلبات الكثيرة ،
قلت برفق :

— نعم .. هو كذلك .

قال :

— وعلى الرغم من كل ذلك فأنا أرحب بك ، لما حدثنى به زميلك
عن كرم خلقك وإخلاصك ، وقد قدرت له أجرا أعتبره حسنا .
وسكت وحدثت عيناه فى وجهى بنظرة طويلة لا تطرف كأنه منتظر أن
أقول : وكم يكون هذا الأجر ؟ ولكننى لم أفعل .. فخرجت من بين
شفتيه المبتسمتين كلمة ارتجفت لها أوصالى وتطامنت عندها آمالى
ولكننى قبلتها :

— ستة جنيهات ؟!

— أشكرك يا سيدى ، قبلت .

— يسرنى أنك قبلت ، تستطيع أن تتسلم عملك منذ الآن .

لم تكن حياتى فى هذه الفترة حياة كاسب ولا متعطل ، فقد كانت
فى مرحلة بين بين وأنا شخصا لا تعجبنى هذه الحياة ، كنت أعود آخر
النهار متعبا مرهقا حتى عافت نفسى القراءة ، فأرمى بجسدى فى فراشى
بعد العشاء فى تهالك شديد ، ثم لا ألبث أن أغط فى النوم .

وهناك فى أخريات الليل يقلقنى مقدم صالح ذلك الصديق الذى
أرانى فى طرف من الدنيا وأراه فى طرف آخر ، كل منا يمثل فكرة فلا
يستطيع أحدهما أن يمد صاحبه بمعونة عقلية .

ولم يكن لى فى حياتى صديق ولا قريب أرجو عنده المشورة
ولا المعونة فقد جعلنى فرط حياتى قليل الأخلاء .

لذلك ثقلت على وطأة الأيام وأحسست أننى أشق طريق مستقبلى
بالفأس فى جبل من الصخر ، وهذه المرحلة الخامدة المتشابكة تخلق فى
النفس فى كثير من الأحيان قلقا وضيقا مزعجين ، حتى أصبحت أتشهى
المفاجآت ... أرجو أية مفاجأة ولو كانت سيئة ، أنتصوّر هذا ؟

على أننى لا أكتمك أن غبطة وقتية حادة اختلجت فى أنحاء قلبى
حين نقدنى صاحب العمل أجرى الشهرى . وقد كنا نأخذ منه زبدا
وجبنا ومربى بتكاليف الإنتاج ودخلت هذه فى غذائى على الرغم منى ،
فحذفت من نفقاتى ثمن اللحم واستطعت أن أمد أسرتى بمبلغ من المال ..
امتدت بى هذه الفترة خمسة شهور متشابهة الصباح والمساء ، لم
أكون لها ذكريات كأنما طرحتنى الحياة بعيدا عن رحاها ، ضقت فيها
بكل شىء : بأصوات آلات العمل ، وبيقظتى كل يوم مع طلوع
الشمس وعودتى مع المساء ، وبزملاء ليسوا أشباها أنا بينهم كالغريب ،
وضقت حتى بالزبد والمربى وكانت حياة صديقى صالح قد خطت أخيرا
خطوة خطوة ، إذ تعرف بإحدى اللاتى يقلن عن أنفسهن إنهن من
أرباب الفنون وقد أقسم لى أنه أحبها .

كان ذلك فى ليلة ظلمت أذكرها لأنها كانت خاتمة ليالينا ، كانت
بداية النهاية لى من ناحية إقامتى بالقاهرة وبداية النهاية له من ناحية
بوهيميته الطليقة ، كانت هذه أولى حبيباته اللاتى عرفت عنهن الكثير ،
فتاة فى الثامنة عشرة قلّفت بها عتبة بيت فقير إلى المراقص حيث يسطع
النور الزاهى وتفوح رائحة الخمر وتنعقد سحب الدخان الخفيفة على
رعوس التملين ، ولابد أنها تعثرت طويلا فى ذبول الفقر ، فلما انبسطت
لها الوجوه وانفتحت لها الجيوب صبت سوط نعمتها على جلود
الناس ، وشركت فيها عقارب الحقد على المجتمع .

— ٥١ —

ولا أطيل عليك في أمرها لأن نفس هذه الفتاة ونفوس غيرها من
قريناتها متشابهة ، كأنها صبت في قالب واحد . ولقفت أخانا صالحا
عصا سحرها ، وكان مشعث الشعر منتفخ الأوداج وهو يقول في ليلتنا
تلك :

— خير ما يفعل المرء في حياته يا أخي أن يمد يده لينقذ نفسا تردت
في مستنقع الخطيئة على الرغم منها .. أحببتها ، وأحبتي ، ولن أزال في
أثرها عالقاً بخطاها ، حتى أعود بها سالكين طريق النور .
وبدا كلامه سليما ، ولكنني أعرف نفسيته ، قلت :
— هؤلاء لا يحبون يا صالح .
قال :

— لا أفهم هذا ، إلا إذا كانت القلوب تستأصل بالجراحة كما
تستأصل اللوزتان .
قلت :

— ولكن الرجوع أسلم لك ، أخشى أن تكون يدها أقوى من يدك
فتجرك أنت إلى المستنقع .
فضحك ملء شذقيه ، وسخر من هذا التشاؤم . وسلك بنا الحديث
مسالك شتى ، فلم ننم لأنه من المحتم على أن أنهض مبكرا ، ويبيت
صديقي صالح على نية السفر إلى مسقط رأسه ليبيع هناك جزءا من عقار
قديم .

٧

ما كدت أصل إلى معمل المنتجات الزراعية فى هذا الصباح حتى انتحيت بصديقى ناحية ونشرت بين يديه إحدى صحف اليوم لنقرأ معا هذا الإعلان :

« مطلوب ناظر زراعة له مؤهلات أو كفاية خاصة ، ويفضل المتمرن ، والمقابلة شخصيا بالعنوان المذكور » .
ورفعنا بصرينا معا عن الصحيفة فى وقت واحد ثم التقت أعيننا لتساءل ، قلت لصديقى :

— ما رأيك ؟

فهز كتفيه فى يأس ، وقال لى :
— ويفضل المتمرن .

قلت :

— هذا فى نظرى لا يمنع من أن نطرق الباب ، لقد حملتنى أنت إلى هذا المكان فليس من النبيل إذن أن أستأثر بخير دونك .
فما كان جوابه إلا أن قال :

— لا يا صديقى ليس فى الأمر مغنم يثير الأنانية على ما أعتقد ، والإعلانات عن الوظائف كالإعلانات عن الأدوية كثيرا ما تكون عن شيء لا قيمة له ، على أننى لا أكتمك أنى لا أرضى بمقامى فى القاهرة بديلا ، ستة جنيهات هنا خير من عشرة فى الريف ، وأنا مقيم بين أبوى ملقى هم نفسى عن كتفى ، ولست أرى من المصلحة أن أشرد فى الريف فى سبيل نظارة زراعية ، هذا وذاك ظلام ، فأبقى فى ظلام ألفته .
أما أنت فلك أن تفعل ما تشاء .

ودخلت من فورى إلى مدير المعمل أستأذنه فى غياب النصف الأخير من هذا اليوم . وتناولت الغداء فى المنزل واسترحت قليلا واتخذت سمتى إلى حيث موطن العيش الذى أرجوه . وكان قطار الضواحي يذهب الأرض بى نهبا وأنا ملق برأسى على أعلى الكرسي متطلعا إلى الركاب من حولى ومتخيلا أنهم جميعا طلاب وظيفة ، وأن عربة من القطار على الأقل ستفرغ فى الضاحية التى أقصدها . كنت مشتتيا أى مفاجأة كما قلت لك . من أجل ذلك لم أكن خائفا .

بدت لعينى الضاحية بعد أن نزلت من القطار ممدودة وادعة تحت شمس أبريل يتحدث كل مبنى فيها عن الاستقلال والترف ، ولم يكن فيها صبيان إلا فى الحدائق أما الماء الذى تفوح منه رائحة الصابون ، والقطط التى تتنازع فضلات السمك فلم يكن لها من وجود ، لذلك أحسست أننى فى مكان غريب .

وعرجت على دكان بدال وسألته عن الشارع الذى يهمنى من هذه اللجنة فوصفه لى ، وجعلت حديقة تسلمنى لحديقة حتى رأيتنى أمام بيت صغير ضل فى حديقته الواسعة كما يضل الكوخ فى وسط المزرعة ، ورأيت ببابه غلاما يرشد القاصدين إلى حيث يستريحون حتى يطلبهم صاحب العزبة وكان منظرا نادرا .

كنا فى بهو مكشوف أمام ثلاث حجرات مستقلة عن المسكن تقوم فى وسط الحديقة ، وقد تجمع فى هذا البهو عشرون لا أدرى لم لم أجد فيهم واحدا من زملائى ، وعندئذ تذكرت قول زميلى فى المعمل ، فقلت لعلهم معرضون . كنا رجالا وشبابا فى أسنان مختلفة وأزياء متباينة ، فينا من يرتدى الملابس الإفرنجية ، وفينا من يرتدى الملابس البلدية ، وبيننا من لبس الجلباب والمعطف ، وجلسنا ينظر كل إلى من حوله وهو يقول : ترى من هو المختار ؟ واتفق لى أن كان

مجلسى إلى جوار رجل إخاله فى الستين من عمره عليه جلباب من الصوف الرمادى وعمامة لا توارى ناصيته من الأمام ، غائر الخدين من تساقط أضراسه وفى يده عصا من الأبنوس جعل ينقر بها الأرض نقرات متساوية ليقطع بها الصمت الذى خيم على الجالسين ، ثم مال إلى يسألنى :

— وأنت يا بنى من طلاب النظارة ؟

فقلت :

— نعم .

وخجلت كأننى أبتغى شبتا غير مشروع ، فتابع كلامه :

— أنت طبعا من أرباب المؤهلات .

فأومأت برأسى موافقا على حين انبرى الجالس إلى جوارى من الناحية الأخرى ، وكان قوى البنيان تبدو على وجهه الصرامة ثقلته قد هضم ريع عشرين ضبعة ، انبرى وقال :

— سيفضلون المتمرن بلا شك .

فكان هذا بداية لأضطراب الحديث بين الجالسين فأخذ كل يروى ما عده ميزة لنفسه ، أما أنا فقد لزممت الصمت .

ومرت فترة الانتظار ثقيلة آذنتنا بانقضائها حين رأيت فى ممشى الحديقة رجلا يخطو إلينا فى بطء وخيلاء وخلفه صبية لا تعدو الثانية عشرة ، تريت مرة أو مرتين لتقطف بعض الأزهار ثم لحقت به وبدأ يصعدان معا درج البهو الرخامى الواسع ، فقمنا وقفا فحيانا بانفخاة من رأسه ثم دخل .

تململ بعضنا على كرسيه ووقف بعضنا ليتمطى ويملاً رثنيه بالهواء ، أما الشيخ الذى كان إلى جوارى فإنه عاد ينقر الأرض بعصاه نقرات مضطربة خافتة سقيمة دلت على خيانة الأعصاب ، وأما أنا فكنت جامدا متبلدا .

وجعلنا ندخل بترتيب الجلوس ، وبمكث الداخل هناك بعض دقائق ثم
يخرج ، فإذا ما كان بيننا فى البهو ركب على شفتيه ابتسامة لا يشك راعوها
فى أنه المختار ثم يحى أو لا يحى ويسلك ممشى الحديقة إلى الباب
الخارجى .

ودق قلبى وأنا أفارق مقعدى دقة ما كنت أتوقعها حين أن لى أن أدخل
على السيد .

دخلت مستحى الخطأ إلى حجرة فسيحة النواحي فهمت حين أخذتها
عينى أنها جزء من المكتبة ، وتقوم فى وسطها منضدة طويلة تعلوها ظهارة
خضراء من الجوخ وتناثرت عليها فى نظام عدة مجلدات فى أطراف مختلفة ،
تدل على أن صاحبها كان يقرأ قبل الغداء وقد أهمل الخادم ترتيبها ، وكان
الرجل جالساً إلى المنضدة ويجواره الصبية وأمامها ورقة وفى يدها قلم ،
كانت نظرة واحدة تنبئك أنها بنته لأن أديم خديهما كان من وردة واحدة .
وقد جرى ماء النعيم فى وجهه رغم السن ، مستطيل الوجه فى يياض شديد
تسرى فى نصاعته حيوية ، يبدو كليل العينين لكنهما صافيتان سليمتان ،
يتوج رأسه شعر سهل ناعم فضى المشيب ، هادىء فيما بدا لى ، رقيق
الصوت ، رقيق الجسم ، سبط الأنامل .

آه ... وأحسست أننى فى كنى ، فى حضرة رجل قريب منى ، فى
مكان عشقه خيالى وحوم فيه ، فى مكتبه أديب ، وبمحضر من أديب ، ولم
يكن فى الإعلان شىء سوى عنوان مسكنه .

واحتوانى كرسى إلى الجانب الآخر من المنضدة تجاههما وهما جالسان ،
وأخذت عيني تدور فيما نشر أمامى من الكتب فأقرأ عنوانها بحركة سريعة
نهمة صرفتني عن موقفى لحظة قصيرة ، ولكن السيد ابتسم ابتسامة مشرقة
وقال بلهجة يشوبها شىء من التعب :

— هل تسمح بالانتباه ؟

فظفر دمي كله إلى وجهى الأسمر وألهب الخجل مشاعرى ، واندفعت من

— ٥٦ —

فمى عبارة أحكمت صوغها الأقدار :

— عفوا يا سيدى فما أتشأغل ، وإنما هى نظرة ود لا غلك دفعها ، ألقيتها على أصلقاء .

— زراعى وأديب ؟!

— هما غذاءان ليس بينهما تناقض : مطلب للجسم ، ومطلب للروح ، وقد جمع « تولستوى » بين الفأس والقلم ، وأجاد « البارودى » نظم القصيدة والمعرفة ، ووزن « الجزار » اللحم والقرىض .

فضحكك والتمعت عيناه ببريق الشفقة وسألنى :

— وما الذى دفع بك إلى طريق الحقل يا بنى ؟!

فكدت أغص بريقى ، واستعرض ذهنى سريعا تفاصيل مأساة أبى وأنا أرسل إلى السيد نظرة جامدة لا تطرف ، وملكنى رغبة شديدة فى أن أقص عليه شىء لكننى أنفت واكتفيت بأن قلت :

— لا شىء يا سيدى ... إلا أن آباءنا يريدون أن يصنعونا بأيديهم ! وقد تخرجت فى كلية الزراعة هذا العام .

— أكنت ترجو لنفسك مستقبلا خيرا من هذا لو أنك اخترت ؟

فعجبت لهذا الاستطراد ولكننى أجبت :

— ربما صادف !!

— أتؤمن بالمصادفة ؟

فسكت قليلا لأعمل ذهنى :

— على أنها كظاهرة جوية يخطئها حساب المرصد ، تقع مفاجئة فتصلح أرضا وتلف أرضا .. ثم أليس .. ثم أليس من المصادفة البحتة أننى قرأت اليوم إعلانكم ؟

— حسن يا بنى ، ولنعد إلى شأننا ، هل تشغل عملا ما ؟

— ٥٧ —

فرأيت من الأكرم أن أقول :

— لا .

— وعلى استعداد لأن تقيم في الريف غير كاره ؟

— إننى ابن فلاح !

— وتقبل عشرة جنيهات في الشهر ؟

— أقبل !

— أتعجب أن تزرع لحسابك شيئا من الأرض ؟

— لست في حاجة إلى هذا .

— أشكرك ويكفي هذا القدر .

ومال إلى ابنته يقول :

— اكسبى يا ليلى اسمه وعنوانه (ثم مد يده مصافحا) .

ونخرجت من البهو فقرأت آيات الملل والسآمة على وجوه بقية المنتظرين ، لأن مدة مكثي مع السيد جاوزت بكثير مددا قضائها مع غيرى ، وعمت من فوري الطريق اللاحب بين أعشاب الحديقة قاصدا إلى الباب .

كانت الشمس على ارتفاع ثلاث قامات من الأفق الغربى وأنا أمشى في شوارع الضاحية قاصدا محط سكة الحديد وذهنى يسترجع الحادثة التي جرت بينى وبين صاحب الضيعة ، وأحسست راحة في صدرى جعلت ألتمس سبيلها حتى عرفته ، وقد كان راجعا إلى أننى وجدت إنسانا بثنته أعظم هم فى حياتى ولو على سبيل التلميح .. هبه لم يقف منى موقف المنقذ لكنى شكوت ألى حيث يجب أن يشكى الألم كما يئن المريض بين يلى طبيب . وقضيت طول الوقت وأنا راجع بالقطار ملقيا رأسى إلى ظهر الكرسي من وراء وملقيا بصرى إلى المصباح فى السقف وأنا أحسب :

عشرة جنيهات فى الشهر .. نعم عشرة . ليس فيها أجر المسكن ، ولا مطالب للمدينة ، وليست فى كف مسرف ، يكفينى منها خمسة ، وللأسرة خمسة ... و ... ثم أقفت مبتسما .. إنها لا تزال فى خزان الغيب .

لم يقلقنى صديقى صالح هذه الليلة لأنه فى مسقط رأسه يدبر أمر مال يدعم به غرامه الجديد ، ومن الحب حب لا يسقيه إلا المال ، لذلك لم يكن هناك من ينقذنى من أحلامى ، فقضيت الليل كله ناظر زراعة ، أمر وأنهى وأزرع وأحصد ، وقد جمعت فى ليلة واحدة محصول عام كامل .

ونفضت عنى غطائى فى الصباح الباكر ، وألقيت فى جوفى بغير شهية عدة لقم من مربى معملنا قبل أن أقصد إليه ، ولقينى هناك أول ما دخلت زميلى الذى قرأ معى الإعلان أمس وكان متلهفا لأخبارى ، وهمس بعد أن انتحينا ناحية يقول بلهجة أذنتى :

— هيه .. أأدعوك من الآن بحضوره الناظر ؟

— لا تعجل يا صاحبي فليست هناك بشائر ، والأمر كله لا يعدو أن تركت اسمى وعنوانى .

فقال مزهوا بفراسته :

— ليتك صدقت .. ها .. ها .. لعلمهم يتفكهون !!

فأومأت برأسى موافقا .. ثم تلهى كل بعمله .

وهكذا يعز على قرناء ضمهم البؤس فى قيد واحد أن يفلت أحدهم ويترك الآخرين ..

وانقضى الأسبوع ، ولم يعد صالح من سفره ، ولم يأتنى خطاب ، وبدأت ذكريات ذلك الموقف المريح تبوخ فى نفسى ، وفارقنى الهدوء الموقت وأوشكت أن أعود إلى طبيعتى المظلمة ، ولم أنهض من فراشى اليوم مبكرا لأننى فى عطلة الأحد ، أى فى عطلة العمل الحر ، ودق ساعى البريد

دقته العنيفة المألوفة فدوى بها مسقط السلم ، فوثبت أعدو إلى الخارج حافى القدمين على أن أسمعه يناديني . ولست أدري كم درجة من الدرجات كنت أقطعها في الوثبة الواحدة وأنا أهبط إليه في ثوب نوم يعتبر من العورات . ولم أكن على يقين من الجهة التي بعثت إلى بالرسالة ، لأنها قد تكون من أبى ، فلما ألفتيتها مسجلة قطع الشك اليقين ، ولم يكن القلم مستريحاً بين أناملى وأنا أوقع ، كأنتى أكتب به للمرة الأولى ، كان رأسى يدور من حميا الفرح ومن هبوط السلم الطويل فى أعقاب النوم ولكننى كنت لا أشعر بشيء إلا بهذا الخطاب .

حضرة ...

يشرفنى أن أخبرك أنه قد وقع اختيارى عليك من بين من تقدموا لنظارة ضيعتى ، يسررنى أنك قبلت الشروط ، وأن تسارع إلى مقابلتى فى أول فرصة » .

* * *

شد ما ساءنى أننى لم أجد أحداً إلى حوارى من يحمل عنى شيئاً من المسرة لأنها ترهق الأعصاب فى كثير من المواقف .. أين أبى ؟ أين أمى ؟ أين صالح على الأقل ؟ أين الهرة التى نالت من عشائى قليلاً لأفردتها بطعامى الساعة ؟ أرانى الآن ضائفاً بالوحدة !!

وخيل إلى أن أرتدى ملابسى من فورى وأن أذهب لألقى صاحب الخطاب ، ولكن هذه الفكرة لم ترقنى بعد أن فحصتها قليلاً ، وآثرت أن أذهب إليه عصر اليوم .

ولقيته فى المكتبة كما حدث فى المرة الأولى إلا أنه لم يكن على بابها نظار ، ولقينى الأستاذ فريد لقاء جميلاً فقد صافحنى اليوم هو واقف تماماً

وجلسنا معا ، ثم مالبت الخادم أن دخل بالقهوة ، وكان يمسك عن رشفه من الفئجان الكبير بين لحظة ولحظة ليقول :

— أما عزبتى يا حضرة الناظر فليست كبيرة : وهى ثلاثمائة فدان فحسب ، وليست بعيدة : سفر ساعة واحدة بالقطار أو السيارة من العاصمة ، وليست سيئة الجو ، فهى جنة تريد « رضوانا » أرجو أن تكون « رضوانها » لا « مالكةا » وضحكنا ، ولكنها كانت دائما سيئة النظر ، بحيث كانوا يتعاقبون عليها بمعدل ناظر فى كل عامين ، ولعلك تفكر أننى سألتك : أتحب أن تزرع لحسابك شيئا من الأرض ؟ ولذلك سبب هو أن الناظر كان يستغلنا استغلالا واسع النطاق ، بحيث يقف نصف مجهوده على خمسة أفدنة مثلا يزرعها لنفسه ويبقى نصف مجهوده فحسب لزرعنا نحن ، وقد أعلنت أننى سأفضل التمرن ، لكنى وجدت أنهم مرنوا على الخيانة أكثر مما مرنوا على الزراعة . وبعد فإن هذا التمرن لم يولد متمرنا ولك من شبابك قوة وفسحة تكسبنا وإياك الخير والبركات .

ثم قال وهو يتفخ دخان لفيفته غزيرا إلى أعلى :

— ولقد لمحت فيك يا بنى رقة الطبع وصفاء النفس وحننت أن الخير عالق بخطاك ، وأنت من شباب قد يفهمون نفسية الأدباء . إن عقلنا مغموس فى عواطفنا ، ولكننا قلما نخطئ . هناك مسكن جميل مستقل يئليه لك بعد وصولك ناظر مؤقت ، وسنلحق بك جميعا بعد أيام ، فمتى تسافر ؟

قلت :

— أريد مهلة غير طويلة .

قال :

— أيكفيك أسبوع ؟

— يكفينى .

— حسن . وأشكرك .

— وداعا يا سيدى .

- ٦١ -



و كنت لا أشعر إلا بهذا الخطاب

— وإلى اللقاء .

« أخى صالح : هل ألقاك ؟ ترى من المقسوم لى أن أراك ؟ من على الزمان بعمل أعتبره حسنا .. ناظر زراعة بعزبة الأستاذ فريد . المفتاح والكوة ، لا تغير المكان » .

« أكتب إليك وأنا على سفر إلى بلدى لأودع أسرتى ، وقد أحمل متاعى إن طالت غيبتك فلا نلتقى إلا فى الرسائل » .

« تركت لك علما من المربى من بقايا عهدى الخالى عسى أن تفكر فتتناول فطورك فى البيت يوما واحدا ، وأؤكد لك أن فيها أكسيرا يشفى من الشقاء .. ومن الحب ، فهل تسمع ١٩ » « من الجائز ألا نلتقى فى القريب .. أقبلك ، وأذكرك بنفسك .. وداعا » .

وكفكفت دمة بعد أن قرأت ما كتبت فقد تخيلت ذلك الشخص الوفى يطويه ظلام البلاء ، وحملت حقيبتى ، وأوصدت المسكن وأودعت مفتاحه الكوة وتسلفت فى ظلام السلم لأدرك قطار الليل .



« وداعا يا مدينة القلب وإن قسوت على فترة من الزمن !! » .
 « ليس رغيفي بين قصورك ، إنما هو هناك بين الحقول !! » .
 وأشبعنا ناظرى من الثريات البنفسجية التى تغمر مبنى المخطط بنور هادىء
 مريح قبل أن يتحرك القطار بى نحو الشمال للمرة الأولى من ستة شهور .
 وبعد ساعات هبطت القرية ، ونخفت الأسرة كلها للقائى فى باحة الدار
 بعد أن طرقت الباب فهتفت أمى : أحسبها طرقت .. إنه ولدى !!
 ولما استقر بنا المكان تناولت عشاء شهيا طيبته يد الأم وظلت جالسة
 طول وقتها إلى جوارى تملأ عينيها منى وتتقى لى يلبها ما أطعمه ، ثم امتد
 بنا السمر إلى هزيع متأخر من الليل حدثت فيه أبوى بكل
 ما صادفنى واستهديت من عيونهما نظرات خلتها سحت متاعبى . ابتدا
 الحديث عن وساطة النائب ، ثم مآطلته ، وانتقل إلى الموظف الكبير
 وما لقيته على بابه ، ثم تناول معمل المنتجات الزراعية حتى انتهى إلى الأستاذ
 فريد وعزته ، وكسيت ملامحى فى كل فترة من فترات قصتى ما كان
 يعرفها فيما مضى من ألم وبؤس ويأس رأيت صداها جميعا على وجه أبى
 وفى عيني أمى ، وأخيرا تنفسنا كلنا تنفس الراحة وهتف أبى :
 — حمدا لله !!

وقضيت أسبوعا نعمت فيه بالحنان ، خلقت أمى فيه من أجلى من جذب
 المعيشة خصبا لا يعرف طرائقه إلا قلوب الأمهات ، وكنا سعداء بأحلام
 المستقبل . فمضت الأيام بسرعة ووقفوا يودعوننى ، لكنه لم يكن وداعا
 حزينا كالذى كان فى المرة الأولى .

وعدت إلى القاهرة ، إلى مسكن صديقى عند ارتفاع الضحى ، وما إن
 دخلته حتى عرفت من فراشه ومتاعه أنه قد رجع من بلده لأنه لم يكن بين

تلك الأشياء شيء واحد وضع حيث يجب أن يكون إلا المفتاح فإنه كان فى الكوة ، واستأثرت بناظرى ورقة مكشوفة كبيرة وضعها على السرير هى خطاب من ذلك الصديق الغريب ، قال لى فيها :

— سرنى أنك لم تعد متعطلا كما سرنى أن وفقت أنا مبدئيا فى بيع العقار وقد نقدت جزءا من المبلغ ؛ وقد أرانى مضطرا إلى السفر مرة أخرى لاستكمال إجراءات البيع ، لكننى لا أدرى أأسافر اليوم أم غدا أم بعد غد لذلك أستودعك الآله من بعيد أن لم تتح لى فرصة للقاء .

ولم يزد على هذا شيئا لكنه أدهشنى أن ورقة مالية بخمسة جنيهات شبكت مع الخطاب بدبوس وقد كتب فى حاشيتها البيضاء المستطيلة بقلم أزرق : إن المسافر يحتاج إلى نقود . فطفرت من عيني دمعة لوقع هذا الوفاء على قلبى .

وبدأت يندى تعملان فى رص كتبى وجمع متاعى القليل ، وجهزت كل شيء للسفر . ثم تركت البيت إلى حيث ألقى صالحا فى عمله ، وهناك بين زحمة الموظفين وحلبة آلات الكتابة وهمس ذوى الحاجات رأيته جالسا إلى مكتب من المكاتب الأبدية التى يرثها جيل بعد جيل ، يتحدث فى أوراقه بعينين أضناهما السهر وعلى يمينه لفيفة تحترق وحدها لأنه فى شغل عنها . وهنا ذكرت قول صاحبى، فى القطار غدا قال لى : إنهم آلات من لحم ودم . ثم ربت كفه برفق وأنا إلى جوار كرسیه فانتبه وقام يقبلنى ، ولم يطل مكثى عنده حتى ودعته ثم شيعنى إلى الباب ووقف يرقبى حتى اختفيت عن عينيه بين الساترين .

ما كنت لأرفض مبلغا امتدت لى به يد هذا الصديق لأننى لم أصطحب يوم سفرى إلا ما يسد مر الحاجة ، ولأننى مقدم على معيشة لست أدرى ما هى ، ولأن أبى وعدنى أن يحاول بعد سفرى اعتصار شيء من المال من غلاته المحدودة ، ولأننى أيقنت أن مبلغا مثل هذا سيرد إلى صالح فى ساعة عسرة من أيامه المفلسة ، من أجل ذلك كله قبلته شاكرا .

ووقفت بالباب بعد قليل عربة نقل صغيرة فضدت عليها المتاع واستوصيت صاحبها بكيتي خيرا ثم سيقته إلى المحط لأهني أمر شحنته .

* * *

لم يقتلني الفرح يوم وفقت إلى عملي كما كنت أتوقع ولم تكن نفسي في جيشان من السرور كما قد خيل إليك ، ولكنني كنت في هدوء خامد أقرب شيء إلى الذهول . إن الأمانى نفسها قد تكون في قلوبنا أحلى مذاقا من تحققها ، أو لعل ذلك خاص بقلبي وحدي .

وروقف القطار لاهث الأنفاس في عاصمة إحدى مديريات الوجه البحرى ، والوقت عصر ، والريبع فى إدباره ، ونزلت مع النازلين أحمل الضرورى الخفيف من متاعى ، ولم ألبث أن عرجت على ناظر المحط أسأله عن أقرب طريق يوصلنى إلى العزبة ، فأدخلنى إلى حجرته وأجبه نحو نافذة شرقية وتناول قلما اعتاد أن يضعه خلف أذنه حتى لا يضيع وأخذ يشير ويقول :

— انظر يا سيدى : إني أرى وإن كنت ضعيف البصر ، هناك على بعد غير قريب ترى شمائل وخنلا وشجرا ، يبدو فى خلالها بناء أبيض ، أترى ؟ وهذه للمدخنة المشرفة . هناك العزبة ، نصف ساعة على قدمك ، وإن شئت أكثرى سيارة هل لك فى تناول القهوة ؟
— أشكرك .

— أضيف أنت على الأستاذ فريد ؟ إنه رجل كريم ؟
— لا (ثم قلت بعد فترة) بل ناظر زراعته .
فعاد يصافحنى بحرارة وهو يبتسم ابتسامة عريضة :
— أهلا .. إن فى حدائقه فواكه ممتازة ، أرجو لك التوفيق ، وأرجو أن تفضل بزيارتنا بين حين وحين .

سرت فى الطريق إلى العزبة أحمل متاعى كأننى ابن سبيل ولم يكن من اليسير أن أقنع باستئجار سيارة بسرعة وسهولة وأخذت الحديقة والمباني (بعد الغروب)

تقرب منى شيئا فشيئا حتى صرت على مدى قريب .
ووقفت لأن سيارة لاحت فى الطريق مقبلة من الناحية الأخرى ،
فجعلت أنفض حذائى من التراب حتى قاربتنى فأوقفتها وركبت ونظر
السائق يسأل عن وجهتى فقلت :

... إلى هذه العزبة القريبة .. (ومحوت بريق العجب من عينيه ، فأردفت)
لأنى متعب .

وانخرنا إلى طريق جانبي خاص غير واسع تقوم على جانبيه أشجار
من اللبخ لتعطر نسيمه بشذاها الطيب ، وكنت أرقب أشعة الأصيل
على زهرها الأصفر نضارا على نضار وأقول فى نفسى : لقد صدق
صاحبها !! هذا مدخل الجنة ؟؟ وما زلنا حتى وقفنا فى باحة واسعة
عجت آخر النهار بالفلاحين وعلا لغطهم فيها وهم مزدحمون بماشيتهم
يسقونها من حوض الماء .

وسحرتنى المناظر فخلت أنسى أحلم ولا ادرى بأى يد نقدت السائق
أجره على الأمطار التى قطعها بى لكى أدخل العزبة فى سيارة ، إلا أننى
كنت أسمع عن بعد وعن قرب أصوات رجال ونساء وصبيان يتهامون :

... الناظر الجديد .. الناظر ، إنه صغير السن !!

وقوبلت من الزراع بتودد واحترام يحسنون اصطناعهما ، ثم دخلنا إلى
حجرة عامة تدار فيها شئون المزرعة وجلست بينهم أرد ألف ثخية وأشرب
أقداحا من القهوة والشاى الثقيل .

كان القمح سيد غلات الموسم أيام هبطت هذه الضيعة تقوم أعواده
فى كل ناحية مسترسلة مع الهواء متناوحة فى كل جانب ، وهناك
خضروات كان أهمها البطيخ ، ولو كنت واقفا فى هذه الباحة التى نزلنا
فيها حيث ينتهى الطريق الخصوصى ، لرأيت عن يمينك منزلا صغيرا من
طبقتين موصد النوافذ والأبواب تحيط به حديقة غير واسعة أهم ما فيها
الزهر والرياحين ، فإذا أخذه بصرك فهمت أنه مسكن المالك من أول

وهلة . وإذا نظرت إلى شمالك رأيت حديقة مسورة واسعة تهدى إليك رائحة الفواكه ، وفى نهاية الساحة حيث ينقطع الطريق غابة صناعية فى خمسة أفدنة يدل عمر أشجارها على أنها زرعت من جيل وأن مماشيتها ومماثلها مهبط سحر وشعر ، وبين حديقة الفاكهة والغابة مسلك ضيق يمشى إزاء جدول وينتهى إلى الحقول حيث ينتهى طول الغابة وعرض الحديقة ، ثم يتعرج نحو الشرق فى صعود يؤدى بالسائر إلى ترعة واسعة ، عليها بناء عتيق ذو مدخنة سوداء الذوابة ، هو « وابور » مياه خرب معطل .

أما منزل لناظر فهو مؤلف من طبقتين يقوم فى أقصى الشرق بجاه منزل المالك ، وبينهما متسع غير ضيق ، نثرت فيه نخلات وبضع شجرات من التوت ، وتقع الغابة إلى شماله على مدى غير بعيد . وفى جنوبه عن بعد أقيمت حظائر الماشية وإصطبلات الخيل .

أما منازل الفلاحين فهى هناك فى أقصى الجنوب تحلم وحدها فى خللاء المزارع يحنو عليها سور من اللبن يحمى ماشيتها ودواجنها من سباع الحقول .

تسلمت مفتاح مسكنى فسررتى أن الطبقة العليا فيه خليفة بأن يسكنها شاعر . ثلاث حجرات تنظر نوافذها جميعا إلى فضاء غير محدود ، فتحت نافذة إلى الشمال ، فحيتنى النسائم تهمس فى ذوائب الغابة ، وفتحت نافذة إلى الشرق فإذا المياه تتدفق فى التربة على مرمى بصرى ، وإذا خضرة الحقول ممتدة حتى نهاية الأفق ، وأطللت نحو الغرب ، فبدا مسكن صاحب الضيعة من خلال غصون التوت وسعف النخل ، فأحسست راحة كالتى يحسها المكردون بعد سفر طويل ، ومنيت نفسى الأمانى ، أن أسهر ليلالى المقبلة قارئا متمليا جمال الكون فى هذا العش الجميل .

نظمت الليلة فراشى ورتبت مسكنى بعد أن وصل متاعى فى أحد

قطارات البضاعة ، وقفلت زينب إلى مسكنها وهى فتاة ريفية تقيم فى العزبة مسحت عليها كبرى بنات الأستاذ فريد بيد الحضارة فى عدة مناسبات ، فعلمتها فنا أو أكثر من فنون الطهى أضافت به ثروة جديدة إلى معلوماتها القروية ، وقد تعهدت هذه الفتاة بمحضر من « حامد » أن تقوم بشئون بيتى ، وأن تكفينى مؤونة التفكير فى الخبز والغسل والطعام .

كانت طويلة القوام كأنها نبتت فى الغابة ، سمراء لفاء ، بسيطة المظهر فانتته ، كأنها زهرة برية ، تغلب عاطفتها على عقلها فى كل ما تأتى من تصرفات ، وقد رأيت لحامد شبه سلطان عليها ، ولعل ذلك راجع إلى غرام خفى بين هاتين الروحين لم يتح خفاؤه فرصة لسكان العزبة أن يتحدثوا به .

وبقيت أنا وحامد لتحدث ونشرب الشاي الذى حتمت على ظروف إقامتى هنا أن أشربه كما يشربه المقيمون ، وألفيتنى أستمع إلى حديث هذا الرجل وهو شخصية من التى تفرض نفسها على من رآها ، فيها شهامة وفيها صراحة ، وفيها تطرف فى الحب والكراهة ، وإيمان عميق بالمقادير لا يبالى معه أن تنزع من فمه اللقمة ، سلطانه فى العزبة أدنى درجة واحدة من سلطان الناظر ، ويتمتع بثقة كبيرة عند الأستاذ . قال حامد :

— كلنا هنا نتملق شخصا واحدا ونخطب وده ونستجدى رضاه ، لأنه المسير الأول لدفة الأمور ، يقيم عندنا شهرا أو أكثر من شهور الصيف ، ثم يزررنا مفتشا مرتين أو ثلاثا فى كل عام ، والويل يا سيدى لمن ابتلى بغضبته ، عليه يا سيدى أن يجزم متاعه ويخرج مع الليل ، وإذا أحب هذا الشخص عمى عن كل العيوب ، ووثق بمن يختاره ثقة لا تنقصم عراها ...

قلت :

— ٦٩ —

— أهكذا خلق الأستاذ فريد ؟

فضحك وهو يحرك ملعقة في إناء الشاي ليزوب السكر . وقال :
— عفوا ، عفوا .. إنما أقصد ابنته الكبرى ... أقصد الآنسة أميرة
... إنها كل شيء .

وهنا ثارت في دمي بقايا بقيت من نخوة ريفية توارثناها ، وقلمت
أظافرها الحضارة والتعليم ، فقد قلت في نفسي متشائما : سنحكم
بيد امرأة !

واستطرد « حامد » يقص على قصة نفسه بعد أن فرغ من شئون
الناس :

— أما أنا يا سيدى فريب هؤلاء القوم ، هم سادتنا من جيلين
أو ثلاثة ، وفي تراب هذه الأرض دفن جدى ، وفي تراب هذه
الأرض وارت أعز الأحباب ، أمى وأبى ، وأخيرا ... (وسكت
ليرسل زفرة) ... وأخيرا زوجتى وشريكة نفسى وحياتى .

كنت وحيد أبوى وقد ألبجاني على شوق ، وأعفيت من القرعة
العسكرية ، فكان ذلك عندهما عيدا ، أرادا أن يتوجا فرحة العيد
بفرحة أخرى فلم تمض شهور حتى كانت دقات الدفوف ورنات
الأغاريد تتجاوب بين مساكن العزبة ، وزفت إلى عروسى التى
أحببتها كثيرا ، زفت إلى فى أخريات الخريف ونحن نحصد الذرة ، ثم
زفناها إلى القبر بعد شهور فى وسط الشتاء ونحن نزرع البطاطس
... حصدها التيفوس مع من حصد . أجل فى الشتاء تماما
ولا أنسى ، لأننى ذهبت غداتها إلى المدينة لأشتري جهاز دفنها ،
وكانت قطرات المطر تختلط على خدى بقطرات الدموع . وتدخلت
أنا لأخلصه من برائن الذكرى فقد رأيت تحت ضوء المصباح ربة
وجهه ، وزينغ بصره ، فقلت :

— وكم سنة مضت على هذا الحادث ؟

— عشر سنوات يا سيدى .

قلت أستطيل الوقت :

— عشر سنوات ؟ ا لم لا تتزوج ؟ فربما سلى الجديد عن

القديم .

— آه ... الأيام كفيلة بالإجابة عن هذا السؤال .

وبعد فلى عمة عجوز أرمل تقوم بشئونى وكأنها أم ، من أجل ذلك لم أرنى مضطرا لأن أدوس الماضى ، فظللت أعيش فيه ، وقصنى هذه ومن هذه الناحية تشبه قصة صاحب العزبة ، فقد قضى الله أن تموت زوجته أثناء وضعها فما تنفست بنته لىلى نسيم الحياة حتى كانت أمها فى سكون الموت بعد ساعات .

وسمعتنا صباح ديك فى مساكن الفلاحين من بعيد لعل الليل كان قد خدعه ، فانتبه حامد إلى أننا قد سهرنا طويلا ، فاستأذن وبقيت أنا وحدى أطلع كتابا فى الزراعة ، ومنذ بدء حياتى هنا جعلت وقتى شطرين بين ما كتبه الزراعيون والأدباء .

وكانت حواشى ذهنى وأنا أقرأ تفكر فى هؤلاء الأفراد الذين نصبتهم الأيام فى طريق حياتى والذين سيكون لى معهم جميعا شأن عادى أو غير عادى ، ففكرت فى زينب وحامد والأستاذ فريد والآنسة أميرة ، هذه التى لم أرها ، وجعل خيالى يصورها لى صورة فتاة ملأها المال والجمال والتدليل غرورا جارفا ، فجعلت أهيبء شخصيتى الحية المسالمة الفقيرة للقائها كما كان المتبارزون يهيئون سيوفهم فى القرون الوسطى قبيل المبارزات ، وكثيرا ما كنت أعقد محاورات بينى وبينها فى الخيال أخرج منها قاهرا أو مقهورا . وأيا كان موقفى فإننى وطدت العزم على أن أتحمّل مسها فى كل ناحية إلا إذا عاملتنى على أننى فقير .

وجعلت الأيام تنساب فى هدوء ساكن كما ينساب الماء فى الجدول ، وأطللت من فقرى على فقر أشد إدقاعا يعيش فيه من أعيش بينهم ، فخف ألمه فى نفسى إلى حد ما . ثم انتفضت العزبة من سكونها حين وقفت سيارة فى باحتها التى وقفت فيها قبلا ، وقفز من بين ركابها غلام يفتح الباب ، واشترأت أعناق وتطلعت عيون وخف كثيرون للقاء الوافدين وحمل الحقائق ، ثم ما لبث منزل أن انفتحت مصاريع نوافذه ودبت فيه الحياة . وكنت أنا عند طرف حديقة الفاكهة أرى ولا أرى وقلبي يتابع الخفقان .

كنت فى حيرة من أمرى ، ووقعت فى تردد شديد بين أن أخف للقاء القوم وبين أن أتريث حتى أستدعى ، وكنت إلى الرأى الأخير أشد ميلا ، وقطع على ترددى غلام من أبناء الزراع جاء يعدو ملء ساقيه وهو يقول ويشير بيده :

— إن سيدى فريد بك يطلب حضرة الناظر .

ثم رجع يعدو نحو المنزل ليعلن لهم أننى حاضر .

وجعلت أصلح من رباط عنقى وأجرى يدى على ذقنى وألقى نظرة على كسرة سراويلي . كل هذا بحركة لا إرادة فيها ، واتخذت سمتى إلى هناك فاجتزت حقل الأزهار حول المنزل ، وصعدت السلم إلى حجرة الاستقبال حيث تراصت الأسرة على أرائكها المريحة . وكانت ساقاى ثقيلتان كأنهما أسطواناتان ملتفتا رملا حتى نجلت من نخجلي ، وصرت ألعن حامدا فى سرى لأنه هو الذى أوقعنى فى هذه الربكة .

إن جو شخصية الأستاذ فريد غير ثقيل ولا خناق ، وأستطيع أن أقول إنه جد مؤنس ، لذلك كان المنارة التى اتجه إليها خاطرى طول جلوسى . أما الآنسة أميرة ففى نفسى منها حذر شديد منذ اللحظة الأولى ، حكمت عليها حكما غاييا ونفذته ، وحكمى الحضورى أن

شخصيتها عنيفة ، أو يُخيل إلى ذلك . وأعنف شىء فيها عيناها ، كانت نظراتي تذوب فى نظراتها كما يذوب الثلج فى الماء المغلى ، لذلك قلما التقى طرفانا ونحن جلوس .

ولم يكن من الطبيعى كما علمت أن يختص والدها وحده بالتحدث فى شئون الزراعة فظلت حاضرة مجلسنا طول الوقت كأنها شريك . وبدأ الأستاذ بالسؤال عن شئونى وأخصها المسكن ووجدت فى هذا المقال مجالا للثناء عليه فطفقت أقول :

— كل بناء هنا وكل غرس وكل تخطيط يدل على ذوق ورائى سليم ، إن مقام ساعة واحدة فى منزل الناظر الشاعرى الجميل كفى بأن يذهب عن المكثود تعب شهر ... والغابة : جمال الطبيعة خلقتة الصناعة .

فابتسم الأستاذ فى زهو وسرور واعتدل فى كرسية يتهيا للحديث ثم قال :

— أما الغابة يا أستاذ عبد العزيز فهى الرقية التى سحرتنى فى هذه الأرض ولولاها ما أطق المقام فى هذا المكان ، وأعتقد أن جدى الذى غرسها كان شاعرا ، أحرق أوراقه لسبب من الأسباب ، وبنتى أميرة تفضل الغابة على حديقة الفاكهة .

ونظر إليها متسائلا فى حنان ونظرت أنا كذلك ، واستطعت أن أملأ عينى منها فى هذه الفرصة فسمعناها تقول :

— أجل ... من ناحية النزهة والترفيه ، أما من ناحية الإنتاج فحديقة الفاكهة أفضل ، أليس كذلك يا حضرة الناظر ؟

ووقعت فى حرج بين النفى والإيجاب وسكت برهة ومغناطيس عينها منصبا على حتى استطعت بعد ذلك أن أقول :

— عفوا يا آنسة . فليس هنا علاقة بين الجمال والإنتاج ، هما طرفان لا تجمعهما موازنة .. هذه اللوحة الزيتية التى علقت على

الحائط لو استغل ثمنها منذ تعليقها لتضاعفت جنيهاً ، وكذلك عطل الإنتاج فى سبيل الجمال .. والخيل فى الإصطبلات جمال بلا إنتاج ، وأشياء أخرى كثيرة أيضاً ، إنتاج بلا جمال . على أن حديثنا عن الإنتاج هو عملى الرسمى ، ولكن الوالد الكريم تفضل بالسؤال عن خصوصياتى .

وابتسمت متطلقاً حتى لا تظن أننى أسفه رأيتها ، على حين استرسل الأستاذ يهز رأسه فى ارتياح عميق ، أما هى فقد شخصت وانضمت شفتاها شأن من كان يتعجب ، ولم أسمع منها جواباً إلا ما كان من بسمه خفيفة .

ودخلت زينب بالقهوة ترفل وتختال فى ثوب جديد ، ولما قدمت لسيدتها القهوة أدركت من نظرتها وبسماتها أن بينهما مودة تفوق ما بين الخادم والمخدوم ، ومرت فترة صمت كنت لا تسمع خلالها إلا صوت رشقاتنا الخافتة ، قالت أميرة بعدها فى تلمظ :

— وإذا أردنا أن نتكلم عن الإنتاج يا حضرة الناظر ؟

فضحك الوالد وابتسمت أنا ، ووضعت الفنجان من يدي ، واستطعت بعدما كان أن ألبس شخصيتى التى كنت أهيتها فى وحدتى لألقى بها هذه الأسرة .

قلت :

— نتحدث عن الإنتاج لأن الآنسة أرادت ذلك ، وإن لم نوف

مواطن الجمال من ضيعتكم حقها :

— سنبدأ حصاد القمح فى الأسبوع القادم ، وسنجمع بواكر البطيخ من حقول البطيخ ، وسنقوم ببعض إصلاحات فى عروش العنب ، وسأكافح آفة « التجير » ، وسأدخل على الإصطبلات بعض إصلاحات فنية و .. و ..

قالت أميرة :

— هذا حسن .

قلت :

— بقى الأحسن . (فنظرا إلى فى تشوق على حين استطردت أنا

أقول) :

— ليس من طبعى أن أبخس غيرى حقه ، ولا ان أبنى قصرى من
الأنقاض فأدعى أن الأعمال هنا فاسدة وأن الذين سبقونى كانوا
مقصرين ، فالأعمال فى الحقل والحديقة ليست سيئة على ما بدا لى ،
وأنتم أدرى الناس بما جمعتم من ثمرات . لكن الذى أرى أنه ضرورى
ناقص ، هو أن الذين كانوا قبلى لم يعن أحدهم بتربية الدواجن
ولا النحل ، وهذه ثروة تدعم إنتاج المزرعة كما تدعم خيرات البحر
إنتاج الجزيرة .

فاستخف الأستاذ الطرب حتى صفق وقال وهو يشير بكلتا يديه :

— هذا حسن ، زراعى وأديب ... انظرى يا أميرة ... ذلك
اختيار أبىك يا بنيتى ... طنين أسراب النحل بين أشجار الغابة ،
وفوق أزهار الحديقة ، وخلاياه الجميلة تهدى إليك الشمع والعسل ،
يا لها من فكرة !!

أما أميرة فقد بدا عليها الارتياح وبرقت عيناها الجميلتان ببريق

الموافقة ثم قالت وهى تبتسم :

— وأحسنتم التحدث فى الإنتاج ، ومتى تبدأ ؟

قلت :

— عندما تخف زحمة العمل ، وسأبدأ استشاراتى فى الفرصة الأولى .

وقبل أن ينفذ مجلسنا ، وبعد أن زايلتنى ربكة النحل استطاع
بصرى أن يلم بملاحظتها ، وأن يجوس خلال محاسنها حتى تكونت عنها
صورة لو كنت رساما لرسمتها بعد خروجه ، ولكن مهلا فقد أصفها
لك .

الحفلة الأولى للموسيقى ناشئ ، والحصّة الأولى للمدرس جديد ،
والبيت الأول من قصيدة ، وأول حديث بين متجاهلين ... كل
أولئك قد يكون أثره بعيد المدى في حياة صاحبه .

وقد استطعت في مجلس الليلة أن أسيطر على زمام الكلام وأن
أخرج سيد الموقف ، فرأيتني أهبط السلم بخفة الظافر بعد أن نجوت
مما عدته محنة وكانت صورة جمالها المستبد وهو مستسلم لخطوات
منطقي لا تزال عالقة بخيالي .

ودبت الحياة في شخصيتي الضعيفة ، وإياك أن تعجب مستعبدا
أن حادثة واحدة تخلق شخصا ، فإن أبطال التاريخ وزعماء الشعوب
ومن نعتوهم بأنصاف آلهة ، ولد مجدهم بعد حادثة واحدة فاندفعوا
من نجاح إلى نجاح . نعم ! لقد بدأت أعطف على نفسي ، وأفضل
حاضري وما عسى أن ألقى فيه عن ماضي في فصول المدرسة
ومعامل الكلية ، حتى كدت أقتنع — وقد يكون ذلك من حسن
حظي — أن كثيرا من الذين انطوا على نفوسهم خجلا بين القماطر
صاروا فيما بعد من عظماء الرجال .

وبقيت مشكلة لا تزال عسيرة الحل ولم أستطع أن أتغلب على
آثارها في نفسي حتى الآن ، وهي : أننى فقير .

كان الأستاذ « فريد » رجلا رقيق الطبع حلو السمائل ، لا يأبه
لشيء في الدنيا الآن وهو في غروب عمره إلا بإنتاجه الأدبي ، من
أجل ذلك كانت الكتب نصف المتاع الذى حمله معه من القاهرة ،
وهو يتدخل في شئون الزراعة بما تبقيه له القراءة من مجهود قليل ،

ويتولى الناظر كل شيء تحت مراقبة يقظة من عيني « أميرة » مدة إقامتها هناك ..

أصبحت العلاقة بينى وبين هذه الفتاة منذ لقائنا الأول قائمة على احترام متبادل بحيث كانت تجمعنا المصادفات فيسارع كلانا إلى إلقاء التحية ، أسلم أنا بوجه باسم وانحناءة خفيفة لا تكاد تدرك ، وتسلم هى بوجه فارغ الملامح لا تكاد ترى فيه معنى من المعانى ، ثم أمضى إلى حاجتى لا أتلبث إلا إذا سمعتها تتكلم .. عند ذلك أحبيها فى وضوح موجز ثم أمضى محييا . أما العلاقة بينى وبين الأستاذ فهى علاقة عادية لكنها تبشر بمستقبل ود جميل . كان يتفق لنا أن نلتقى فى مكان فيسلم ويستبقى يدي فى يده مدة وهو يتكلم شأن من لا يتعجل لإنهاء المحادثة . ثم يترك يدي ويثب فى حديثه من ناحية إلى ناحية . كمن يختصر القصة وهو يلقيها على مسافر قبل أن يتحرك القطار ، ولا أدرى لم أشعر بالحب نحو هذا الرجل ؟

أما حامد فقد كانت الساعات تربي حبه فى فؤادى ، وهو وإن لم يكن من المثقفين الذين يسبحون معى فى بحال واحد ، فإنه ذو قلب كبير ، وأرأنى قد بدأت أثق فيه .

وأما زينب فلا أستطيع الآن أن أحكم عليها ، ويخيل إلى أنها قد رسمت حياى خطة طويلة محبوكة ، أو لعلى مخطئ أو مبالغ فربما كانت حركاتها لا تعنى أكثر مما تحمل ، لكن الذى حملنى على الشك هو أن عينها فاضتا بالغزل من يومنا الرابع . وأنا ريفى المنشأ أفهم عقلية الريف ، وأعلم أن همسات الحب الخافتة تسمعها آفاق القرية ، لكننى لم أستطع أن أقف منها موقفا إيجابيا ، لأن حاجتى إليها شديدة ، وقد أكون مشتاقا إلى معرفة ما تريد .

جعلت من بيتى الحدود الأناث فردوسا صغيرا . ورأيتى مرة أحمل فى يدي زهرة فوضعت على منضدتى التى أقرأ عليها طاقة من الزهر ،

وسهرت على راحتي بحرص وأمانة ، كانت تقف إلى جوارى كل مساء عاقدة ذراعها على صدرها الناهد لتقول لى : وماذا يكون غداؤك فى غد يا حضرة الناظر ؟ (تسألنى ببشاشة وتودد وحب) فأقول وأنا ملق إليها بكل إحساسى يكون كذا وكذا وكذا ، وأنا أعلم أنها ستعترض ، فما يكون جوابها إلا أن تقول : ولم هذا ؟ أتترك لى حرية الاختيار ؟ إن فعلت أعددت لك طعاما غديا رخيصة شهيا تحمد بعده يدى زينب ، فأضحك موافقا ، فلا يلبث وجهها الأسمر أن يشرق بسرور فاتن ، وهكذا صارت مع الأيام مدبرة بيتى المحدود الصغير . .

كان عشائى الليلة بيضا وجنبا وبعض خضروات طازجة ، أخلت زينب لآنتيتها مكانا بين الكتب على منضدتى وأنا جالس ، وقبل أن أهم بطعمى رأيت فى عينيها كلاما فنظرت أسألها فى رفق :

— هيه .. ماذا تريدن أن تقولى ؟ أهو شىء عن غداء باكر ؟

— لا ، بل عن الليلة يا سيدى .

فلم أفهم ماذ تعنى ، وبدت فى عيني الحيرة حتى أجابت :

— إن سيدى فريد بك ، يرجو أن تذهب إليه بعد العشاء إن كان فى

وقتك فسحة .

ثم أخذت تلور حولى وأنا أطعم ، لتؤدى أعمالا لا أرى لها داعيا إلا المبالغة فى العناية أو تضييع الوقت .. كانت مثلا تحلق فى كوبة الماء فترة ثم تأخذها لتعيد غسلها وتعود فتقفل مصراعا من زجاج النافذة لتعيد فتحه كأنها تثبته فى مكانه ، وأخيرا وقفت تنظم الكتب التى لم تكن إلا منظمة حتى وقعت يدها على مجلة أسبوعية من تلك التى يجلى غلافها بصور الممثلات فأمسكتها وجعلت تنظر فيها باهتمام وصمت .

فقلت مبتسما :

— أتعرفين القراءة ؟

فقلت :

— ٧٨ —

— ليتنى كنت ، إذن لاستطعت أن اعرف من هذه المرأة التى أعجبنى جمالها .

فأجبتها لأجاذبها الحديث :

— إنها فلانة ، أتستطيعين أن تبينى سر سحرها فى رأيك ؟

فقلت دون أن ترفع عينيهما الساجيتين عن غلاف المجلة :

— سر سحرها فى رأيى ! هذا ما لا أستطيع أن أعبر عنه ، ولكننى

أستطيع أن أوازن بين جمالها وجمال امرأة أخرى ، ولكن الآنسة « أميرة » .

ثم نظرت إلى لى رأى ، فأمسكت ولم أتكلم وجعلت أمضغ

الطعام وعينائى إلى صحافه ، على حين استطردت وهو تقول :

— عينا هذه خضراوان ، وعينا « أميرة » سوداوان ، والعيون السود

فى رأى أشد جاذبية وفتنة .

قلت بلا اهتمام :

— هيه .. ثم ماذا ؟

— وشعر هذه ذهبى وشعر تلك غزير طويل .

فأكملت أنا :

— والثانى أجمل وسحره أفعل . أليس كذلك ؟

فأومأت تبسّم :

— بلى هو كذلك .

قلت :

— ثم ماذا ؟

فنظرت تقول :

— لست ادرى بعد ذلك شيئا .. إلا أنه يخيّل إلى .. أظن ..

مما لا شك فيه أن الآنسة « أميرة » أطيب قلبا من هذه المرأة ..

فضحكت ملء شدى حتى خشيت أن يتناثر الطعام من فمى ،

وأقبلت عليها بعد ذلك لأقول لها فى رفق من يرشد الضال :

— وكيف عرفت ذلك ؟ أبهذه البساطة يحكم الناس على القلوب ؟
وكانت فى خجل وحيرة أكسبها وجهها البسيط السهل فتنة
وحلاوة ، فرأيتها تبتلع ريقها وترسل ببصرها إلى السقف كأنها تستلهمه
الجواب حين قالت فى سناحة طلية :

— كل شيء يبين على الوجه !!! الوجه مرآة يا سيدى !
وانفلتت خارجة من الحجرة كأنها تلميذ صغير أخفق فى الامتحان
وبقيت أنا أكمل عشائى فى شرود وتفكير ، فلما فرغت منه عادت
لستأذنى خارجة . وألقت على تحية خلقتها عابسة واجمة أو عاتبة غير
راضية .

كل شيء يبين على الوجه !
ترى ماذا تقصد ؟ ! يخيّل إلى أن كل جارحة من جوارحها كانت
تنتلج وهى تلقى هذه العبارة ، وأنها كانت تحكم بما قالت على قضية
تتعلق بنفسها وأنها أحست ضيقا حين لم تجد صداها فى نفسى .
مسكينة جدا . إنها مخدوعة ، ما أشبه قلبى فى هذه الفترة بعود لم
تشد عليه أوتار ، وهى تريد أن تعزف عليه .

دخلت منزل الأستاذ فقابلتنى « ليلى » بوجهها الصبوح وقفزت
تجرى أمامى إلى حجرة نحو الغرب تعلن قدومى لأبيها ، وكانت هناك
نغمات خافتة تنتشر فى جو المكان من أوتار « بيان » فى غرفة شرقية ،
ولم يكن هناك من يعزف عليه بالطبع إلا الأنسة أميرة ..

لقد عشت بعد ذلك طويلا ، ومرت سنون وسنون ، ولا يزال قلبى
محتزنا هذه النغمة ، حافظا سياق توقعاتها ، وكم تمنيت لو استطعت
عزفها .

كان الأستاذ فى مبادله جالسا إلى كتبه وأوراقه وعليه شرود الأدباء ،
وتبادلنا تحية المساء فقال لى :

— معذرة يا بنى إن أزعجتك ، ولكنها الحاجة الملحة .. هذا منظاري ، عيناى المستعارتان كسرتا فرأيتنى عاجزا عن القراءة ، فكان لابد أن أستعير عيني شاب ، لأنه لا مفر من أن أجز هذه القصة التى ستنتشر فى مجلة أسبوعية ، ولابد أن تصل إليها بعد يومين على الأكثر . وأخذ يجمع ورقة من هنا ورقة من هناك حتى كان بين يدى بضع صفحات كتبت بخط دقيق .. ثم قال :

— نبدأ الآن بترتيبها حسب أرقامها ، ثم نقرأ على لأصلح ما يحتاج إلى إصلاح ، وتبقى بعد ذلك مشكلة نقلها بخط واضح .. آه .. ماذا كنت تظننى فاعلا ، بعد أن وضعت كتابا ثقيلا على زجاجة المنظار فانكسر ، وكان ذلك مصدر شتاة من « أميرة » التى تود ألا أقرأ كثيرا .. إنها تحرص على صحتى ، ولكن الذين يمنحهم الله بالأدب قلما يفكرون فى الشيخوخة وقليل ما يراعون حقوقها .

هذه قصة تعبر عن فناء الحبيب فيمن يجب ، انتزعت حوادثها من أصداء الشباب القديمة مع تغيير فى المهن والأماكن .

بدأت أقرأ بصوت واضح ، ملئ النبرة ، مستمطع معبر ، طرب له الأستاذ طربا غمر كل حركاته وقسماته ، وكان يقطع على القراءة بين حين وحين ليقول فى نشوة وازدهاء :

— أترى يا بنى هذا التحليل النفسى ، هذا أكبر مهمات القصصيين ، وهذه هى العقدة .

بقى لك أن ترى حلها ، وبقدر ما يكون الحب طبيعيا غير متكلف ولا مفتعل يكون رائعا معجبا .

* * *

كانت الرقائق على وجه الإجمال بين حبيبين من الطبقة الفقيرة ، شاب وفتاة يعملان فى أحد متاجر المنسوجات ، وولد الحب فى قلوبهما

فاتفقا على الزواج ، ولكن الحبيب لم يكن يملك شيئا يقدمه مهرا ، ولم تكن الحبيبة بأحسن حالا ربما كانت أسوأ .
وتحدث بغرامهما الموظفون والعمال فى المتجر ، واعتلت حال القلوب وحال الجيوب ، ولم يتنفس عليهما صباح واحد بخل هذه المشكلة .

واخذت الأيام تمر حتى جاء أسبوع ورأت فيه الحبيبة صفى قلبها سئ الحال كاسف البال على صورة أشد وضوحا ، ثم انقضى الأسبوع ودخلت المتجر ذات صباح فلم تجد فتاها .. لقد سافر إلى مدينة أخرى بلا وداع ولا خبر ليعمل فى فرع من فروع المتجر هناك . ورجعت إلى منزلها مشردة اللب حائرة حزينة ورأت أمها ما بها فألحت عليها لتعرف ما دهاها ، فلم تملك المسكينة إلا أن انفجرت باكية وباحت بسرها لأمينتها الأولى ، وهنا تهتدت الأم لتقول فى أسى وحسرة : هلف نفسى على بنيات هذه الأيام .. إنهن ما زلن يعتقدن فى خرافة الحب ...
وأخذت الأيام تمضى وتمضى ليتقدم إلى خطبتها حبيب لم يكن محبوبا ، هو من الطبقة الفقيرة لكن عملا موفقا در عليه ثروة حسده عليها أمثاله ، واجتمع الأيوان حول بنتهما الكبرى يزنان لها الحياة ويصفان لها شهد المستقبل ، ويلغيان من ذهنها الشارد وقلبها المكدود خيال بيت ظللته أجنحة الحب كانت قد رسمته فى أيامها الخوالى ، ثم كانت خطبة وزفاف ، وتمر ثلاثة أعوام كوامل قبل أن تدخل المتجر المعهود لتشتري منه بعض ما يلزم وهى تحمل طفلا كان ابن سنة ونصف سنة .

وهنا تقع المفاجأة ، إذ ترى نفسها وجها لوجه أمام حبيبها ، لكنها تتمالك نفسها وتسلم سلاما عاديا وتطلب إليه أن يقيس بضعة أمثار من ثوب أشارت إليه . وتفرغ السيدة من مهمتها وتخرج فيخرج فى أثرها لتبادره بكلمات يكاد الدمع ينثفها أظهر ما فيها كلمة « الخائن » لكن

الشباب يقابل كل هذا بصبر عجيب ويرجوها أن تجيب على أسئلته بهدوء قال :

— هل فتح والدك مصتعا ؟

— نعم .

— وهل تعيش أسرتك الآن فى رخاء ؟

— هذه حقيقة . عجباً ! من أنبأك هذا ؟

— أقول الآن كل شيء لتعلمي أننى غير خائن : طرق على بابى ذات مساء رجل وسيلة لم أكن أعرفهما ، ولما استأذنا ودخلا عرفت أنهما أبوا أعز مخلوق على قلبى ، قالت لى الأم : أنتج ابنتى يا بنى ، قلت : نعم لأجل أن أتزوجها ، قالت : إن كنت صادقاً فى حبها فلا بد أن نحينا كلنا من غير شك . وهذه بنتنا الكبرى وهى التى تعيننا على العيش لأن أباها عاجز عن الكسب كما ترى . قطعت يمينه وهو يدبر إحدى الآلات فلم يصلح بعدها لشيء . وقد تقدم لفتاتى خطيب له ثروة حريص على مصاهرتنا وقد وعد أن يمد زوجى بمبلغ من المال عقب الزفاف فيستطيع زوجى ان يفتح مصنعا صغيرا نرتزق منه بعد أن تتخلصي عنا العروس ، ولكن الفتاة رفضت وأختيرتنى إحدى زميلاتنا فى المتجر أنها تحبك وأنت العقبة فى سبيل حياتنا ، ثم بكى ، وقالت :

— أقسم لك يا بنى بدموعى أنه لولا أولاد صغار يعجز أبوهم عن الكسب ما اعترضت سبيل قليلين ، إننى أم ، ولكنك فقير مثلنا وسيستأثر حبك بمصدر قوتنا ، فانظر ماذا أنت فاعل .

فهمت السيدة كل شيء وهتفت بنبرة خنقها الدمع آه .. لم أكن مخدوعة .. إننى أحبك . لكن الفتى عاجلها قائلاً بشهامة وحدة : نعم ، ولكنه يقف بينى وبينك الآن ثلاثة : العهد ، والزوج ، والولد . فقالت مستجيبة : ومن أجل ماذا ظهرت فى أفقى إذن ؟ . قال : لأعيش فى جو تتنفسين هواءه ، ولأتقدم لخطبة أختك التى تليك فى السن فيقوم

بينى وبينك حائل رابع بعد العهد والزوج والولد ، وهو أنسى زوج
أختك ..

ثم كانت دموع حب وعفاف وإخلاص .
جعلت أننى على الأستاذ بعد أن فرغنا من القراءة والتنقيح ، فقطعت
على كلمات ثنائى نقرة خفيفة على بابنا استأذنت بها أميرة علينا ثم
دخلت .

وكان قلبى فى نشوة بحيث يستثيره كل شىء ، كان كعين ظمأى إلى
البكاء تريد أى حادث يبكىها ، وكنت أقول فى نفسى : إن فى القلوب
قلوبا يسعدنا أن تحترق فى بحيرة الحب وإن قلبى ليحدثنى بأنه منها .

وتجلى علينا الفتاة فى ثوب صيفى أبيض ينسدل على نصاعته شعر
حالك مغدود جميل ، وبين السواد والبياض وجه مستدير دقيق المحاسن
تنادى فيه عينان بالسحر والفتنة ، وهناك ابتسامه ترقص على الشفتين لم
أر مثلها من قبل ، كانت مؤنسة غير موحشة كما سبق أن كان ،
وحيث بتحية المساء ثم قالت لأبيها :

- كنت أظن أن كسر المنظار سيحول بينك وبين القراءة يا أبى فيوفر
عليك جهدا وصحة .

فضحك الأستاذ ضحكة طويلة عبرت عما يكنه من حب وتدليل ثم
قال بعد ذلك :

- وهكذا يا عبد العزيز تجدنى تحت رقابة شديدة من عيني فتاتى ..
الطعام ، والراحة ، والقراءة ، والسفر ، والإقامة كلها بتدبير أميرة ،
وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل إنه يتعداه إلى الملابس نفسها ، لابد
أن تكون أنيقا يا أبى ، هذا القميص لهذه الحلة ، ورباط العنق لهذا
القميص ، أستاذة .. أستاذة فى كل شىء ... فى التدبير والزراعة ،
والأزياء . وضحكنا جميعا .

قلت :

— ذلك من حسن الحظ يا سيدى ، فإن فتيات العصر كلهن متخصصات فى الأزياء وحدها .

فأحسست أنها مرتاحة ولمعت على أساريرها لحة من الرضا ، واتخذت مقعدها على قرب منا على حين استطرد ذلك الرجل الطيب يقول :

— هى شابة يا بنى تملأ مكان سيدة ودعتها منذ اثنى عشر عاما ، لقد أنستنى أمها ، وأعرضت عن الزواج من أجل أبيها كثيرا كثيرا ولذلك فهى أستاذة فى التضحية كذلك .

قلت :

— وهذا من حسن الحظ يا سيدى أيضا ، على أن الأنسة لا تزال فى فجر شبابها وأمامها فسحة طويلة من عمرها السعيد .

قالت :

— أشكرك .

وقال :

— بقيت المعضلة الكبرى يا أميرة وهى كتابة القصة من جديد كتابة يقرؤها عمال المطبعة . لابد أن ترسل غدا ، لتكون بين أيديهم فى اليوم التالى .

قلت :

— على هذا ، وسأفرغ منه الليلة ولو اقتضانى سهرا طويلا .

فقال :

— وماذا لو تعاوتما يا بنى ؟ أحكما على ويكعب الآخر ، وأنا بالقرب منكما فى هذه الشرفة أنشق الهواء فقد تعب . ولم يكمل كلامه إلا وهو ينقل خطواته الوئيدة نحو الشرفة حيث تطرح هناك على كرسى ممدود من نسيج غليظ .

أصبح المكان حولنا شبه خال فتسابت دقات قلبى ، ولم أستطع أن

أرسل إليها بصرى إلا اختلاسا . كنت غريقا فى حياتى ولكننى
نشوان : لا تزال أذنائى ممتلئين بنغمات معزفها الهادىء ، وهذه
نحياشيمى قد عبت برائحة عطرها الشذى ، وسمعتها تقول بلهجة حلوة
جديدة على وعليها :

- والآن نفتسم العمل يا حضرة الناظر ، لقد أعاد أبى إلى ذهنى
ذكريات من عهد التلمذة الوداع السعيد ، هيه .. لكأنى ساهرة أذاكر
... ماذا تختار ؟ ... أتملى أم تكتب ؟

قلت :

- بل الأمر إليك فتخبرى أيسرهما عليك .

قالت :

- أظن أن خطى حسن .

قلت :

- وأظن أن إملائى جميل ، فلنبداً إذن .

وامتد بنا العمل ، وأنا املى وهى تكتب ، ألقى عليها الجملة ثم
أرقبها فى سكون مشغوف وهى مشغولة ، حتى إذا رأيتها تهم بأن ترفع
طرفها عن القرطاس عاجلتها بجملة أخرى وأرعى بصرى فى هذه
الحاسن .

كنت أعبر بإلقائى عن كل معنى من المعانى كأننى ممثل على غير
مسرح ، وكان يتناهى إلى سمعى من بعيد طرقات من قدم الأستاذ على
الأرض وهو مستلق على كرسيه ، ثم انقطعت الطرقات لأمر ما قد
يكون نوما وقد يكون تفكيراً فلم أعد أسمع فى سكون الليل إلا صوت
إملائى .

وصلنا إلى موقف حزين كان الفتى فيه يناجى حبيبته التى ظنت به
الظنون بعد رحيله عنها :

- « ليتك تعلمين أننى أحرقت قلبى فى بجمرة حبك ليكون بخورا

يعطر جو أسرتك بروائح السعادة ... ستشقى قليلا ثم تسعدين .
وسأشقى أنا كثيرا ولا أسعد ، وكل هذا من أجلك ... أحبيت الناس
فيك كما يجب العابد ربه في العباد ... أحبتك في نطاق واسع لا فى
لحمك ودمك وحدهما وبحت لك بحبى الواسع . وإن جمعنا الأيام بعد
تشريد فقد تعلمين ثم تغفرين » .

لست أدري كيف كنت ألقى هذه العبارات فذلك ما لا يستطيع
أحد أن يدركه ، ومبلغ علمى أن إلقائى كان غير عادى ، وأن حرارة
الجو تضاعفت فى هذه الفترة حتى خلعت قطرات العرق تلمع على جبيني
فى ضوء المصباح ، وأن القلم يضطرب بين أصابعها الطويلة البيضاء .
وأن فترة كتابة كل جملة طالت قليلا وأنها كانت تستعيدنى الجملة مرة
أو مرتين لتلقى على وجهى نظرات متفرسة ، وأنى توهمت فى آخر
المقطوعة دموعا ستظهر فى عيني — وما أقرب دموعى — وأنى
سأقف موقفا حرجا لا يعلم غايته إلا الله ، وتعاون التأثير والتوهم
وجماها المعبود جميعا على أعصابى فأيقنت أن دمعة ستطفر من عيني
حالا ، ورأيت أهداب عينيها تتحرك لتتنظر إلى وسمعت دقات قدم
الشيخ تعود من جديد . فما كان منى إلا أن مددت يدي بسرعة إلى
كوبة ماء كانت أمامى فأفرغتها فى جوفى متعمدا أن أشرق بمائها ثم
أدرت وجهى بعيدا لأمسح عيني من دموع الغصة ، ولعلها هى
كانت تدرى من أى نوع هذه الدموع !!

أتمننا عملنا فى صمت وتأمل وهدوء تقدمت معه خطا الليل ،
وأعلنت أميرة أننا قد فرغنا ، فأفاق الشيخ من أحلامه ودخل متهللا
شاكرا ، وكان شكره لفتاته أشد من شكره لى ، كأنها قد أتت فى
نظره بعمل خارق .

عدت إلى منزلى وأنا فى حيرة من أمرى ، كنت أريد أن أستكنه
حقيقة نفسى ، ولكننى كمن ينظر فى جب مظلم عميق ليرى

— ٨٧ —



وأعلنت أميرة أننا فرغنا .. فأفاق الشيخ من أحلامه

ما فيه فلا يظفر إلا بالدوار ، وجعلت أستعرض إحساسى نحوها فى بحر هذه الفترة فرأيت واضح البداية . لقد كان حذرا أقرب شىء إلى المقت ، ولكننى الليلة ... لا أدرى ما هذا ؟! فهل للحب « صورة سلبية » تظهر فى القلوب معكوسة كالصورة التى يلتقطها المصور على الزجاج لشخص أو منظر ؟! لا أدرى .. ربما يكون ا تلك إذن مشكلة عسيرة يحكيها القضاء ، أرانى عاجزا عن ان أتكهن بنهايتها ، أنا أعرف قلبى ، أعرفه تماما منذ انتبهت إلى أنه يخفق ، قلب كبيت العنكبوت لا يقوى على اللمس ، وفى شغافه غمزات من أنامل حب خفيف صرفتنى عنها مشاكل التلمذة ثم مشاكل العيش ، وأنا اليوم فى وضع يقرب أن يكون مستقرا أحشى معه أننى أحب . ومن هذه التى سأحبها ؟ إننى لا أزال أحذرهما ، وكأننى أمقتها ... صدقنى أننى أطلع جمالها وأرعى بهجتها ، فلا ألبث أن يتابنى خاطر غريب قد تتهمنى بسببه : أحس رغبة جارفة فى أن ألطمها ، أو أن أشتمها ، وحبذا لو استطعت أن أبكيها ، فأعجب . وما أشبهنى فى هذا بالطفل تفتنه الزهرة فيمزقها بعنف ، أو لعل من طبقة الشاعر العربى الذى قتل حبيبته وأحرقها ثم صنع من تراب جسدها الناعم كأسا شرب الخمر فيها .. ثم رثاها !!

وانطفأت حدة التفكير حين ذكرت أننى فقير ، فهبطت من سمائى سريعا إلى حيث يدرج أمثالى وإلى حيث تمشى آمالهم ، ولم يعنى هذا من أن أطفئ المصباح ثم أسير إلى النافذة فأنكفى عليها أرقب من خلال غصون التوت وسعف النخل نافذة حجرتها المضيئة بحرص واهتمام كما يرقب البحار النجم القطبى فى ظلمة الليل . ولم أزل حتى رأيته تسدل على نافذتها ستارا خفيفا ، ثم انطفأ المصباح . لا أريد أن أحدثك عن عملى فى العزبة ، فقد كنت فيه مثلا للجد والحرص كأننى أدبر مالى . وحبانى شبابى قوة لم أكن

أتوقعها ، وارتاح إلى الأستاذ فريد ووجد فيّ تربة صالحة لغرس الأدب ، فأكثر من مجالستي في كل مساء : يملئ على وأنا أكتب أو أقرأ له كتباً ومجلات من الشرق والغرب ، وكان يعيرني من كتبه ما أتسلى بقراءته في وحدتي .

وأحسست أن نفقات عيشي في هذا المكان غير فادحة ، فساعدني ذلك أن أمد أسرتي بمبلغ شهري ووفر لها قدرا متوسطا من الراحة ، أيقنت أنه سيزيد مع الأيام في جو من التفاؤل .

* * *

في ليالي الصيف بعد الغروب بقليل ، بعد أن يتخلص الجو من حرارة النهار ، ترى في الريف منظرا ساحرا لا يتوفر لك في أيهـي مباحـج المدينة ، خصوصا في الليالي القمرية بعد الحصاد ، حين يصب القمر نوره على الحقول التي تكتسى تربتها ببقايا أعواد القمح فتخالها تحت القمر قد غطيت بملاءة منشورة ، ويعمد بعض الفلاحين أن يكوموا السماد في الأرض أيام التحريق كومات صغيرة متقاربة ثم يغرقوها بالماء قبل بدء الموسم فتتخذ الأرض عند ذلك منظرا أروع سحرا ، فتظنها بالليل يحرا ساكنها أطلت من أديمه رعوس الجزائر .

وكان يحلو لي أن أجوس خلال الحقول في هذه الأيام بعد العشاء وقبل القراءة إن رأيت في وقتي فسحة ، وأحب أن أكون وحيدا في رحلتي فلا يصحبنى فيها أحد ، ولكنني حددت من نزعاتي هذه عمدا حين رأيت « أميرة » ترغب فيما أرغب فيه فتمشى في كثير من الأمسيات على سيف التزع وفي صحبتها « ليلي » وخادمتها زينب .

كنت مشغولا بتدبر الجمال في هذه الليلة وأنا سائر على الطريق أستمع إلى موسيقى المساء في الحقول : نقيق ضفادع وصرير جنادب

وهمس النسيم فى غصون الشجر ، وكان يلوح على الأفق الغربى قوس هلال ولد لثلاث ليال فلم يتجاوز نوره قوسه ، ولحت تحت الظلام الخفيف وعلى بعد قريب ثلاثا يتهادين على الطريق عائدتا من النزهة ، ماشيات فى الطريق متجاورات وكأنهم راعين ترتيب الطبول ، كانت زينب إلى ناحية القرعة ، لأنها أطولهن و « أميرة » فى الوسط و « ليلي » إلى الطرف الآخر ، وكانت ضحكات هذه الخادم المرححة تجلجل فى السكون بين فترة وفترة ، فوقفت عن المسير مزددا بين الرجوع والتقدم ، ولست أدري لم حدث هذا ؟ ولكننى عانيت أمرا عدته مشكلة ، فطللت جامدا فى مكانى قريبا من الماء مثبتا قدمى على أصل حلفاء مجذوذ ومرسلا بصرى إلى شجرة صفصاف تغسل شعرها فى الماء على الشاطئ الثانى . وما هى إلا برهة حتى كن قريبات منى وسمعتن يتكلمن بصوت خفيض تتابعن له دقات قلبى إذ توهمت أنهن يخضن فى شائى ، ولم أبرح مكانى حتى حاذيننى وألقت زينب على تحية المساء باهتمام شديد ، وسمعت « أميرة » تغمغم بالتحية . أما ليلي فإنها اشرفت نحوى وأمسكت بذراعى تقول ببراءة وتدلل :

— أنا مسرورة يا حضرة الناظر .. هل ستبنى لنا خلایا نحل وحظائر للدواجن كما يقولون ؟

فجعلت كفها بين كفى وأنا أقول :

— حقيقة يا ليلي .. نعم .. ومن أجلك .. هل يسرك هذا ؟ .. إنه يسرنى ما دمت مسرورة .

ولم تشأ أميرة أن تسير حتى تفرغ أختها من الكلام ، كانت متجهة إلينا ويدها تسويان ما يبعثره النسيم من شعرها على جبينها أو خديها ، ولو كنت فى موقفى وأنا حيالها لاهتديت إلى وجهها فى الظلام بسرعة ، فقد خيل إلى بما استطعت أن أدركه بأطراف

شعورى أن زينب كانت تحرك رأسها نحوى ونحوها لتتظفر مرة إلى مرة إليها ، فماذا كانت تتمنى لهاتين النفسين فى هذه اللحظة ؟ وما إن فرغت « ليلي » من كلامها حتى قالت « أميرة » :
- ترى أللجمال أم للإنتاج تريد أن تبنى حظائر للطير وخلايا للنحل يا حضرة الناظر ؟

قلت وأنا أغالب اختلاط نبراتى :
- أنا عند موقفى يا آنسة .
قالت وهى مبتسمة :
- إذن أنت مصر على أنك ستبنيها للجمال .
فتدخلت زينب تقول بسداجة ومرح :
- لجمال من يا سيدى ؟
فأجبتها وأنا أضحك :
- لجمال ليلي العزيرة .

ثم اختلفت بنا الطريق وسار كل إلى وجهته ، ولم يستدعنى أبوها هذه الليلة فقطعت منها شطرا مع حامد نتكلم فى شئون الزراعة ثم نثرثر فى أشياء أخرى ، وقضيت الشطر الباقي جالسا إلى الكتب حيناً ، ومتكئاً على النافذة حيناً أرقب ضوء مصباحها ، أو أرى شبحها على بعد ينتقل فى نواحي الحجر ، أو يحمل الهواء إلى مسمعى نغمة شاردة من أوتار معزفها إن هب النسيم غربياً ، فتتهادى إلى نافذتى تلمس طريقها بين الغصون .

دخلت اليوم إلى الغابة وقت الضحى باحثاً عن شجرة أقطع من فروعها ما تدعم به عرائش العنب ولم يكن معى أحد من الفلاحين ، لأننى كنت أبتغى أن أعين مكانها ثم أبعث إليها من يقطع الفروع . وجعلت أنتقل من ممشى إلى ممشى وأترك خميلة إلى خميلة كأننى نسيت المهمة التى دخلت من أجلها ، فلم أفق إلا على أصوات قريبة

- ٩٢ -

تبينت فيها صوت أميرة التي أصبحت أعرفه بين آلاف الأصوات ،
ولا أدري لماذا ؟ وكانت تقول :

- احذرى يا ليلي .. احذرى أن تسقطى .

فدرت حول جذع شجرة ضخمة حتى صرت فى موقف أستطيع
أن أراها ، كانت أميرة جالسة على مقعد اتخذ من فرع شجرة
مشقوق وهى مسندة ذراعيها إلى متكته ، ومريجة خدها على كفها ،
وإلى جوارها كتاب ، وفى يدها مجلة . أما ليلي فقد نصبت أرجوحة
فى فرع مستعرض وجعلت تعلو بها وتهبط فى مرح وسرور . ولم
ترض نفسى عن موقفى هذا فقد عددتنى متلصصا ، فسرت نحوهما
لأخرج من الباب القريب من حديقة الفاكهة والمودى إلى ساحة
العزبة ، وتعمدت أن أتى بحركات فى سبرى تصل إلى السمع لينتبهها
لمقدمى فلم أجد وسيلة لهذا إلا أن أطأ بقدمى أوراق الشجر وجفيف
الغصون على مماشى الغابة . فلما كنت على بعد قريب سمعا وقع
أقدامى فتركت ليلي الأرجوحة لتهدئ من سرعتها فتستطيع النزول ،
واعتمدت أميرة فى مجلسها ، على حين بادرت أنا فقلت :

- معذرة وأرجو ألا أكون أزعجتكما . إن عرائش العنب محتاجة

إلى دعائم ...

فقالت أميرة :

- ليس هناك ما يدعو إلى الاعتذار . هل أعجبتك مناظر الغابة ؟

هذه هى المجلة التى نشرت فيها أقصوصة أبى ..

وقدمتها إلى فجعلت أقلب صفحاتها وأنا أقول :

- يا لها من قصة !!

- هل تأثرت بها ؟

- وهل هناك من لا يتأثر بها ؟ (ونظرت في عينيها ، فارتجفت أهداها الطوال وشحبت وجنتها ثم التهبتا ، ثم استردت لونها الطبيعي) .

- أنا شخصيا قليلة التأثير بهذا الضرب من الفنون ، ولكن يُخيل إلى أنني تأثرت ليلة كتبناها .

(ثم استدركت كأنها تريد أن تنفى من ذهني ظنا) :

- لكنها على كل حال مشكلة من نسج فنان .

- وماذا تقولين في الموسيقى الذى تعزفين ألعانه على معزفك ، هل وضع لحنه هذا اعتبارا وألف بين نغماته جزافا وكما يتفق . أم هو يترجم عن معنى يخامر نفسه ويريد أن ينقله إلى نفوس السامعين ؟ كل صورة صادقة من صور الفن يا آنسة تنتج أثرها بنفسها وحدها ، ولا تحتاج إلى معونة خارجة عنها ، وأستطيع أن أذهب إلى أبعد من هذا فأقول : إن ما يرسمه الأديب بقلمه والموسيقى بلحنه والرسم بريشته والنحات بمنحته ، ليؤثر في نفسى بأشد ما تؤثر الحقيقة ، لأن هؤلاء هم رسل العواطف بين المعانى والقلوب ، يتلمسون بأدواتهم تلك مواطن الإحساس فى النفس ثم يعرضون عليها الصورة فتتمثلها فى لحظة قصيرة .

فبدا عليها أنها مقتنعة لكنها اعترضت :

- إننى على تأثرى بموقف هذا الشاب أعتقد أن توضيحته من نوع قليل الوقوع .

- اسمحى لى أن أخالفك فى هذا الرأى لأن فى بعض القلوب كنوزا لا تنفذ ينفق منها أصحابها ليسعدوا المجموع على حساب نفوسهم . لكننى أستطيع أن أعود فأوافق على فكرتك ، وألتمس للمؤلف هدفا آخر ، هو أن كثيرا من الفنانين ييشرون بالفضيلة

ويدعون إليها فيما يعرضونه من صور ، فيبلغ هذا من القلوب ما لا تبلغه المواعظ .

وقطعت علينا ليلي حديثنا حين قالت :

- حضرة الناظر .. كيف أصطاد العصافير من الغابة .. وكيف أصطاد الفراش من الحقول ؟
قلت لها مدللا متلطفا :

- سأعلمك أولا صيد الفراش يا ليلي ، وعندى لها شبكة جميلة تستطيعين أن تجمعي بها ما تشائين بسرعة وسهولة . أما صيد العصافير فدعيه لفرصة أخرى .

وما لبثنا أن سمعنا وقع خطوات الشيخ على جفيف الورق وهو مقبل علينا ومن ورائه غلام يحمل مجموعة من الكتب ، فلما رآنى تهلل وحياتى وبادرته أميرة تسرد عليه ما تحدثنا فيه فقال مسرورا :
- جميل .. جميل . إن امتدت بى الأيام وانفسح لى الأجل خلقت من ناظرنا هذا أدبيا بارعا يا أميرة ، شاب لا يزال فى ربيع عمره ، وقد يتغير وجه حياته إن سعدت هذه البواكير التى ألحها فيه برجل يكفلها .

ثم جلس وقال :

- أراك متعجلا ولكن لا بأس من أن تسمع كلمة قصيرة .
لا زلت أومن أن كثيرا من القلوب تدفن وفيها كنوز لو استخرجت لخلدت على الأزمان ، وليست هذه الفكرة جديدة ولا عالية بحيث أدركها وحدى ، فإنها فى نفس كل فنان ، لكنهم يعتقدون ولا يعلمون . نريد جماعات تفتش عن المواهب فى قلوب الناشئين وترتاد مواطن الحكمة كما يرتاد المعدنون مواطن الذهب ، قوما يخطبون لآلهة الفنون حسان العقول وأبكارها ، يسكون بيد الناشئ ويدفعونه فى طريق يتخيرونه بعد أن يصفوا له معامله ثم

- ٩٥ -

يرقبونه حتى لا تحيد به الطريق ، وبذلك تستطيع يا بنى أن تزحم
كل جيل بعدد كبير من العباقرة ، أما أن تترك الناشئة تتخبط كما
تتعثر الأرانب فى مدارج الفيلة فذلك ما لا أرجو معه استقامة حال .
قالت أميرة هى تضحك :

— يريد والدى أن يقول : إن محيط الأدب فى أشد الحاجة إلى
« حقول التجارب » كمحيط الزراعة سواء بسواء .
فقلت أنا والأستاذ فى نفس واحد لأننا ألهمنا إجابة واحدة :
— هل تمزحين ؟ إنك على حق فيما تقولين .

١٠

تتألف حياتي الآن من مناظر وأشخاص أصبحت في نظري أركاناً أساسية لمسرحية حياتي ، فإن تخلف منها شخص أو حذف منظر ألفيت الحياة تالفة تافهة :

البيت - والغابة والحدائق والحقول ، وعينا أميرة تحفيان حبا أو شبه حب ، وحديث الأستاذ الطلى الجميل ، ووفاء زينب وولاء حامد ، ومجلسي بالليل إلى كتيبي ، وإشرافي من النافذة على خيالها حين يتحلب من حجرتها ضوء ونغم ، يدق قلبي دقات أمل وخوف .
ورأيتني أفكر سلفا في يوم سترحل فيه الأسرة فيه فينتابني هم وجزع كأنني سأودع قوما عاشرتهم سنوات وليست علاقتي بهم وليدة شهرين .

وأعلن أن السفر سيكون في صباح اليوم التالي ، ستسافر الأسرة إلى القاهرة لتقيم هناك أياما تستعد بعدها لسفر آخر إلى أحد بلاد الشواطئ حيث تقضى بقية أيام الصيف .

كان الوقت أصيلا وأشعة الشمس الجانحة إلى الغروب تترقق تحت أقدام الشجر في الحديقة ، وأنا واقف لأراقب جمع ما طلبته الأسرة من فاكهة ستقلها معها . وسمعت حركة سريعة تقترب مني فالتفت فإذا ليلى تثب بين الأشجار في مرح وخفة مقبلة إلى وكانت تقول قبل أن تصل إلى مكاني :

- نريد فاكهة كثيرة يا حضرة الناظر لأهدى إلى فلانة وفلانة زميلاتي في المدرسة وصديقتي في المنزل ، وأريد شبكة صيد الفراش وأريد ..

ولكن بصرى تحول عنها سريعا حين رأيت أميرة مقبلة تمشى كأنها من الجمال فى موكب ، وأحسست أن كل شيء فيها يناجيني ولكن رعدة سرت فى جسدى حتى نخشيت معها ان تسمع وجيب قلبي ، فرددت التحية وأنا مطرق واتجهت إلى أختها لأقول لها :

— فى الربيع يا ليلي تصيدن الفراش وطبعا ستزورينا فى الربيع .
فقالت أميرة :

— يبدو أننى سأقلق العزبة بزياراتى الكثيرة هذا العام .

— يسعدنى هذا يا آنسة .

— ولكن .. هل يسعد كل من هنا ؟

— لا شك فى ذلك .

فقالت وهى تكتم الضحك وعيناها تلمعان بهريق ساخر :

— وبهذه البساطة يحكم الناس على القلوب يا حضرة الناظر !

فربكتنى المفاجأة وحيرنى الشك حين تذكرت أننى قلت هذه العبارة ذاتها لزينب ليلة كانت توازن بين جمال سيدتها وجمال الممثلة التى رأت صورتها على إحدى المجلات . وقد قالت فى ليلتها تلك :

— يبدو أن أميرة أطيب قلبا من هذه المرأة . فضحكت .

كنت مطرقا أفكر بعد أن فاجأتنى بهذا السؤال وأخيرا رفعت إليها بصرى لأقول لها :

— كل شيء يبين على الوجوه .. الوجه مرآة يا سيدتى .

وهذا هو ما أجابت به زينب عندما حاورتنى فى ليلتها المعهودة ، قلته عامدا ليقطع الشك اليقين فأستطيع أن أدرى حقيقة الموقف ، فإذا بها تهز رأسها كمن يوافق على فكرة وعيناها شاردتان بعيدا عنى . وكانت هذه اللحظة أولى اللحظات التى تأكدت فيها أنها تخوض فى شأنى وأن ما كانت تنقله إلى زينب من كلمات عابرة لم يكن محض افتراء .

(بعد الغروب)

ومرت بنا فترة صمت لم يجد أحدا فيها ما يقول ، ولم تفارق مكانها ولم أفارق مكانى . وكنت أفحص الأرض بقدمى كأننى أفتش عن شيء ، أما هى فكانت ماثلة تجاهى وهى ممسكة بذؤابة غصن يرتفع قليلا عن قامتها بحيث كانت ذراعها ممدودة إلى أعلى ، ورأسها إلى الوراء وعيناها تتفقدان الثمار على الشجر وغدائر شعرها الحالك طوع النسيم الخفيف تنوس معه إلى كل جانب ، وأنا على يقين من أنها تريد أن تسمع منى شيئا ، ولكننى كنت مأخوذا ، وأستطيع أن أؤكد أن أحلامى الذهبية صورت لى أن كل أمنية من أمانى قد يكفل الزمان تحقيقها ، لكن حلما واحدا فى يقظة أو منام لم يصورها داخله فى نطاقى دخول حب أو دخول زواج ولست أدرى لماذا ؟ الخجلى وترددى يرجع هذا . أم هو راجع لعقدة نفسى التى ما أظنها تنحل ، أعنى فقرى ؟

ونخيل إلى أن الموقف طال وطال وأن دوارا خفيفا يأخذ برأسى ، وكنت أرى ثوب لبللى من خلال الأشجار وهى تنتقل بينها كما ينتقل العصفور ، فتشاغلت بالنظر إليها حتى أن لى أن أقطع الصمت المخيم الذى لا تسمع فيه إلا حركة رجلين يهصران الأغصان ويجمعان الثمار بعيدا عنا ، قلت :

- فى أى مصيف تنوى الآتية أن تقضى بقية الصيف ؟

- فى الإسكندرية .

- إحالك تحبين الهدوء ، فلم لم تختارى مصيفا هادئا ؟

- إنها رغبة الوالد ، ورغبة شخص آخر .

أأسأها من يكون الشخص الآخر ؟ لكن السؤال كان متحيرا فى عيني فقالت :

— لا بأس .. إنك تريد أن تعرف .. ابن عمى الأستاذ سامى ،
عام فى الإسكندرية ، وقد حجز لنا المكان الذى سننزل فيه جميعا
لمدة شهر .

فاضطرم الفضول فى نفسى ، وأدركت بالغريزة أن الشخص
الذى تحدثنى عنه ليس إلا شخصا لا أرتاح إليه . فقلت مداورا :
— إذن سيسعد أبنائه بقرب عمتهم لمدة شهر كامل .

ففاض العجب من عينيها :

— أبنائه ؟ لا زوجة ، ولا أبناء .. إنه شاب على أبواب الزواج .
— آسف وعجيب أن يرسم خيالى مثل هذه الصورة بسرعة عن
عن الأستاذ سامى ، وعلى كل حال ، هو فال حسن وأمنية أرجو أن
تتحقق له .. أفى الحق أنك ستكثيرين من زيارة العزبة ؟
— أرجو ذلك .. أظنهم جمعوا قدرا كافيا من الفواكه .

وسرنا معا إلى حيث يعمل الرجلان ، فأمرتهما بالكف عن العمل
وحمل الثمار إلى البيت حيث يجهزونها للسفر ، ثم تابعننا مسيرنا
خارجين من الحديقة حتى إذا ما انتهينا إلى الساحة لتختلف بنا
الطريق جمعت أشتات شجاعتى وقلت :

— وبعد هذه الليلة لن يونس مساءنا نغمات ولا أضواء .
— ستشعر بالوحشة وقتا قصيرا ، ثم لا تلبث أن تألف المظهر
الطبيعى للعزبة ، وطبيعتها ألا نكون فيها .

وحيتنى ثم دلفت مسرعة فى طريقها إلى المسكن ، ولو سمعت
حديث قلبى وأنا أشيعها بالنظرات لألفيته يقول :

— « لأمر عظيم ظهرت فى طريقى فيا ترى ماذا يكون ؟ » .

* * *

— زينب .

— نعم يا سيدى .

- ١٠٠ -

— عدينى أن تكونى صادقة .

فتبايعت أنفاسها حتى قالت مبهورة :

— أعدك .

ونظرت إلى كأنها مأخوذة ، وانتظرت ما أقول .

— أيسعدك أن أسعد ، ويشقيك أن أشقى ؟

— مستعدة أن أحقق لك السعادة ولو كلفتنى نفسى .

— أجادة أنت فيما تقولين ؟

— أه يا سيدى ... ليست فرصة واحدة تسنح لأبرهن على صدق

ما أقول .

قلت لها بعد أن فرغت من عشائى فى هذه الليلة التى ستودع أميرة العزبة بعد شروق شمسها ، وكنت لا أزال جالسا إلى منضدتى التى تحمل الكتب وصحاف الطعام ، وكانت زينب داخلية من المطبخ وفى يدها كوبة من الشاى سأشربها بعد العشاء ، كما تعودت ، فلما ناديتها وقرأت الاهتمام على قسماتى وضعت الكوبة وانتصبت واقفة كأنها تمثال ، فلما ألقت عليها ما قصصته عليك رأيت الإخلاص والحب أيضا يغمر كل جارحة من جوارحها ، فملت إلى الأمام وأخذت ركنها بين كفى ورفعت وجهى إليها وسألتها فى رفق :

— أتذكرين صورة الممثلة التى كانت على غلاف المجلة ؟

— نعم أذكر .

— والحديث الذى تحدثنا به فى تلك الليلة ؟

— أذكر كل شئ .

— وهل علمت به الآنسة أميرة ؟

— وسرها أن نقل إليها .

ثم استحال لون زينب وخلت أن دموعا سترقرق فى عينيها بعد قليل وضغطت على يدي بعنف وقالت :

— سيدى ... أسمح لى بأن أتكلم ؟ .. معذرة ، واعف عنى ، ليس لى فيما سأقصه عليك يدان ، كل شىء بتدبير القضاء وأنت الآن بين الفلاحين معبود الجميع . ليس هناك قلب واحد لا يخفق بحبك ، هدوء ورفق وشفقة وحنان ولكن درجات حبنا لك تتفاوت .. فهل تعلم أننى الأولى ؟ ..

فبدا الذهول فى نظراتى وإن لم يكن الموقف مفاجئاً يحمل ما لم أتوقع ، فإننى أعلم أنها تكن لى حبا ، ولكن ... آه .. إن فى مجتمعنا الصغير هذا مشكلات كبرى .. هى تمنانى ، وأنا أتمنى غيرها ، وهذه التى أتمناها ، ربما حنت إلى سواى ، وزينب التى تحبى ولا أحبها إلا عطفاً وألفة يهواها من لا تريده زوجاً .. كأن قلوب الناس على هذه الأرض فى معظم الأحيان كواكب ضلت أفلاكها ، يسبح كل حيث يجب أن يسبح الآخر ، ولو اهتدى كل إلى مداره ما شهد الظلام أنات المحبين .

قلت :

— أجل يا زينب ، أعلم أنك الأولى ، ولكن ..

فسمعت ضميرى يهتف : ولكن ماذا ؟؟ أيها الظالم ، اجعل لنفسك دستوراً له وجه واحد ، طبقه على جميع الناس ، إن موقفها منك لأشبه شىء بموقفك من أميرة : كلا كما يجب على يأس ، ولكن القلب عارض الضمير لأن لكل خاصة .

قالت زينب :

— ماذا تريد أن تقول يا سيدى ! تقول ولكن .. ثم تسكت ! دعنى أنا أكمل الحديث : أنا لا أريد شيئاً إلا أن أعيش فى أفياء قلبك .. أريد أن أراك فى كل صباح ومساء وأنشق نسيم الحقول مزوجاً بأنفاسك ، وأن أسمعك تنادىنى ، وألا يغيب شخصك من حياتى ما عشت . أريد أن تحتفظ بى كما تحتفظ بقطعة أثاث ثمين وهذه هى المنزلة التى يجب أن

أنزلها منك فى حياتك ، ولكن هناك مهمة فرضها على حى أرى لزاما على أن أقوم بها من أجل قلبى .. أريد أن أسعدك وأن أحقق لك حلما تصرخ به نفسك .

قلت مستغربا وأنا أغلب دموعى :

— ماذا يا زينب ؟ لست أفهم شيئا .

— أنت تفهم كل شيء . تفهم أننى أحبك ، وتفهم أنك تحب .

— أما القضية الأخيرة فأظن أن فيها نظرا .

— عفوا يا سيدى ، أتذكر ليلالى (الملائيا) ؟ كانت النوبات الشديدة

التي اعتادتك ثلاث ليلال حدثا كشف لى سر قلبك ، لقد هذيت بأشياء

كثيرة أقول لك منها أول الأمر ما يشفع للباقي فتصدقه : من « صالح » ؟

ومن الراقصة ؟ وأين الربى والزبد ؟ كلمات سرها فى نفسك كنت

تنطق بها وأنت فى وقدة الحمى . ولكن يجب أن تطمئن فإنك لم تنطق

باسم أميرة إلا على مسمع منى وحدى ، ليلة عدت أنا وسهرت لى

جوارك وحيدة بعد أن خرجت أنا وحامد ، ثم غافلتة ورجعت ،

ورأيتنى أنت فى الصباح الباكر فى مسكنك فادعيت أننى مبكرة .

وهنا دق قلبى دقة شفقة وعطف فقد استنتجت شيئا آخر . حين

تذكرت أنه حدث فى الليلة التي باتتها ساهرة على ، أن صورت لى

الأحلام أمى جالسة على طرف سريرى تقبل جبينى وتمسح رأسى بيد

نفيض من أناملها المحبة ، تذكرت هذا ، فأيقنت أننى أدركت شيئا ،

وخلطت فى شيء فقد كانت زينب هى التي تفعل ذلك .

ثم تابعت حديثها تقول :

— ومنذ ذلك الحين وأنا أصب فى مسمعى أميرة حقائق وخيالات عن

نفس سيدى الناظر ، وقد كانت تقابل حديثى أول الأمر باستماع

صامت ووجه لا يبنى بشيء ، حتى جاءت أيام كانت تبدؤنى هى

فتسألنى عنك وتخوض فى شأنك .

- ١٠٣ -

أنتما يا سيدى العزيزين ، ملكان كريمان حبيبان إلى قلبى أتمنى أن
يجود على الزمن فأربط بين نفسيكما برباط الحب وكلمة الله وأعيش
إلى جواركما أسعد زوجة أو أكرم عذراء .

- زينب ! صدقت الآن كل ما تقولين ، ولكن شيئا واحدا أراه
ولا أستطيع تصديقه ، وهو أن الدنيا لا يزال فيها مثل وفائك ، ومثل
حبك .

وأحسست كأن يدا قوية تنتزعنى من مقعدى ، وأن قوة خفية
تعملنى على أن أقبلها ، ولا أدرى ما الذى أنكرته فى عينى حتى حملها
على أن تفر من أمامى ، فما أفقت إلا على نبرات صوته المخنوق الذى
سمعته وهى عند السلم وكانت تقول :
- لا تنتظرنى الليلة سأودع سيدتى أميرة .

* * *

يحتفل الناس بأعياد ميلادهم فى اليوم الذى يقول لهم الناس : إنكم
ولدتم فيه ، وعندى أنهم حمقى بما يفعلون فليست الحياة استهلال طفل ،
إنما الميلاد الحقيقى لشخص هو يوم تولد نفسه .. يوم يبعث قلبه .. يوم
ينبض بالحياة الحقيقية فيرى أنه أكبر من الأرض وتصور له نشوة الحب
أن فى مقدوره أن يحمل الأرض تحت إبطه كما يحمل اللاعب كرة
القدم . لا تقل إننى مجنون فقد كنت فى فقر مدقع ، كنت فقير الجيب
فقير القلب ، فرأيتنى واقفا على ينبوع حب خالد أكاد أرشف منه الخلو
الزلال .

ولا تقل : تريث ، ومهلا حتى ترتوى ، فإن الأمانى فى قلبى أحلى
مذاقا من وقوعها كما قلت لك ، وتوقع الكوارث أشد مرارة فى نفسى
من نزولها كما حدثتك ، أنا طراز من الناس أعيش أسير أحلامى
فلا تعاتبنى !

وضاق على مسكنى حتى كأن حيطانه تتقارب شيئا فشيئا
لتضغطني ، ففررت إلى الطريق ، وهناك على سيف الزعة كنت أنقل
خطاي كأننى محموم ، وخيل إلى أننى أستطيع التحدث مع كل شيء :
مع الماء والهواء والطير والشجر ، وسكون الحقول وجنادب الريف ..
لا حاجة بى إلى إنسان يسامرنى . فالنفس أهلة والقلب معمور .

كنت سائرا تحت رداء المساء أفكر فى حوادث هذا اليوم العظيم : لم
يكن موقف أميرة فى الحديقة إلا موقف حب وكانت آتية من أجلى
ولا شك ولأجل أن تكلمنى ، ولعلها كانت تطمع فى موقف أشد
حرارة من موقفى الفاتر ، إننى جبان .. فهل صغرت فى عينيها ؟
ولكنى كنت لا أعلم أننى أشغل جزءا من تفكيرها ، وإلا لحملت نفسى
على أن تكون أشجع من ذلك ، ليتنى سمعت منها قبل سفرها كلمة أحيا
عليها بقية الأيام ، وليتنى بسطت إليها كفى الاثنتين متجاورتين قائلا لها
فى بساطة وبلا مراوغة ولا مداورة :

— أنا من الذين يحملون قلوبهم على أكفهم يا سيدتى ، يبتغون لها
مالكا كريما يرفعى الله فيما ملك ، فهل أنت من اللاتى يحسن رعاية
القلوب ؟

إن قلوبنا فى صدورنا أحمال ثقيلة ، نحس ثقلها ما دامت مقفرة من
الحب ، فإذا ما أحببنا أدركنا بأثرها دون جرمها ، كما ندرك العطر
أو كما ندرك النور .

ثم انتقل ذهنى إلى ابن عمها ، إلى الأستاذ سامى ، فإذا بى أهبط من
سماء نشوتى شيئا فشيئا حتى رأيتنى على الأرض وحتى انتهت إلى أننى
قطعت من الطريق شوطا بعيدا وأنا أمشى الهوينا ، ونظرت نحو الشمال
فإذا ضوء منزل الأستاذ فى العزبة على بعد غير قليل ، فأسرعت الخطا
أقطع الطريق وأنا عائد كأننى أودى مهمة شاقة ، وما ذلك إلا لأننى
استللت من أحلامى ..

كان ضوء نافذتها الليلة فى نظرى شيئا متصلا بكيانى ، كنت أرقبه من ظلام إحدى حجراتى جامدا مستغرقا كأنى فلكى يرصد نجما ، ولا يعلم إلا الله كم ساعة مرت على متكئى على حافة النافذة ، وكل ما أعلمه أن الخدر دب فى ذراعى ، وأن عيني كادتا تظلمان من إدمان النظر ، وكانت كثيرة الحركة على غير عاداتها دائبة الدخول والخروج ، وجلست طويلا إلى معزفها تؤنس الليل بنغمات شجية ، وكانت نسيمات المساء تحرك أغصان الشجر وسعف النخل فى الساحة التى تفصلنى عنها ، فيضطرب شعبها أمام بصرى الجهد ، فأتململ كأنى أريد أن أمسك زمام النسيم ، وأخذ الليل يخطو سريعا نحو الصباح فى موقف وهى فى مجلسها ، حتى كاد الظن يغلبنى فأتصور أنى أرقبها حتى هممت أن أتى بحركة حمقاء تريها موقفى منها ، كأن أنقل المصباح إلى النافذة أو أرسل صفيرا خافتا ، لكننى استكبرت . ثم كان آخر مطافها أن عزفت أول لحن سمعته ليلة جلسنا معها نكتب القصة فختمت له ليالى القرب فى صيفنا الأول ، ثم رأيتها تقوم لتغيب برهة فى حجرة أخرى ثم تعود إلى النافذة فتقف فيها وتفتح ذراعيها كأنها تتمطى أو تنشق النسيم وترسل غداير شعرها إلى الوراء ، قبل أن تمد يدها إلى الستار الخفيف فتسدله .. ثم .. ثم توصلد النافذة إلى مدى غير قريب ، وينطفئ النور فإذا بى لا أرى شيئا ولا أسمع حسا ، لأنها كانت مصدر النور ومبعث الحركة .

وتنفس الصبح سقيم الحسن ذاوى البهجة ، ونشر النهار رايته على معالم العزبة فكدت أنكرها حتى كأنى فى مكان آخر ، ونحن هكذا دائما نرى الدنيا من خلال فكرة ونرسمها فى مدى العمر بألف لون وألف ريشة . كنت أخترق الساحة تحت أشعة الضحى فاتر النفس : وأنا فى طريقى إلى منزل الأستاذ لأودع شخصا صار كل من يعينى فيها . وكانت السيارة بالباب والبيت فى حركة ، وهناك فلاحون ينقلون المتاع

الخفيف ، وليلى لا تفتّر عن النزول والصعود تستعجل المسافرين
والناقلين . ثم بدا الأستاذ عند عتبة الباب فأسرعت أسلم عليه ووقف
يوصينى بالزراعة والقراءة ، ويبدى أنه لا بأس فى أن أسافر إليه كلما
عن أو عرضت استشارة لأنه يجب دائما أن يرانى . ثم استراح الشيخ فى
السيارة ريثما تنزل ابنته الكبرى ، ومرت فترة سمعنا بعدها دقات حذائها
على السلم وكان أحد الفلاحين يفتح باب السيارة وأميرة يجتاز حقل
الأزهار أمام البيت . ولست أدرى كيف سلمت عليها لكن فى
استطاعتى أن أقول : إن طرفى ظل عالقا بالسيارة وهى تتهادى فى
الطريق الخصوصى خارجة عن العزبة حتى غابت فى منعرج الطريق ،
فاسترجعت بصرى وكأنما أسدل ستار على قصة حزينة ، ثم انتفضت
لأسير فالفيت عيوننا كثيرة تنظر ، لكنه لم يكن من بينها ما يدمع
إلا عينان ، هما عينا زينب .

١١

ظللت بعد سفرها أياما لا أستطيع الإشراف على نافذتها المغلقة
كأننى مفلس يخشى أن يراجع دفاتر حسابه ، ودرجت بى الحياة فى
طريق عادى خال من كل ما يهز النفوس بعنف ، فأنكرت هذا الضرب
من الحياة وأيقنت أنه ليس جديرا بإنسان كامل .

طعام وشراب وعمل وقراءة ، ونوم وبقطة إلى عدة شهور ليس فيها
أمل ولا ألم ، بعد أن غاب عني مصدر الخوف والرجاء . وألفيتنى
أعجب من نفسى ومن أولئك الذين يرجون الاستقرار ويهتفون به ، فقد
أصبحت لا أريده إذا كان معناه أننى لا أحب ، وأصبحت أريد
الاضطراب إن كان مرادفا لقربها منى .

لكنى أرانى مضطرا إلى أن أثب فى قصتى وثبة طويلة فلا ألقى على
مسامعك شيئا عن نظام حياتي بقية الصيف وأيام الخريف لأنه شئ ممل .
كانت بواكير الشتاء تبينها لقدمه برياح باردة تصفر بين الأشجار ،
وسماء عابسة قلما تخلو من السحاب حتى غلبنى الشوق فدبرت بعض
شئون يجب التحدث فيها مع الأستاذ فريد والآنسة أميرة ، ثم شددت
رحالى نحو القاهرة . وكانت زينب التى سميتها شيطانة حبي قد وسوست
إلى قبل سفرى أننى سأنعم مع أميرة بلقاء جميل ، فشغلنى هذا الخاطر
طول الطريق حتى رسمت للقائها فى ذهنى ألف صورة وجعلت أوازن
بينها لأرى أيها أجمل .

وارفعت فى سماء القاهرة شمس شتاء سقيمة وأنا على باب بيت فى
إحدى الضواحي أنظر إلى حديقته التى تلمع على أعشابها وشجرها
حبات الندى ، ذاكرنا موقفى فى هذا المكان فى صيفى الماضى ،
ومسترجعا خفقات قلبى من أجل الوظيفة ، فإذا بى أرانى اليوم أشد

اضطرابا وأكثر لهفة . ورأيت غلاما يسعى إلى مقبلا من الحديقة حتى إذا ما رأني عرفني توهما ، ولما كشفت له عن شخصيتي غاب عني قليلا وعاد ليدخل بي إلى حجرة الانتظار .

ودارت عيني في كل ما حولى فألفيته ينم عن سعة وذوق سليم ، ولكنني ما غبطتهم ولا حسدتهم ، فما من شيء يعينني في هذا الوطن إلا شخص أميرة .

وطالت غيبتها أو خيل إلى لك . ولماذا أتوقع أن تلقاني هي ، ولا أتوقع أن يلقاني الأستاذ ؟ كان الأمر كذلك لأنني تصورت أنه من غير الطبيعي ألا تلقاني .

وسمعت وقع خطوات وثيدة على أرض الردهة خمنت على أثرها أن الأستاذ في طريقه إلي ، فباخت في نفسي حرارة الأمل وشخص بصرى نحو الباب يرقب الداخل الذي أسمع وقع أقدامه ولا أراه ، لكنني رأيت خادما عجوزا تمر دون أن تلقى نظرة على من بالحجرة ، فتنفست الصعداء وعدت أنتظر من جديد ، وأقطع وقتا طالا بتأمل ما في الغرفة من صور وآنية زهر وقطع أثاث ، حتى سمعت وقع الحذاء العالي على أرض الردهة الخارج فأمسكت قلبي أن يثب من أضلاعي .

كانت مرتدية ثوبا من الصوف وملقيه على كتفها معطفا يهتز كماه في حركة تساوق مشيتها الرشيقة ، ورأيتها تخطو إلى الباب ثم تقف عند عتبته برهة وجيزة قبل أن تدلف إلى الغرفة وتنفرج شفتها على ابتسامة حلوة تلمع بها العينان النجلاوان وترتجف الأهداب الطوال ، وأنتنفص أنا على تحية تقول :

— صباح سعيد .

فنهتف كل جوارحي قبل أن يقول لسانى :

— صباح سعيد يا آنسة .

— ١٠٩ —

وتجلس على مقعد قريب فإخال البعد بينه وبين مقعدى كالبعد ما بين القاهرة والعزبة . وكأن الموقف لم يتغير ، ثم ران علينا صمت خلتنى فيه وخلتها صامتين حتى تنتظم أنفاسنا . وقد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لى وحدى ، وقطعت حبل الصمت بسؤال ينطق بالحب والاهتمام :

— أرجو أن يكون الأستاذ فريد بك على ما أتمنى له من صحة وحسن حال .

— لا بأس ، والحمد لله ، وقد تأخر فى فراشه لسبب تعلمه .
قلت مبتسما :

— سهرا طويلا ، والأدب بخير ما دام منظاره بخير .
فابتسمت وأدركت ما أعنى ، وما عنيت إلا تذكيرها بالليلة الغراء ثم قلت :

— ويهمنى أن تكونى بخير .
— حمدا لله .

ثم سكنت فسكت كأننا لا نجد ما نقول ، وتفرست ملامحها فإذا اللمحة الخاطفة التى رقصت على وجهها ساعة دخولها قد اختفت . ولبست أميرة وجهها الفارغ الذى لا ينطق بشيء ، فأحسست مدى تخز فى قلبى ، وتراجعت آمالى وتطامنت نفسى ، وهاجت فى رغبة كانت نائمة ، فأحسست كأنى أريد أن ألطمها أو أبكيها ، وبخاصة عندما رأيتهما توجز فيما تجيب به ، وغالبت الغيظ وحملت نفسى على أن أقول :

— وكيف حال ليلى ؟

ثم تركتها تجيب بما تجيب به فلم أسمع ما قالت لأنى تابعت حديثى :
— سأخذ معى من القاهرة شبكة صيد الفراش التى وعدتها بها ، لتجتمع ليلى فى الربيع ألوانا منه تدخل على نفسها البهجة .. وما أجمل

- ١١٠ -

نفوسهن فى هذه السن وهن يأخذن الحياة مأخذاً صريحاً طبيعياً صادقاً .. و ..

— وبعد هذه السن ؟

قلت وأنا أفرك كفا بكف وأرسل بصرى إلى صورة على الحائط :
— تدخل عوامل مساعدة على « أداة التصوير » أعنى نفوسهم التى
تنعكس فيها الحياة فتخضع لمشيئة المصور تحسبنا وتقبيحنا .
كانت نبرات صوتى وملامح وجهى تفيض ولا شك بما تعج به
نفسى .

كنت أريد ان أغضبها ، لا أدرى ماذا أقول ؟ أريد أن أدلك قلبها
بنياً أيا كان ، لأولد فيه الحرارة ، ولست أبالى ، فإننى جهزت لنفسى
شخصية ألقاها دائماً منذ يومنا الأول ، لأنهم لقنوني عنها ما جعلنى
ألقاها كأنها خصم ، ثم أحببت خصمى ، وأحسست أنى أريد
معانقته .

ورفعت بصرها إلى فتين فى بريقه معنى أظنه تمديدا واستشارة وقالت
بغير مبالاة :

— أتحسن التصوير ؟

— أى تصوير ؟

— إن كانت له أنواع فإننى أعنى التصوير بأداة التصوير .

— لا أحسنه ولا أعرفه .

— وأنا كذلك ، وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن أستشير المختصين
لأعرف مدى تحكم المصورين فى الصورة .

وكانت تضرب بكفها على ذراع الكرسي الذى تجلس عليه وتنظر إلى
السقف مرة وإلى الأرض مرة فلا يلتقى بصرها ببصرى . قلت :
— وهم كثيرون .

- لا حاجة بنا إلى هؤلاء الكثيرين .. إن ابن عمى الأستاذ سامى ماهر بالتصوير وقد التقط لنا فى الإسكندرية عدة مناظر لأوضاع مختلفة أعتبرها أنا آية من آيات هذا الفن ..

ثم نظرت إلى ، فأحسست أن جمره لمست فؤادى . ودخلت الخادم العجوز تحمل صينية عليها ثحية غير عادية من الشاى وملحقاته ، وضعتها فى هدوء وانصرفت . وعزمت بينى وبين نفسى فى الفترة التى حجز دخول الخادم بينى وبين « أميرة » أن أدرج بالحديث فى طريقه الرسمى ، وعاتبت نفسى على أن سولت لى أنها تجبنى .

بدأنا نشرب الشاى وبدأ لى أنها مرتاحة ، وشرعت أتكلم فأقول :
- أرجو أن أحظى بموافقتكم على إنشاء حظائر الدواجن فى هذه الأيام . أما خلايا النحل فإن أنسب الأوقات لبنائها هو فصل الصيف . وألقيت ما ألقيته وأنا صارف بصرى إلى صحيفة الفنان أتاامل ما رسم فيها فسمعتها تقول :

- لا اعتراض عندى . ويكون رأى نهائيا إذا وافق أبى .
- هل علم بمقدمى ؟
- لم يعلم بعد .. أثرت أن تطول راحته فترة من الزمن . وكيف الحال فى العزبة ؟

قلت وأنا أصوب إليها نظرة صنعتها قبل إلقائها :
- قد يكون من غير الكياسة أن يتحدث المرء عن الشىء قبل أوانه وأن يتخيل الأمور فى خروتها ، وهى قد لا تكون إلا ناشئة ، فإذا قلت لك مثلا : إن الثمار والمحاصيل ستضعاف هذا العام فيتضاعف الإيراد فقد يحدث - ولا قدر الله - إن تخلف الآفات ظنى ، فمن الخير إذن أن نترك النتيجة حتى يتغيرنا بها كاتب الحسابات ، ولكننى أعود فأقول بجملا : إن كل شىء هناك على ما يرام .

— ويبحث على الارتياح ! .

ورأتها مريخة خدنها على كفها وذراعها مستندة إلى ذراع الكرسي ،
وبدا لي أنها ترمى إلى ارتياحي أنا شخصيا ، وتدفعني برفق من يعد إلى أن
أخوض في شئوننا بعد ، ولكنني جنحت عن رغبتها عامدا وقلت :

— سترتاحون لكل التصرفات هناك .

فتنفست طويلا قبل أن تزيل مجلسها معلنة أنها ذاهبة لتستعجل قدوم
والدها ثم خرجت وتركني في حيرة من أمرى .

وما لبثت حتى دخل الأستاذ يفيض وجهه ببشاشته المعهودة ، وقد فرح
بلقائي كأنني صديق قديم ، ثم بدأ يتحدث عن متاعب الشتاء وعداوته
للشيوخ ، وعن مرض السكر ومرارة ما يلقي المصابون به . قال :

— إن المرضى به يا بني أشبه شيء في نظري بصهريج من الزجاج صغير
رقيق لا يفتقر عن صب الماء لحظة .. معرض للكسر إن أصابته حصاة .

ثم ابتسم ابتسامة الراضين أو من يعتقدون أنهم نالوا من الدنيا قبل أن
تنال الدنيا منهم . وكنت ملقيا إليه بكل حواسي حيث أدركت في هذه
اللحظة أنني أتمتع بشيء واحد يحسدني هو عليه .

ولم تطل غيبة « أميرة » فقد عادت تشاركنا المجلس ، وامتد بنا الحديث
حتى تناولنا شئون الزراعة ، وأبدى الشيخ موافقته على إنشاء حظائر
الدواجن . قالت « أميرة » :

— أتستطيع السفر معي يا أبني لترى هذا المشهد الجميل ؟

فنظرت أقرأ ما في عيني أيها فإذا به يسألها الجواب عن سؤالها وهو
صامت مبتسم ، وإذا بها تقول :

— أظن أن لا بأس فلا يزال الشتاء في بدئه ، وإن كان هناك برد وفرت
لك من الدفء ما يريحك . (فوافق الشيخ) .

ثم تراخى الحديث بيننا فأدركت أنه لابد من الانصراف فاستأذنت بعد أن رجوت إعارتي بعض كتب ، وخرجت قاصدا إلى محط الضاحية لأركب إلى المدينة ، وهل هناك ما أحن إليه فيها غير صديقى صالح ؟! أخرجت المفتاح من الكوة وأدركته فى الباب وعلى شفتى ابتسامة حب وشفقة . وكنت أقول فى نفسى : لن يتغير ... لن يتغير صالح ... رابض يرقب الزمن كأبى الهول !

ويحين ميعاد عودة الموظفين ويندفع الباب فأرى صالحا مائلا أمامى ونتعانق فى حبة وشوق وإخلاص ، ثم نأخذ غدائنا ونتمدد على سريره لنخوض فى شئون شتى .

مال ذلك الطول الملىء نحو النحافة شيئا ما ، وخبث حدة الطبع ، وبان فى العينين الواسعتين شىء من الشرود ، وتقيدت ثرثرته ، أو مقدرته على الاستطراد ، واستولى عليه تشاؤم حزين يخالف المرح الذى عرفناه به ، كان يشرب الخمر وبصاقد النساء ويفرط فى السهر ، وهو ما يعتقد أنها غنائم يجب أن يجمعها فى وقت قصير . أما الآن فهو يفعل هذا كأنه يستعجل أجله كالذى يبذر فى مال أسرته قبل أن يضبط به .

حدثنى عن حبه الأخير فقال :

— أحببت يا صديقى كثيرات كثيرات ، فتيات وغير فتيات ، لأنى كنت أحترف الحب ، لم أعرف منه إلا ملذاته ، فذقت حلواه ولم أحرق بناره ، حتى كان تعلقى بهذه الممثلة التى وقفت منى موقفا أعلم ما هو ، وقفته من قبل مع نساء ارتمين تحت قدمى تلها ولهفة ، فدفعتهن وانصرفت أقهقه .

ثم سكت صديقى وأعرض عنى بصفحة وجهه ووضع كفه على جبهته كأنه يشكو صداعا ، فأقبلت عليه أقول :

— وبعد يا صالح ؟

- ١١٤ -

- وبعد ؟ .. خف الكيس فخف الحب وفرغ القلب ، ولم أعد أراها
تشق إلى الصفوف فى المرقص تتخبط فى أذرع الكراسى وأقدام
الجالسين . وسرعان ما انصرفتم إلى صيد آخر ، ولكننى أحبها على
الرغم من كل شىء .

- ثم علمت ان القلوب قد تستأصل بالجراحة كما تستأصل
اللوزتان .

- آه يا صديقى .. لا تسخر ، فأنا قاموس عن الحب كان ينقص
بابا واحدا . فأكمل القاموس بعد حى الأخير ، معجم فى جلد سوداء
جمعت أيام حزنه لكنه مرجع للمحبين .
فابتسمت قائلا :

- عندى استشارة ، فهل تسمح ؟

فحدق فى وجهى كأنه لا يصدق ، فتظاهرت بأننى أهزل وقلت :

- لن أبديها لك حتى أعلم أجزأها أولا .

- لك بالبحان .

- هذا حسن إذن ، فما رأيكم دام فضلكم فى فتاة يبين الهوى فى
عينها وتتحدث به قسماتها وفتات لسانها لكنها لا تصرح به . وكيف
تحمل هذه الفتاة على أن تكاشف بالحب ؟

فضرب جبهته بكفه وأغمض عينيه كأنه يتذكر شيئا وانقضت فترة
صمت قبل أن يلتفت نحوى ويقول :

- هذه المشكلة هى الباب الأول من قاموس حبى ، هذه أول تجربة
صهرت قلبى فى بوتقتها ، معذرة فإنه لم يكن قلب . وعلى كل حال
فعندى فيها الجواب الشافى ، لكن الجواب يستلزم بضعة أسئلة .

فبدت الحيرة فى عيني ظننت أنه يريد أن يكشف عن سرى ، ولكن
عدت فوعدهته بالإجابة . قال :

- أتراها رائعة الجمال ؟

فأجبتة بالعكس وقلت :

— إن رأيتها بغير عيني اعتبرتها دمية .

— إذن فمن المحتم أن تصارحها أنت بالحب ، فإن مثيلات هذه يلقي اليأس في نفوسهن أنهن غير جديرات بالحب ، فيجنحن في كثير من الأحيان إلى تحفظ وتعفف يكمل النقص الفطري ، حتى إذا ما قدم العاشق من الموائيق ما يرين أنه صالح ألقين أنفسهن بين أحضانه .

— وإذا كانت رائعة الجمال يا صديقي ؟

فأنكر موقفي وقطب ما بين حاجبيه . ثم ابتسم في ثقة وقال :

— إذا كان الأمر كذلك ، فلي سؤال جديد :

— أهي تعرف شخص الفتى ووضعه من المجتمع ؟

فأجبت بالعكس : لا .

— إذن فقد أحبته لمعنى عشقته فيه : جمال وجهه .. أو حسن تأتية أو أنها تريد حببها لقلبها المقفر ، والجواب الشافي هو ان يلقاها مرة حيث اعتاد أن يلقاها ، ويقول لها : وداعا .. أرجو أن أراك بخير ، فإنني مرتحل إلى بعيد ، ولست أدرى متى أعود ، لأن ظروف حياتي اقتضتني ذلك ، وهنا يفتح صمام الأمان ويفلت من يدها زمام الحيلة ، فيقول لها المحب ما يشاء ، وأؤكد لك أنه سيسمع منها ما يشاء كذلك .

فقلت مبتسما : وإذا كانت تعرف شخصيته ووضعه من المجتمع ؟

فتململ وقال : أتحدثاني ؟ أتختبرني ؟ .. أما قاموس .. هل تسمع ؟

وإذا كانت تعرف شخصيته ووضعه في المجتمع ، فإن لي سؤالا آخر .

— هات .

— أيهما اعلى طبقة ؟

— الفتاة .

— بدأت تجذ يا صديقي .

— وما يدريك ؟

- ١١٦ -

- عيناك .. فيهما معان جديدة لم أرها من قبل ، وقد غاب لونك وأراك مشتاقا إلى الجواب .

- قل مايرضيك فأنا لا أعرف الحب .

- مخدوع ، وأراهن على عكس ما تقول ، مخدوع والله فكل شىء فيك ينادى بأنك تحب ، كنت تنظر إلى بعد كلمتك الأخيرة ، كما تنظر تماما إلى شفتى القاضى ، إن سكين الحب مشحودة تسيل الدم ولا تعقب ألما ، وأنت منه فى شوطه الأول وهو الذى ما فيه ، وعلى كل فهذا لا يعينى والذى يعينى هو أنه إذا كانت الفتاة أرفع منك طبقة ..

ووارى عينيه بكفه وهو مستلق على ظهره إلى جوارى ثم سكت طويلا فقلت له فى ذهول فلم أشعر بما أقول :

- إذا كانت أرفع منى . فماذا يكون ؟

فمال إلى يقبلنى :

- أهنتك .. أنت تربة صالحة سيغير الحب وجه مستقبلها ، ستخرج للناس أزهارا وأثمارا ، أنت أديب فكيف تعيش من غير حب إلا إذا تصورنا سمكا يعيش على الأرض ويرعى فى الحقول ؟ أنت غيرى لأنى من شباب فتنتهم الأجساد ، وأعرفك من الذين يبتغون القلوب .. سينعشك العطر .. سيهديك النور ، وإن أحرقتك النار شممتنا منك طيب عرف العود .

أصغ إلى يا صاحبي فإن المشكلة جديدة بالإصغاء ، أتستطيع أن تغازل فتاة سواها ؟ ما أظن فإن سجيتك الحياء ولكنه شىء ضرورى .. تراوله على أنه دواء ، كما يشرب المتحرجون الخمر بإشارة من طبيب ، ولست أقصد أن تغازل فتاة أيا كانت ، وإنما أعنى فتاة تساويها كأن تكون صديقتها أو قريبتها ، وأشترط أن ترى هى بنفسها عينيك اللتين تفيضان بحب غيرها ، فإذا ...

فقاطحته :

— إذن لابد أن أكون ممثلاً !!

— ممثل ! كلنا ممثلون .. ولو أن الرجل منا أعلن عن خبايا نفسه لكل إنسان ما أحبه إنسان .. ألم تقرأ ما نشر في الصحف مرة عن رجل أسباني أقسم ألا يكذب ما عاش ، ثم مات فلم يشيعه إلى قبره رجل ولا امرأة .. ولا طفل . ودرجت العربة بجثمانه إلى القبر في وحشة فريدة . ومعنى هذا أن المجتمع يقول للفرد : لا أحبك إلا إذا كنت كذاباً أو منافقاً .

عدنى أنك ستفعل .. إنما أرشدك يا صاحبي لوجه الحب . ولأجل الفن لا أبتغي منك جزاء ولا شكورا .

وضحكنا وقلت :

— أشكرك أيها القاموس .

ثم نظرت فإذا ميزان النهار قد مال ، وإذا الشمس الجائحة نحو الغروب تنادي بى بأن أرحل عن القاهرة .

* * *

دخلت العربة في ظلمة الليل ، وما كدت أقرب من منزلى وأنا أعبر الساحة حتى رأيت الضوء يلمع في نافذتى ، وأبصرت بخيال امرأة يغدو ويروح في انتظار وقلق ، وما كانت سوى زينب .

وسمعت فتحة باب الشقة وأنا لا أزال أصدع السلم ، ثم سمعت وقع خطواتها وهي خارجة لاستقبالى ، وقد ألقت على نظرة متفرسة ، وفي يدها مصباح تضئ به الطريق لى ، وعلى شفرتها ابتسامة فاضت بالحلاوة . قالت :

— حمدا لله على السلامة .

فأجبتها بابتسامة خفيفة وبشاشة متكلفة ، وجلست أتناول العشاء في صمت ، وهي تغدو وتروح تنظر إلى وكأنها تدافع نفسها عن أن تقول شيئاً . ولما نفذ صبرها سمعتها تقول :

— ١١٨ —

— إخالك قد تعبت فى سفرك .

— ليس كثيرا .

— وهل حدث شىء لا ترضاه ؟

— مطلقا .

— كأنك مشغول .

فقلت بغير ترفق :

— وهل تريدنى فارغا لا تشغل الأعمال ذهنى ، طبيعة الرجل أن

يكون مشغولا . وهناك مشروعات سنقوم بعملها قريبا .

فلاذت بصمت عميق ، ومرت فترة دخل حامد بعدها . وكان أول

ما بدأنى به أن قال :

— لقد كنا كالغرباء فى العزبة فى اليوم الذى غبته عنها . أنت اليوم

ضرورة من ضرورات حياتنا .

وبعد فترة أخرى انصرفت زينب وبقيت أنا وحامد نسمر ونتحدث

فى شئون الزراعة . وقد أخبرته بقرب حضور الأستاذ فريد وفتاته ،

وبالمكان الذى رأيت صالحا لإنشاء حظائر للدواجن ، ثم انصرف عنى

واستسلمت أنا لنوم مشرد .

ولم تكف زينب فى الليلة التالية عن مهاجمة سر نفسى ، حتى قلت لها :

— إن لقاءنا يا زينب لم يكن كما توقعين ، كان لقاء عاديا بحثا .

وأستطيع أن أقول : إنه كان فاترا .

فاتسعت من الدهشة عيناها السوداء وانصمت برهة ثم قالت :

— أبدا يا سيدى .. أنا أعرف سيدتى أميرة .. لو اشتعلت فى أطرافها

النار ما صرخت ، رزينة أكثر مما يجب وأؤكد لك أنها تحبك لكنها

تغالب .. وهو لا يغالب !!

قلت : وماذا تعرفين عن الأستاذ سامى ؟

فقلت : آه .. أذكره .. وقد رأيت مرتين أو ثلاثا : هنا مرة ، وفى

القاهرة مرة أيام سافرت مع الآنسة سفرا غير طويل .. ولك أن تثق أن هذا الشاب لا يزيد على أن يكون ابن عم لأميرة . وهذا مبلغ علمي عنه . وجعلت الأيام تمر ، وأنا فى موقف متعب .. موقف رجل يزعم أنه لا يغار ، ثم يترك خياله فى كل يوم مرة أو مرتين ليرسم صورة الأستاذ سامى ؟. فكيف كنت أتخيله .. كان أول عمل أقوم به هو أن أستحضر صورتى فى المرآة ، صورة جسمى كاملا ، ثم احصى معاينه وألغى هذه المعايير لأحل محلها محاسن ، فتولد صورة جديدة لهيئة رجل كامل أطلق عليه الأستاذ سامى . وهنا أحس حسرة فاستشعر ألما لأن غريمى الموهوم مثال للخلق الكامل ، ثم لا ألبث أن أراجع .. هل تتطلب المرأة فى الرجل أن يكون مثالى الخلقه .. ؟ إننا نحن الرجال لا نشترط هذا دائما فى المرأة ، على أن الجمال مقوم من مقومات الأنوثة .. فكيف يشترطه من فى الرجل .. ؟ لا أظن .. ! وإذا كان جمال الرجل أول شفيح يتقدم بين يدي الحب إذا كان الحبيبان متجاهلين فيعطف قلبا نحو قلب — إذا كان كذلك فإن لجمال النفس وحقيقة الشخصية الشوط الأخير فى العلاقة . وكثيرا ما تبين المرأة أن حبيبها الجميل هذا ليس إلا كأقواس النصر التى يقيمونها من خشب وخيش ويموهونها بالألوان فتبدو كأنها من الرخام الثمين فإذا ما لمست فضحتها أول لمسة .

لم أكن أعرف موعد حضورهم بالضبط ، وكل ما أعلمه أنه قريب ، لذلك كنت أصوب بصرى نحو النوافذ وأنا راجع من الحقل نمينا نفسى أن يكونوا قد حضروا وأنا بعيد لا أشعر . وأنهض من نومى فى خوف الليل للبرد لأفتح نوافذى متخيلا أننى سارى ضوءا من خلال نافذتها المغلقة ، وكذلك كنت أفعل فى الصباح . وكنت أسأل نفسى أحيانا عن السبب وأنا آتى هذه الأعمال ، فكانت تجيبنى مرة بأنى أحب ، وتجيى مرة أخرى بأنه مجرد انتظار للأسرة ، والقلق من طبيعة الانتظار .

ولم تكد الشمس تغيب اليوم فى الأفق الغربى من وراء سحب منشورة

كانها نديف القطن حتى رأينا سيارة تنهادى مع المساء قاصدة نحو العربة ،
عرفنا من صوت بوقها أنها سيارة الأستاذ فريد . وتكرر المنظر القديم ،
وخف الناس للقائهم وفتحت النوافذ ودبت فى البيت الحياة .

ولم تكن زينب بجوارى الليلة وأنا أتعشى لأنها فى شغل بمقدم أميرة ،
وفرغت من عشائى فنزلت من فورى إلى منزل الأستاذ . وأحسست وأنا
أجتاز حقل الأزهار أمام البيت قبل أن أدخل الباب أن رعشة مفاجئة تمشى
فى أوصالى .. كنت على يقين أنها ليست من البرد وحده ، وإنما للخوف
دخل فيها . وكانت نبضات قلبى تسابق نقل قدمى على درجات السلم
لأنى على الرغم من كل شىء مشتاق إلى أن أراها . وكم وددت لو
استطعت أن أقول لها قبل أن أحییها : آه .. إننى أراك على الرغم منى ،
أحبك وأكرهك فهل تصورين ؟! ..

أحبك لأنك ضرورة ، وأكرهك لأنك ضرورة كذلك ، كما يحب
المخدر ويكرهه مدمن المخدر . وأنت غيبوبة لذیذة سبحت فيها نفسى .

ولعله من المصادفات المحضة أن لقيتني فى الردهة التى بين الحجرات ،
لأنى لا أستطيع أن أجزم بأنها كانت متعجلة لقائى ، وغمغت بالتحية
كمن يتكلم وهو نائم ، وبصرت بيدها تمتد نحوى مصافحة . فألقيت فيها
كفى التى كانت بلا أعصاب ونظرى متجه إلى عينيها الفصيحيتين ، فخيّل
إلى أنها تسألنى عن حالى ، وأن فيهما شيئاً من الأسف على موقفنا العقيم
يوم التقينا فى القاهرة .

ودخلت إلى الأستاذ فى حجرة نومه لأنه كان ييلو ليس على استعداد
لأن يقرأ أو يكتب فى أعقاب السفر والليل بارد ، كان مستلقيا فى فراشه
نصف راقد وقد لف حول جسمه دثرا ثقيلة وعلى مقربة من سريره مدفأة
فيها جرة الخشب . ولقينى بود كما عودنى وجلست على أريكة هناك ثم
بدأنا نتكلم .

نحننا أول شيء فى شأن ما جمعنا من محاصيل ، وكانت بحمد الله شيئا حسنا ، فأننى الأستاذ على جدى وأطرى حسن توفيقى . ودخلت أميرة فجلست على الطرف الآخر من الأريكة التى أجلس عليها وجعلنا نحسب نفقات مشروعنا الجديد واتفقنا على أن ترسل فى غد فمحضر من سينيون الحظائر ، ومكثت مدة أتحديث إليهما فى شروطها ومواد بنائها من الخشب والأسلاك وكيف نختار أنواع الدجاج ونعرف البياض منه وغير البياض . وفى خير أنواع الأوز والأرانب ، وكان الأستاذ مصغيا فى اهتمام وسرور ، أما أميرة فيخيل إلى أنها كانت تشرب الحديث شربا .

وما انقضى أسبوعان حتى بنيت الحظائر وأطلقت فيها الطيور ، وأقيم فى حراستها بالليل كلبان من خير أنواع الكلاب كنت أصغى إلى نباحهما فى جوف الليل بلنة عجيبة .

كان حبي قبل هذين الأسبوعين - وإن سبق أن احتفلت به فى خيالى - أشبه شيء بجنين ناقص ولد لغير تمام ، فما كان حيا فيرجى ، ولا كان ميتا فيكفى . ولا يعيش العقلاء من الخياليين على خيالاتهم طويلا ، ولكنهم بعد فترة يشاقون إلى أن تظهر فى حيز الوجود ، ويعتبرون تخلفها عن الميلاد فجيرة كبرى . لذلك رأيتنى متلهفا إلى أن أقوم بأى عمل حيال أميرة ، وكنت أريد أن أتى أمرا ينعش هذا الحب أو يقتله ، ويبلغ تصميمى على العمل ذروته ثم أذكر غضبها المحتمل الوقوع ، والذى يرادف تماما خروجى من العمل خروجا غير كريم ، فأعود إلى موقف المتردد .

ولم يحدث من جانبها فى أسبوعينا هذين ما اعتبره خطوة جديدة فى طريق حبنا ، بل كانت على العكس فى موقف لا يمتاز كثيرا عن موقفها منى عقب أول مرة .. وقد ترددت على الأستاذ بضع ليال شاركتنا الحديث فيها مشاركة عابرة خالية من الاهتمام كأنها تعالج هما مكثوما . وسألت زينب ذات ليلة عن رأيها فى مظهر الآنسة ، فأجابتنى فى وجوم :

— أراها غير طبيعية يا سيدى ، أراها كثيرة التفكير ، طويلة الشرود ، قليلة الكلام ، وقد كنا دائما نثرثر فى شئون عامة وخاصة لكننى وجدتتها فى هذه الزورة تميد عن التوسع فى أى حديث ، ولا أكتمك أننى متحيرة .. لا أدرى !! (ثم هزت كفيها فى يأس) .

وها نحن أولاء فى ضحا اليوم الأخير من مقامهم القصير . واليوم مشرق جميل ، يميل نحو الدفء ، حتى خدع بعض العصافير فجعلت تشقشق فى الغابة كأنها فى أحد أيام الربيع ، وكنت أعبر الطريق الذى بين حديقة الفاكهة والغابة وأنا راجع من الحقول ، حيث أقيمت هناك عند مدخلها حظائر الدواجن وقد كنت أتفقدما . وقاربت أن أنتهى من الطريق وأدخل إلى الساحة الواسعة التى يقع فيها مدخل الغابة ، وحانت منى التفاتة فرأيت أميرة جالسة بعد المدخل بقليل فى مكان واسع خال من الشجر تغمره أشعة الشمس وهى تقطع وقتها ببعض أشغال الإبرة . وكان كل منا يرى صاحبه بسهولة لأنه لم يكن يفصل بيننا إلا سور من الأسلاك الشائكة تنمو عليه بعض نباتات متسلقة غير كثيفة . وواصلت سيرى حتى إذا ما حاذيتها رفعت يدى بتحية الصباح فرأيتها تكف عن العمل وترفع صوتها بالرد على . وبطوت خطاى من غير قصد ، حتى توقفت عن المسير تماما حين سمعتها تسألنى :

— أقادم أنت من حظائر الدواجن ؟

— نعم .

— ورأيت الطيور كلها بخير ؟

— كلها بخير .

وكنت واقفا خارج السور الشائك الذى لا يبلغ قامتى ، وهى جالسة على مقعد خشبى من فرع شجرة والمسافة بينى وبينها لا تزيد على ستة أمتار ! ومدخل الغابة فى الساحة على بعد خطوات منى بحيث لم يكن هناك ما يدعو إلى أن أحدثها من وراء السور . لكننى فعلت هذا وأجبتها عن

- ١٢٣ -

سؤالها وأنا فى موقفى ، فما لبثت أن سمعتها تقول فى لهجة بمترج فيها العجب بالغضب الخفيف ، وهى تشير إلى السور بينى وبينها :
- كأن أحدنا الآن فى قفص الاتهام .

فلم أتكلم بل درت مع السور حتى دخلت إليها ، وكان أول ما بدأتها به أن قلت وأنا جامد الملامح :
- ها أنا قد خرجت من قفص الاتهام يا آنسة .

فقلت وهى تبتسم :
- أنسيت أننى قلت كأن أحدنا ، ولم أعين شخصا ؟ هل أدتك هذه العبارة ؟

- مطلقا .. ولكننى أؤثر أن أخص نفسي بالشر ، إذا كان من الحتم أن تشاركينى فيه .

- أشكرك ، وما قصدت بما قلت إلا أن أريحك من عناء الوقوف .
فجلست على المقعد من فورى وبينى وبينها مسافة غير بعيدة وظللنا صامتين فترة كانت خلالها مشغولة بنقل عرا الصوف من إبرة إلى إبرة فى حركة سريعة أرادت بها أن تخفى رعدة سرت فى يديها ، وتشاغل أنا خلالها بالنظر إلى الأشجار والحقول ثم بالنظر إلى أظافرى بعد ذلك ، كنت أستمع فى هذا الصمت إلى حديث نفسى التى دفعتنى إلى أن أتكلم ، فقلت :
- يئيل إلى أن أشغال الإبرة لتك عن الألحان شيئا ما .

فابتسمت وهى لا تزال ملقية ببصرها إلى ما بين يديها وقالت :
- مطلقا .. هذا شيء ، وذاك شيء ، ولا يصلح أحدهما أن يكون عوضا عن الثانى .

- إذن فالذنب ذنب الشتاء .

- وكيف ؟

- كانت النوافذ المفتوحة فى ليالى الصيف تسمح للأتغام بأن تتسلل إلى غرفتى ، فتتقلبنى من سكون الريف إلى جو منغم شعري

— ١٢٤ —

جميل . أما الشتاء ..

— فهو فصل يجذب موحش .

— بالنسبة إلىّ على الأقل .

— وإلى هذا الحد كان يعجبك عزفى ؟

فلم أملك إلا أن أتهد وتناجعت دقات قلبى حين ألفيتها تنصرف عن العمل وتوجه إلى لتسمع الجواب . وتحول كل منا نحو صاحبه حتى صرنا متواجهين ، فقلت :

— إلى حد أننى وعيت كل ما تعزفين ، وحفظت سياق ما تنغمين ، وبخاصة مقطوعة بعينها أراهن على أنها لو عزفت وأنا نائم لانتبهت من نومي .

فضحكت ضحكة فاضت بالسرور ، وعادت تسألنى :

— إخالك تبالغ ... أى مقطوعة هذه التى يتعمقك سحرها إلى هذه الغاية ؟

— وكيف أستطيع أن أعينها وأنا لا أعرف أسماء المقطوعات . أنا لا أعرفها إلا بينى وبين نفسى فحسب ، وقد ارتبطت كل واحدة منها بمعانى خاصة ، وأنت حين تعيدنين عزف إحداها تعيدنين إلى الذهن ذكريات الليلة التى سمعتها فيها للمرة الأولى .

— حسن ، ولكن ألا تستطيع أن تعينها بأية وسيلة ؟

— أستطيع ، هل تذكرين اللحن الذى كنت تعزفينه ليلة كتبنا القصة معا ؟ دخلت البيت ليلتها بعد أن استدعانى الأستاذ وأنت فى الحجرة الشرقية ، فسمعت فى جو المكان نغمات لحن هادئ توقعينه . فهل تذكرينه ؟

فوضعت إصبعها على فمها وشخصت عيناها قليلا قبل أن تقول :

— نعم ... تذكرت ... إنها مقطوعة كذا وغريب أن تكون مفتونا

بها .

— ١٢٥ —

وبدت فى عينيها أمارات الأسف ، فأسرعت إلى أن أقول :
 — ويعجبني أنها تعجبني .. أنا مصر على أنها أجمل ما تعزفين .
 — أيعجبك ان تكون من المتشائمين ؟
 — وكيف ذلك ؟

— لأنها مقطوعة حزينة ، قالت لى عنها معلمة الموسيقى : إن الذى
 وضع ألحانها قد نجح نجحاً باهراً فى تصوير خلجات النفوس اليائسة التى
 رأت آمالها تستحيل فجأة إلى حطام ، وإن كان اسم المقطوعة لا يدل
 على معناها تماماً .

— لقد خدم هذا الموسيقى مجموعة كبيرة من الناس ، لأن المرء فى
 بعض الأحيان تعوزه الدفعة ، حتى يحس أنها ضرورة لنفسه كما يحس
 أن الغذاء ضرورة لجسمه ، وأنا حقيقة يا آنسة من الذين يعتقدون أن
 مآسى الحياة أكثر من ملاحيتها .

— قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن مثل هذا الشعور تضطرم به النفس
 عادة فى إثر تجربة قاسية تمر بالإنسان ثم لا يلبث أن ينظر إلى الحياة من
 جديد نظرة معقولة ، أعنى نظرة تغلب فيها الآمال على المخاوف .

وأرسلت إلى نظرة هادئة عميقة كأنها تستشف بها دخيلة نفسى ،
 وتلملت بعدها فى مجلسى لأدافع رغبة فى أن أقوم ، لكننى سمعتها تتكلم :

— وأنا شخصياً قد مررت بهذه المشكلة بعد وفاة أمى . كنت فى
 الثامنة من عمري أفهم الحياة كما تفهمها بنت الثامنة ، ولكننى أنكرت
 الدنيا بعد أن غابت عنها وبقيت صورتها وهى مسجاة على السرير عالقة
 بنهني زمناً طويلاً ، حتى عفت اللعب والمرح والطعام ، ولم يكن
 يجسمى مرض ، ولكننى كنت ذابلة هزيلة . غير أن النسيان الذى
 نسخط عليه فى كثير من الأحيان ، يعد نعمة فى هذه المواقف لأنه
 يخلصنا شيئاً فشيئاً من ذكرياتنا الحزينة .

— مشكلة الحياة يا سيدتى هى أن يعتقد المرء أن شيئاً ما ضرورة له

- ١٢٦ -

فى حياته ، ثم تقوم العراقيل بينه وبين هذه الضرورة ، ثم يكدح ويكدح فلا تزول العراقيل ولا تنتفى الضرورة .. وهنا تطغى على النفس موجة من التشاؤم قلما تخرج من نطاقها النفس .

تحدثت بهذا الحديث وأنا مول وجهى عنها ، ولما فرغت منه نظرت إليها فإذا بها عادت إلى صوفها وإبرها مكبة على العمل كأنها لم تسمع منى شيئا وكأنها منصرفة إليه منذ وقت طويل . لكنها كانت ممتعة اللون متغيرة الملامح كمن يعالج مشكلة ذهنية ، فأحسست على الرغم من دفء الشمس ببرد الشتاء وغمرتني موجة من الخجل فندمت على ما قلت ، وحولت الحديث سريعا إلى مجرى عادى ، حين رفعت صوتى قائلا :

- سمعت أنكم ستسافرون غدا .

- نعم غدا .

- إذن فبعد الغداء أجمع لكم ما تشاءون من الفواكه .
- كذلك .

فقممت من مكاني وأنا أقول :

- أهنأك رغبات أخرى أستطيع تحقيقها ؟

وكنت تجاهها حين ألقىت هذا السؤال ، فأجابتنى وهى منصرفة إلى عملها فلم تنظر إلى :

- نعم . لى رغبة خاصة .

قلت بلهفة :

- سأكون أسرع الناس إلى تليبيتها .

فسددت إلى من مجلسها نظرة لها بريق الخنجر وحدته . وسألت :

- أتعدين بذلك ؟

- أعديك .

- وتقسم ؟

فقلت مندفعا :

- ١٢٧ -



.. أهنأك رغبات أخرى أستطيع تحقيقها

— ١٢٨ —

— أقسم بأعز مخلوق على نفسى أن أحقق كل ما تريدن .
فقلت وهى تبسم :

— أحب أن تستأنف النظر فى ضرورات حياتك مرة أخرى ، وأرجو ألا تعتبرنى متدخله فى خاصة نفسك ولا داعى للإطناج لأنه يزيد الأمر غموضا وتعقيدا . وإذا كانت بعض الخانى ترعجك فسأحاول ألا أعزفها ما استطعت .

ثم استرجعت نظرتها فى فتنة حزينة ، ومدت يدها فتناولت قفازها وبسطت إحدى كفها لتلبسه قبل أن تقوم ، وكنت لا أزال فى موقفى أمامها قريبا منها فأحيت رأسى وحملت فى كفها المبسوطة ثم نصبت قامتى سريعا فرأيت العجب فى عينيها وقالت : ماذا هناك ؟
— لا شىء .. إلا أن فى خطوط كفك خطا يلفت الأنظار قلما يرى فى أكف الناس .

فقلت مبهوثة : أتؤمن بمثل هذه الأشياء ؟
— ليس إلى حد كبير ، ولكن النفوس متطلعة دائما إلى كهوف الغيب ، تنظر فى ظلماتها وتخمن ما فيها فتخطئ وتصيب .
فتحركت فيها رغبة وسألتنى : وما الذى يدل عليه هذا الخط ؟ ..
إننى لم أجرب قراءة الكف مطلقا ..

قلت وأنا أتكلف ابتسامة فيها خوف ورجاء :
— عدينى أولا بأن تعتبرى ما سأقوله تسلية لا طائل تحتها .
— أعدك .

فقلت وأنا أضغط كلماتى محاولا ألا تضل عن سمعها واحدة منها ،
عامدا إلى أن أشفى غلة صدرى ، وأن أرد لها دينا أرهقت به نفسى قبل أن تفوت هذه الفرصة التى كانت أميرة فيها تمثل المرأة كما خلقت من ضعف ورقة وسرعة تصديق — قلت :
— ستقع فى حياتك أحداث عظام يا آنسة .

قالت فى وجل وإن أظهرت قلة اهتمام :

— عبارة مرنة تقبل كل تأويل .

— هذه ما يقوله دائما أصحاب هذا الفن .. ولكن صدقنى أنه سيكون فى حياتك حدث عظيم جدا . عظيم من نوعه .. ولا أعلم غير هذا .
ثم أحسيت رأسى يحيا وفررت من بين يديها ، وتركها تكمل لبس قفازها فى حيرة وشروء .

وأظننا المساء الأخير دافئا ينتشر فى جوه الضباب ، وتحتجب سماءه بطبقة من السحاب الداكن ، وكنت فى منزل دائم التنقل بين الحجرات كأننى ملسوع ، لا أرغب فى النوم ولا فى القراءة ، ولا أشتاق شيئا فى الوجود إلا أن تقاسمنى هذه النفس مسراتى وأحزاني ، كأننى عميت عن كل شىء ما عداها .

ومر هزيع من الليل وأنا فى موقفى هذا ، وكان آخر مطافى أن فتحت النافذة التى تعودت أن أرقبها منها واتكأت على حافتها وجعلت أنظر فلا أرى إلا نورا خافتا ينبعث من خشب نافذتها المغلقة ، لكننى لم أبرح كأننى أرتقب طلوع نجم ، وكان مصباحى لا يزال مضاء فى حجرة أخرى تركت نافذة فيها مفتوحة الخشب مغلقة الزجاج لتعلم هى مقدار سهري إن كانت تراقبنى . ومرت فترة لا أعلم مداها ، رأيت بعدها وأنا فى الظلام ظلا يتراقص من وراء نافذتها ، ثم رأيتها هى بعينها حتى لم أعد أراها ، وتنقضى فترة سكون تتضاعف فيها دقات قلبى ، ثم يونس بعدها وحشة الليل لحن ينبعث من معزفها ، ولم يكن إلا المقطوعة التى أسفت على أنسى من المعجبين بها ، والتى وعدتنى فى الصباح ألا تعزفها .. فلماذا فعلت ؟ .. لقد حيرتنى !

وارتفع ضحى اليوم التالى فاستقلت الأسرة سيارتها إلى القاهرة ، وكان الشيخ يومئذ بادى التعب كأنه لم ينم طول ليله ، أما هى فكانت ترد على المودعين التحية دون أن ترفع طرفها إلى أحد .

(بعد الغروب)

١٢

جعلت بعد سفرها آخذ الحياة كما تعرض لى ، وأمشى فى سبيلها
كما يمشى الزبد مع سوابق السيل .. لا أرسم لها خط إبحاء ولا أقترح
على الأيام ، ولا أتمنى على الزمان .

وعاهدت نفسى على أن أنساها ، لأنه لا طاقة لى بهذه الشخصية
العنيدة التى تتذبذب بين يدي كحبة الرقيق بين الأنامل ، وحظرت على
زينب أن تخوض فى شأنها ، ولم يبق من نفحات الحب ما يهب على
قلبي إلا ما كنت أسمع من أغاني زينب التى ترددها وهى فى المطبخ على
نغمات « موقد البترول » فتصل إلى أذنى بعض جملها الريفية التى تدور
دائما حول الحب اليأس والحبيب البعيد .

ورأيت أن خير وسيلة لنسيانها هى أن أرهق جسمى فتستريح
نفسى ، فكنت أكدح طول النهار فى المزرعة حتى إذا جن الليل تناولت
عشائى وجلست إلى كئبى بعد راحة قصيرة ، أقرأ فيها ، ثم أنتقل إلى
بعض المجلات ثم أمسك قلما وورقة لأكتب .. وما أكتب ؟ كنت أسطر
كل ما يجول فى خاطرى ، وأسجل كل ما يفيض به شعورى بصرف
النظر عن جودة الفكرة أو وحدة الموضوع ، لأننى أريد أن أقطع الليل ،
وأريد أن أنساها ، ولكننى كثيرا ما كنت أناجيها بما أكتب !!

أردت الليلة أن أجرب حظى فى شيئين أراهما مهمين فى حياتى ، لذلك
سهرت لأكتب رسالتين سأبعث بهما إلى القاهرة فى صباح اليوم التالى :
« أنسى صالح »

صار جدا ما كنت أمزح به ، وأكتب إليك اليوم مستشيرا فى أمر
أرهق قواى وسهد ليلى وأقلق نهارى . أيتها القاموس العظيم الذى جمع
بين دفتيه آلاما وسهرا ودموعا ، أريد أن أتخلص من الحب دون أن أتلف

قلبي كما تخلص العين من القذاة ، أريد أن أحفظ به سليما كريما حتى
يخطبه قلب عاشق فيجده غير مجروح ، فهل تستطيع أن تدلني على
الطريق ؟

إن التي نثرت في طريقي الشكوك تسكن في ضاحية كنا ، وهذا هو
عنوتها .. وربما ساعدك هذا على نجاتي أيها الأخ الأمين .

ومع خطابي هذا تخويل بمبلغ سبق أن تكرمت به عليّ .. أقبلك » .
أما الرسالة الثانية فقد كانت قصة سهرت أحبك حوادثها وأحرك
أشخاصها وأنا في غمرة من الخوف والوجل ، لأنني كنت أتحيل بين كل
فترة وأخرى رئيس التحرير وهو يبتسم ساخرا بعد أن يفرغ من قراءتها
ثم يلقي نظرة على إمضائي وينظر إلى اسمي ويهز كتفيه وهو يقول : من
هذا ؟ وتتعاقب أيام الشتاء في بقاء شديد ، حتى يمر شهر وأنا أتابع
أعداد هذه المجلة الأدبية المتوسطة الانتشار فلا أرى قصتي فيها ، وأرتقب
ردا من صديقي صالح فلا يأتيني رد . وتأخذني موجة عنيفة من اليأس
والقنوط فأقول في نفسي :

أما أمر المجلة فهو واضح مفهوم ، ولكن ماذا عسى أن يكون أمر
صالح ؟

وكم وددت أن يكتب إلى فيخترني - ولو كذبا - أنه تعقب أميرة
من مكان إلى مكان فرآها مفتونة بأحد الشبان ، ورآهما وهما يتقاسمان
كعوس الهوى ، وددت لو فعل ذلك حتى أستريح .
ووافاني اليوم كتاب رأيت على غلافه خاتم القاهرة وعرفت عليه خط
صديقي فلم أحرؤ على فضه من فوري لأنه الحكم في قضية قلبي ،
وأخيرا قرأت ما فيه .

كان طويلا سقيم الأسلوب لكنه من ناحية الدقة وترتيب الخطوات
كان أشبه شيء بمحاضر التحقيق . بدأه صديقي أول الأمر بأن يأسنى
من النجاة لأن طلب الخلاص من الحب يشبه تماما تمنى وصل الحبيب .

هما ظاهرتان متضادتان لكنهما تنتجان أمرا واحدا هو شدة التعلق بمن مال إليه القلب ، وقد عقب صالح على هذا فقال : لا تسخر ولا تعجب فإن « القاموس » مستوفى دقيق وسأسوق لك مثلا يوضح لك القضية : ألا ترى يا صديقي أن النار تسلق البيضة ، ثم ألا ترى بعد ذلك أن الثلج يسلفها كذلك ؟ النار والثلج على طرفى نقيض ولكنهما يؤتيان ثمرة واحدة . إذن فلا تظن أنك ستنسها .

أهنتك ، وأؤكد لك أنك جدير بحب مثلها ، وأن هذا الطراز المترمت الثقليل ممن يترددن طويلا قبل أن يهين قلوبهن ، يكن من أوفى عباد الله إن أحبن ، تشرب قلوبهم الغرام ببطء خائق ممل ، ثم تحتبسه كما تحتبس الأرض الصلبة الماء فلا ترشح بشيء منه .

أرجو أن يروقك ما سأقصه عليه . لم أكتب إليك سريعا لأننى أحببت أن أراها بنفسى ، وقد قصدت إلى الضاحية عصر يوم من الأيام وأخذت أدور حول اللجنة التى تسكنها فألفيتها قلم تحت ظل هدوء شامل (وجعل صديقى يصف لى معالم بيتها لأصدق ما يقول) ولم تتح لى المصادفة أن أراها فى بضعة أيام متوالية ، ولكننى لم أياس فقد رأيتنى أقوم لأخى بخدمة مسلية لذينة ألهتنى شيئا ما عن مشاكل حب غير كريم ، وأخذت سميتى نحو الضاحية فى يوم خميس ووقفت أرقب البيت من بعد . لكنه دخل إلى نفسى خاطر غريب وهو أننى نسيت رقم المسكن وأن المنزل الذى أهتم به هو غير الذى أريده . فيممت إليه من فورى وضغطت زرا على بابه فسعى إلى غلام يسألنى عمن أريد ؟ فقلت له : إن لم أكن مخطئا فهذا منزل سعيد بك حلمى ، فرد على الغلام فى سذاجة : أسف يا سيدى ، فهذا منزل فريد بك ، فشكرته وأنا أبتعد ، واستأنفت الانتظار من جديد .

كنا فى الساعة الثالثة مساء حين رأيت فتاة تخرج وإلى جوارها بنية لا تتجاوز الثانية عشرة من عمرها ، ولن أعرض لوصف الكبرى بشيء

فأنت أعلم الناس بأسرار حسننها ، أما الصغرى فأصدق كلمة تعبر عن خصالها هي أنها لطيفة ، سمعتها تسأل الكبرى عن سر نزولهم إلى القاهرة بلا سيارة فقالت : أعتقدين أنه من الضروري أن يركب كل الناس سيارة خاصة ؟ سركب القطار والزام . وسبقتهم إلى محطة سكة الحديد وكنت في القطار على مقربة منهم ، وعلى عيني منظر حالك يحجب اتجاه نظراتي . وكان أول شيء عملته بعد أن نزلنا إلى المدينة هو أنها دخلت شقة في الطبقة الأولى من إحدى العمارات عرفت بعد أن ساكنها يحترف قراءة الكف وله في هذا الفن شهرة ، وعلى بابيه بالطبع لافتة تحمل اسمه ومهنته . وجلست في مقهى قريب حتى رأيتها خارجة ، فبتعتها من بعيد ولاحظت أنها تتكلم مع من أظنها أختها بشيء من العصبية وعدم الارتياح ، ولا أنسى أن أقول لك : إن الساعة إذ ذاك قد قاربت السادسة . وسارت إلى حي الملاهي فرجحت أنها ستدخل إحدى دور « السينما » وقد كان . وكانت الدار مزدحمة في ذلك المساء ولكنني استطعت أن أحجز كرسيًا قريبًا منها . آه يا صديقي !! كانت البطلة في تلك القصة عجيبة الشخصية : تحب فتاها ولا تشاء أن تعترف ، وقد جمعها موقف ودار بينهما نقاش في أمر عادي ، فرأينا البطلة تحتد بلا مناسبة ، ثم تنقلب حدتها بعد قليل إلى غضب جامح تعبر فيه عما يجيش به نفسها نحو شخصية الرجل ، فألفيناها تقول : ما هذا ؟ .. أكرهك .. أمقتك .. لا أحب أن أراك .. وبين كل كلمة وكلمة كانت تدنو منه قليلا وهو في موقفه لا يتحرك وعيناه تلمعان بالابتسام ، حتى إذا ما وصلت إلى جملتها الأخيرة رأيناها تميل عليه ، ثم تلتقي شفاتها في قبلة روية عذبة إلى حد أننا سمعنا نبرات الصوت متصلة برشفة القبلة وهي تقول له أخيرا : أكرهك إلى أن أموت : وصدقني إنني التفت سريعا نحو فتاتك فإذا بي أرى بياض منديلها الذي تمسح به الدموع في سواد الظلام .

عبد العزيز : لست قاموسا فحسب ولكننى قاموس وجاسوس .
 مجتهد ، غير أننى سىء الحظ ، لا أسف ولا ندامة فقد اخترت من
 الحب شطه المجدب ، اخترت جانب الجسم وعزفت عن جانب الروح ،
 فليتنى ما فعلت !! أما أنت فأبشرك من الآن بأن يد الحب ستوقد شعلة
 مجدك التى ستبقى على الأيام .. وأقبلك .

هذه هى المعانى التى تناولها خطاب صديقى . قرأته فإذا ببرد الراحة
 وسكينة الصبر يهبان على قلبى ، وإذا ثغر الدنيا يفتّر عن ابتسامة . قلت
 فى نفسى : حسن جدا .. وقد ذهبت إلى قارئ الكف ١٩ إذن فقد
 أفلقتها . وتبكى من مواقف الحب على الشاشة ا إذن فقد أحبت ،
 أو هذا هو المرجح . وصرت أرتقب الحوادث وأنتظر ما تجرى به الليالى ،
 حتى فوجئت بخطاب جديد من القاهرة ، كان يحمل القصة التى أملت
 نشرها منذ أكثر من شهر ، كان معها خطاب من المجلة يفيض بالأسف
 المكشوف لأنهم لا يستطيعون نشرها إلا بعد وقت طويل لكثرة ما بين
 أيديهم من المقالات . وجن الظلام فأقفلت بابى واختليت بنفسى ،
 وأشعلت نارا ألقى فيها القصة ورسالة صديقى صالح ، فما كنت أحب
 أن تطلع عليهما عين .

* * *

هذه تباشير الربيع يغنى لها الريف مع كل صباح ..
 نشطت الطير على ذوائب الأشجار حين فترت أنفاس الشتاء .
 وخلت رقعة السماء من السحب فى معظم ساعات النهار ، وبدأنا نشم
 فى غدونا الباكر رائحة تعبق بها أرض الريف ، هى خليط فاتن من
 أنفاس الحقل وعبير الزهر ، والثرى والندى والماء .
 ولم يكن يعيننى من الريح جماله بقدر ما يعيننى منه أنه الفصل الذى
 تبنى فيه الخلايا ، وأن أميرة ستقيم عندنا فيه عدة أيام قد تنتهى بالحكم
 فى قضيتنا المشتركة . وجاء اليوم الذى كنت أرتقبه . ورأينا سيارة

الأستاذ تهادى على الطريق الخصوصى وقت الظهر فى طريقها إلينا ، وكنت وقتئذ فى الحجرة العامة القرية من منزل الأستاذ التى تدار فيها شئون المزرعة .. وانتفضنا جميعا على صوت البوق المعروف وأسرت خطاى لأسلم على الأسرة ، وخف أناس ليأخذوا المفاتيح ويحملوا المتاع . وما إن أقيت نظرة على من بالسيارة حتى كاد الدوار يفقدنى وعيى لشدة المفاجأة ، لم تكن الأسرة وحدها وإنما كان معها ضيفة ... ونزلت ليلى من السيارة أول النازلين ، وسلمت وجعلت تكلمنى فى حركة قلقة وهى تثب وتدور ملحة فى أن أحضر شبكة صيد الفراش ، وجعلت تشير إلى بعض فراشات مختلفات الألوان كانت تهيم فى حقل الأزهار أمام البيت بالقرب منها ، وهكنا فعلت ليلى حتى كادت تلهينى عن أن أسلم .

أما الشيخ فقد كان فى هذه المرة ناضر الشيوخوخة ولقينى بتودده المعروف . وأما أميرة فلا أدرى لماذا تعاقبت على وجهها عدة ألوان ، كان أولها توردا شديدا حين التقت عيوننا قبل نزولها ، وكان آخرها شعوبا مريضا فائنا حين تلامست أكفنا بالسلام .

وأما الضيفة فقد كونت عنها فكرة قد تكون صحيحة : أعتقد أنها مرحلة طائشة : ودليلى على ما أعتقد هو ضحكتها الناعمة المصنوعة البعيدة عن الوقار التى سمعتها وأنا أجتاز باب الحجرة العامة فى طريقى إلى لقاءهم وقد ظننت بادئ ذى بدء أن أميرة هى التى ضحكتها فعمجت من تبدل الأحوال .

رأيت الضيفة فتاة بادية الطول تميل إلى النحافة ناصغة اللون غير واسعة العينين ، ولكن فى عينيها نفاذا كأنهما جمرتان ، وكانت تلبس ثوبا زاهى الألوان يحمل معه الحكم على طبعها الطائش ، وكانت كاملة الزينة كأنما كانت تتعهدا بالإصلاح طول الطريق ، أو كأنها فرغت منها لتوها ، فى الخامسة والعشرين على ما يبدو لى ، وقد توهمت أنها

سيدة ، وبعد نظرة سريعة إلى أصابع يديها عرفت أنها آتسة ، فلم يكن فى إحدى يديها خاتم ، ومعنى هذا أنها كانت فى طور قلق من أطوار حياة الفتاة .

ودخل المسافرون وتحولت أنا قاصدا إلى بيتى لأبعث بشبكة صيد الفراش لليلى ، وكنت أقول وأنا فى الطريق : لقد سنحت الفرصة .. سأحاول أن أنفذ وصية صالح ، إنها تجربة خطيرة قد أدفع من أجلها ثمنا باهظا .. ولكن .. فى الرجال رجال يلبسون رقابهم بأيديهم حبال المشانق ، أليسوا مثلى تماما من لحم ودم ١٩ إنها ضرورة .. هى بحال حيوى كالذى تمار من أجله الدولة وتزهق فى سبيله أرواح بنيها . ثم ذكرت رسالة صالح واسترجعت موقفها فى الخيالة ، وبياض منديلها فى الظلام وهى تبلله بالدموع ، وهىة صديقى يوم التقينا ونحن مستلقيان على السرير وهو يقول لى : زاول الغزل مع فتاة غيرها على أنه دواء ، كما يشرب المحرجون الخمر بإشارة من طبيب . ذكرت كل هذا فصمت على أن اعمل .

استدعيت الليلة بعد العشاء لمقابلة الأستاذ ، ودخلت المنزل فتقابلنى زينب فى الردهة وعلى شفيتها ابتسامة متفائلة ، وكانت هناك نغمات صاخبة تدعو إلى الرقص العنيف تنتشر فى جو المكان من معزف أميرة ، خمنت بعد أن قرعت سمعى أن الضيفة هى التى تعزفها . ودخلت على الشيخ وبدأنا نتحدث حديثا عاديا ، عن الجو ، وعما أقرأ من قصصه ومقالاته ، حتى دخلت علينا ليلى تعرض ما جمعه من فراش ، ثم جاءت أميرة وكانت النغمات لا تزال تنصب فى أسماعنا ، فصيح حدسى وصدق تخمينى ، وانتظمتا المجلس وبدأنا نتكلم عن مشروع الربيع ، قلت :

— سنبنى الخلايا فى الطرف الشمالى من حديقة الفاكهة ، على مقربة من الحقول ، لأن خير مكان يساعد النحل على إنتاجه أن تكون خلاياه قريبة من مواطن الأزهار .

وقد عثرت على نحل فى إحدى القرى القريبة ، واهتديت إلى من سيقمون الخلايا ، وبدء العمل مرهون بإشارتكم . وجمال بنا الحديث فى هذا المجال فترة من الزمن انقطعت بعده أنغام البيان ، فرأيت أميرة تلتفت نحو الباب المفتوح ، وما لبثنا أن سمعنا وقع أقدام وصوتنا ينادى : أميرة ... أميرة . فقالت الأنسة : نحن هنا ... تعالى يا آمال . فدخلت علينا تتأود فى ثوب حريرى تكاد أذياله تلمس الأرض . ثم حيت وحيينا ، وقدمتها أميرة قائلة : بنت خالى الأنسة آمال . والأستاذ عبد العزيز ناظر العزة . ولم تزدد .

ومرت فترة صمت كان الشيخ ينفث فيها دخان لفيفته وهو جالس على الأريكة فى تهالك شديد ، ثم سألنى : أترى من الخير أن نبداً بإنشاء عدد كبير من الخلايا ؟ فقلت : بل من الخير يا سيدى أن نبداً بعدد قليل فإن ذلك يساعد النحال على أن يستأنس نخله شيئاً فشيئاً ويعرف طابعها فيدير الخلايا بسهولة ونجاح . قالت الضيفة :

— أتتكمون عن النحل ؟ إننى أعرف الكثير عن شئونها ، كان لأبى صديق مغرم بتربيتها وقد زرناها فى بلده واطلعنا على أسرار مهنته . ثم جعلت آمال تثرثر فتصيب فى شىء وتخطئ فى شىء وأنا مصغ إليها مؤمن على ما تقول بتحريك رأسى ، أما الشيخ فلم تفارق الابتسامة ثغره مدة تحدثها ، وأما أميرة فإنها انصرفت من الغرفة وعادت إليها مرتين أو ثلاثاً فى فترات متقاربة وكان يبدو عليها أنها غير مرتاحة .

وفى صباح اليوم التالى طرقت زينب على الباب لتقوم ببعض شئونى ، فسألتها عن الأنسة آمال . وعن موطنها ، ولم جاءت ؟ فقالت لى فى عجب وذهول : لم يا سيدى ؟ أعجبتك الضيفة ؟ قلت وأنا أتسم : عليك أن تجيئى فحسب ، قالت : سألت سيدتى أميرة عن ضيفتها فحدثتنى أنها ابنة خالتها ، وأن أباهاموظف كبير فى إحدى

— ١٣٨ —

عواصم الوجه القبلى ، وحدث أن جاءت آمال إلى القاهرة لتزور بنتى خالتها ، فوصلت إلى هناك فى اليوم الذى عزمت فيه أسرة الأستاذ على الحضور إلى هنا فى غده ، ولذلك لم يكن بد من أن تأتى معهم الضيفة لتقيم وقتا سيقيمونه ثم ترحل معهم .

— إنها آنسة ؟

— نعم .

— ويخيل إلى أنها غير مخطوبة .

— هذا ما أجبتهى به الآنسة أميرة ليلة أمس .

— أتشاركنى الرأى فى أنها جميلة يا زينب ؟

فأطرقت ولم تتكلم .

— لندع أمر جمالها .. ولكن ألسنت معى فى أنها جذابة ؟

فرفعت إلى طرفها وجعلت تقول بلهجة الناصحين :

— نحن نساء يا سيدى ، والمرأة أقدر الناس على فهم المرأة . إن الآنسة

آمال زوبعة هوجاء . فتاة رعناء لا تستقر على حال ولا تسعد رجلا ، ويخيل لى أنها ضيفة ثقيلة على سيدتى أميرة .

فقلت لها متهمكما :

— صدقت .. وأنت دائما بعيدة النظر .

ثم تركتها وخرجت .

وبدأنا بناء الخلايا فى يومنا التالى ، وكنت أقرب كل شىء بنفسى ، وعرج على الأستاذ مرة أو مرتين فرأى ما نعمل ثم قصد إلى الغابة حيث يقرأ أو يكتب ، وجاءت إلى أميرة وضيقتها وأنا هناك فلقيتهما بتودد بالغ وعمدت إلى أن أخص آمال بقدر أوفى من الاهتمام ، فكنت أجيب عن كل سؤال تسأله ، وأطرى كل فكرة تقترحها ، وأوافق على ما تراه وإن كان خاطئا ، ثم أقول عنه فى مهارة لا تسفه رأيتها ، حتى رأيت فى عيني أميرة بشائر الغيرة وحتى سمعتها مرة تعرض بالملامة وتقول لابنة خالتها :

— ١٣٩ —

— آه يا آمال .. إنك ما اخطأت مرة واحدة !!

فأعرضت عن أن أعلق على قولها بشيء .

وسبقته الضيفة اليوم إلى طرف الحديقة حيث تقام الخلايا ، وكنا قد فرغنا من إعدادها تماما ولم يبق إلا أن أختار لها طرود النحل ، وكنت قد لاحظت أن الفتاتين تتسابقان في تبديل الثياب مرتين أو ثلاثا فى اليوم الواحد ، كما لاحظت أن آمال تحرص منذ اليوم الثانى من قدمها على أن تحلى صدر ثوبها بزهرة خاصة هى زهرة « البانسيه » فجمعت أشتات شجاعتي فى هذا اليوم ووضعت هذه الزهرة فى سترتى .

كنت وحدى عند طرف الحديقة الشمالى على الطريق الضيق وقت الضحى ، فرأيت ليلى تعدو نحوى وهى تلوح بالشبكة فى الهواء وتصيح بأعلى صوتها قائلة : إنها وفقت إلى صيد فراشة فاتنة الألوان ، فيها من كل لون قدر . وكانت آمال تتبعها سائرة على مسافة قريبة ، فما أن وصلت إلى ليلى واشتبكت معى فى الحديث حتى كانت الضيفة قد وصلت إلى موقفنا ، وألقت تحية الصباح فى مرح وهى تتثنى مقبلة كأنها أحد أغصان الربيع ، ثم قالت : كأنها صادت قوس قزح يا حضرة الناظر .. فراشة غريبة الألوان . ثم وقعت عيناها على الزهرة فى صدرى فقالت فى نبرة ذكرت ساعاتها نبرات الممثلات التى يصطنعنها حرفة وفتنة .

— أتحب هذه الزهرة ؟

— نعم .. ولم تخلفت اليوم الآنسة أميرة ؟ هل تأخرت فى النوم ؟

— قادمة حالا ، لقد دخلت مع والدها إلى الغابة ، وكنت أنا مشغولة بمراقبة ليلى وهى تطارد الفراشة على هذا الطريق .. وأظنها لاحقة بنا حالا .. آه .. نسيت أن أسألك .. ولم تحب هذه الزهرة من بين الأزهار جميعا ؟

وارتجفت قليلا قبل أن أجيب ، ووازن قلبى سريعا بين الغنائم الباردة

منهن ، وبين من نذرف فى سبيلهن الدموع ، فألفت أن مرارة الأخرى أشهى إلى القلب من حلاوة الأولى . ثم بصرت بأميرة تظهر على الطريق فى سبيلها إلينا ، كانت ليلي تجرى نحوها وهى تلوح بالشبكة لتطلعها على صيدها الجميل . وعمدت فى هذه الحالة أن أطيل جبل الحديث بينى وبينها وبين آمال حتى تبلغنا أميرة . فقلت مجيبا عن سؤالها :

- أحبها لأنها زهرة جميلة .

فقلت وهى تفر من طرفها :

- وليس فى الأزهار أجمل منها ؟

- فى رأى أنا شخصا ؟ .. إن خلقت أزهار جديدة غير التى نعرفها حتى الآن فلن يخلق أجمل منها .

ففاض الغزل من كل جارحة فيها ، وهتفت :

- كم أنت رقيق !!

وكانت أميرة قد قاربتنا فرأيت من الكياسة ألا أقطع الحديث فواصلت الكلام عامدا إلى أن ألقى محاضرة عن الأزهار ، فجعلت أعدد أنواعها وما تستخرج منه العطور حتى قطعت علينا أميرة سباق الحديث بالتحية . فقلت وأنا باسم بعد أن حييتها : يخيل إلى أن الأنسة آمال مولعة بالأزهار بعد ولوعها بالنحل ، لذلك أجبرنى شغفها على أن أحدثها طويلا عن الأزهار . قلت هذا وأنا أراقب عيني أميرة بلهفة وشوق لأرى ما فيهما من خلجات نفسها بعد أن تكشف زهرة « البانسية » على صدرى وصدر بنت خالتها ، فرأيت غيرة حقيقية مكتومة تطغى على ملامحها فرفعت يدي بالتحية ثم درجت على الطريق وأنا أقول لها :

- لم يبق أمامنا يا سيدتى إلا الخطوة الأخيرة .. أعنى أننا سنختار النحل حالا لنسكنه هذه الخلايا . والتفت بعد قليل فإذا بهما قد غابتا معا بين أشجار الحديقة .

قالت زينب لى مساء اليوم التالى : من حَقِّك يا سيدى ومن حق سيدتى أميرة أن أقص عليك هذه القصص :

لقد اختلت بى اليوم خلوة طويلة ، وكان أول ما بدأتنى به قبل أن تخوض فى شىء أن قالت : أرايت يا زينب ؟ قلت : خيرا يا سيدتى ! فقالت :

- أرايت هذا الشاب الغريب الذى خدعتنى فيه وزينت لى مقابحه كما يفعل الشيطان ؟! لقد رأيت بهينى .. رأيت يغازل ابنة خالتى على نهاية الطريق بين الغابة والحديقة ، وقد بلغ أمرهما المكشوف إلى حد أن وضع كل منهما زهرة « البانسيه » على صدره . وهذه أول مرة رأيت فيها عبد العزيز يحمل سترته بإحدى الأزهار ، فلما فوجئت بى قال يريد أن يحسن التخلص : إن الأنسة آمال مفتونة بالأزهار لذا رأيتنى بجرا على أن أتحدث إليها فيها . وكأنه نسي أن كل جارحة من جوارحها كانت تتم عما يتحدثان فيه . ألا تعرفين ابنة خالتى هذه يا زينب ؟ لقد خطبت غير مرة وكان طيشها وسرعة توددها من أهم الأسباب التى نقضت خطبتها فى كل ما فات ، وقد جاءت معنا على الرغم منا لأنه لم يكن هناك بد من مجيئها ، وأراها بدأت تنصب حبالها حول هذا الشاب الساذج . فقلت لها : كذا ١٩ لكنه معذور يا سيدتى ، ويخيل لى أن كل شاب من حقه أن يبحث عن منهل آخر إذا صد عن أول منهل . فرأيتها تهيج غضبا حتى خفت أن تلطمنى ، وسمعتها تقول بعد ذلك : لا بأس .. دعيه فانا كفيلة به . ثم قالت زينب وهى تضحك : وعليك منذ الآن أن تنتظر يا سيدى أول فرصة لتلقى فيها درسا من التهذيب .

وأسرعت الأيام خطاها وقاربت الأسرة أن تعود إلى القاهرة وكنت أراقب كل ليلة نافذة أميرة فلا أرى فى ضوءها إلا شخص آمال ، تغدو وتروح وتجلس إلى المعزف وتقف طويلا إلى النافذة كأنها محمومة . وقضينا أمر الخلايا وسكنها النحل ولم يبق من رحلة الريح إلا أن نعلم

متى سيسافرون .

وتعودت منذ أن أقمتنا الخلايا أن أمر عليها قبل الغروب لأرى مقدار
طمأنينة النحل ، ثم أعرج على حظائر الدواجن عند مدخل الحقل نحو
الشمال وأعود إلى منزل من الطريق الضيق بين الغابة وحديقة الفاكهة ،
وذهبت اليوم إلى الخلايا كما هي عادتي وما كنت أعلم أن القدر يخبئ
لى هناك حدثا عظيما .

رأيت أميرة وحدها هناك ، واقفة ووجهها إلى الغرب وظهرها إلى
طريق الداخل ، وكانت ترقب باهتمام وعن بعد خلية تحير على بابها
النحل فأخذ يدور ويطن فى صخب شديد . كان عليها ثوب أزرق
شديد الزرقة كأنه من أديم السماء . وكانت جامدة فى مكانها
لا تتحرك حتى ظننت أنها لم تسمع وقع خطواتى ، فوقفت برهة أتأمل
جمالها الذاهل وسحرها المحيوس قبل أن أقول لها :

— فيم أنت مشغولة يا آنسة ؟

فأدارت وجهها نحوى ثم مدت يدها تشير نحو الخلية برشاقة وقالت
باختصار وهي عابسة الملامح :

— انظر !

قلت وأنا أبتسم :

— لا ضرر .. خلية فقدت ملكتها .

— وهذه الضوضاء وما تراه من حيرة كله من أجل الملكة المفقودة ؟

— أعتقدين حتى هذه الساعة أن فى الدنيا خلية تعمّر بغير ملكة ؟

شد ما تيسرين عسير الأمور !

كنت على يقين من أنها تريد أن تغضب ، وكنت على يقين كذلك
أن غضبها سيكون من نوع لا يخيف ، من أجل ذلك عملت على أن
أمهد لها طريق الغضب لتغضب .

قالت :

— ١٤٣ —

— هل أنبأوك أننى متخصصة فى تدبير النحل ؟ إن فقدت الخلية ملكها فذلك راجع إلى إهمال المختصين .

— عفوا يا آنسة ، فقد تبادر إلى ذهنى أنك لا ترين ضررا على الخلية من فقدان ملكتها ، ولم أقصد إلى أبعد من هذا وعلى كل فسأدبر الأمر .
فدنت منى قليلا ولوحت بكفها وهى تقول فى حدة :

— تدبر الأمر !! هيه أنت لا تجيد التحدث إلا فى الأزهار .. أسمع !؟
ثم اضطربت أنفاسها واختلجت شفتاها ومال لونها إلى الشحوب واستطردت تقول فى أنفاس متقطعة وكلمات مبهورة :
— أنت .. أنت .

واقتربت كأنها تريد أن تمسك بتلابيبى :

— أنت .. أنت شخص متعثر السلوك .. إبنى أكرهك !!
وكنا متقاربين تكاد ثيابنا تتلامس عندما نطقت بجملتها الأخيرة .
وأسبلت بعد ذلك أحفانها واضطربت كما تضطرب القصبه فى مهب الريح ، حتى خيل إلى أن ساقها لم تعودا قادرتين على أن تحملها ، فأخذنى الموقف وأسندت كتفها بكنتى يدي لأحول بينها وبين أن تهوى ، ثم تدانينا فشعرت بحرارة أنفاسها على أديم وجهى ، وعيناها لا تزالان مسبلتين ، وأهدابها الطوال تلقى ظلالا على صفاء خديها .
وكانت بعد هذا كله لا تزال تردد بصوت مبجوح أناذا :
— أكرهك .

فهفوت إليها لأقبل ثغرها ولكنها نأت به عنى وأمالت رأسها إلى أحد الجانبين فاستراح على كتفى ، ووقعت قبلى على جيدها الناصع الطويل فكأننى قبلت عاجا دافئا ، وهتفت أنا بعد ذلك وهى لا تزال بين ذراعى :

— أنكرهينى !؟ لقد استأنفت النظر فى ضرورات حياتى ألف مرة
فإذا أنت ضرورة لى !! أحبك .

- ١٤٤ -

فاستقبلتنى بوجهها كله والتقت أعيننا فقرأت فى نظراتها الشك ،
فقلت لها ثانيا :

- أحبك ... واحذرى بعد اليوم أن تتصورى أن فى الدنيا خلية من
غير ملكة .

فتملصت من بين يدى ونظرت حولها فى دعر شديد وكانت ظلال
الشفق تلقى على الأفق وعلى الحقول حمرة خفيفة حين استرجعت
نظراتها وأقبلت تقول :

- ذلك ما كنت أخشاه . حدث عنه طويلا ثم رأيتنى فى غماره
فجأة كأنه الطوفان .

وأطرقت ، فأمسكت كفها مترفقا وجعلت أهمس :
- أميرة . كفى . أشهدى المساء ، وأشهدى الطير ، وأشهدى
الشجر ، وأشهدى الربيع ، أشهدى الكون كله على حبنا فقد لقينا فى
سبيله الكثير .

ثم كان أن رأيت على خديها دمعة وعلى شفتيها ابتسامة قبل أن تجد
السير متجهة نحو الطريق . وظللت واقفا أرقب الشجر وهى تختفى تارة
وتظهر تارة أخرى حتى توارت عني .

* * *

قلت للأستاذ ونحن نتحدث معا ليلة باتوا على سفر :
- لقد حاولت يا سيدى منذ قريب أن أجرب الكتابة .
فتهلل ذلك الرجل الكريم ، وقال :
- حسن ، حسن ، وابتدأت تكتب يا بنى ؟ بشرى طيبة . أمعك
شئ مما تكتب ؟

فقلت :

- ليس الآن ، (ثم سكت برهة حتى تشجعت فأردفت) وقد حدث
منذ شهرين على التقريب أن بعثت بأقصوصة إلى إحدى المجلات الأدبية

فردتها مع الشكر .

فضحك الشيخ يريد أن يرفه عني ، لا أن يسخر مني وقال :
— احذر أن يفت هذا في عضدك فهذه بداية كل أديب . ولكن من
الخير أن ترسل إلى في القاهرة بكل ما تريد نشره ، وسأرسل الصالح منه
إلى المجلة التي أختارها ..

فكدت أطير من الفرح وهممت أن أقبل يديه .
أما آمال فما نسيت يوما واحدا أن تخلّي صدرها بزهرة
« البانسيه » ، وقد اعترضتني بعد أن هدأت الزوبعة في نفسى مساء
التقيت مع أميرة ، وسألتني بلا مبالاة ولا تحفظ :
— أنسيت الزهرة يا حضرة الناظر ؟

فقلت وأنا أوسع من خطواتي آخذنا في طريقى :
— معذرة يا آنسة .. فإن الحقل يلهيني دائما عن حديقة الأزهار .
وأما زينب فإنها ألحت مرة بعد مرة لتعرف متى تلقيت درس
التهذيب فأمسكت عن أن أقول لها شيئا . لكنها عرفت ولا شك من
صفاء نفسى وانبساط أسارىرى أن الرياح قد جرت بما تشتهيهِ سفينتى .
ثم سافروا عند الصباح وكان بينى وبينها وداع صامت ، ولكن
بخوى العيون حملت إلى كل منا ما يريد أن يقول صاحبه ، وكأين من
غروب شهدنى بعد ذلك اليوم ، وأنا واقف وحدى بين نخلايا النحل فى
الطرف الشمالى من الحديقة ، أرقب مغيب الشمس وحمرة الشفق فى
هذه البقعة التى صارت أعزّ علىّ من مسقط رأسى .
وكثيرا ما كنت إخالها إلى جوارى ، فأتلفت ١١

١٣

مضى شهر على هذه الحوادث كنت فى خلاله نهبا لأحلام سعيدة كأننى فراشة تهيم بين أزهار الربيع ، على أنها لم تكسب إلى ولم أكتب إليها كأن فرحة الحب شغلتنا بالحاضر عن المستقبل .

وبر الشيخ الكريم بوعده فقد بعثت إليه بقصة تولى نشرها عنى . ولم تكن هذه القصة إلا التى سبق لى أن أشعلت فيها النار . فقد أعددت كتابة فكرتها من جديد ثم غيرت عنوانها لأرى إن كانت صالحة حقاً . وكانت فرحتى شديدة يوم حمل البريد عددا من المجلة ورأيت اسمى بين صفحاتها . ولا أذكر كم مرة أعدت قراءتها حتى أرانى أذكر حتى اليوم موضع كل كلمة ونظام كل صفحة .

ثم سافرت إلى القاهرة لبعض شئونى ، وهبطت الضاحية حيث منزل الأستاذ فلما استأذنت لقيتنى أميرة لقاء ارتحت له ، فإنها لم تملك ساعة تراءينا إلا أن همست : هل جئت ١٩ واستبقى كلانا ونحن نتصافح كف صاحبه فى كفه مدة غير عادية .

وجمعتنا حجرة الاستقبال وكانت نظرات كل منا تذكر الثانى بالوقوف الأخير لكن أحدهما لم يجرؤ على أن يتقدم نحو صاحبه . وكنت موطدا عزمى على أن أفأوضها فى شأن جلسة بجمعنا ، لنجدد فيها الأمل ونوضح العلاقة ، ولأكشف الستار عن هذه النفسية التى صادفت منها عنتا وشدة . قلت بعد أن استقر بنا المكان :

— أريد أن أتحدث معك فى أشياء أرى من الضرورى أن نخوض فيها .

فقلت وهى مطرقة وكأنها فى حيرة :

- ١٤٧ -

- وأظن أنه حديث طويل .

فقلت :

- وليس من المستطاع أن يدور هنا في هذه الحجرة .

فلم ترد جوابا ، بل أخذت تنقر بأصابعها نقرات متعاقبة على ذراع الكرسي وهي جالسة لا ترفع إلى طرفا ، فقلت وأنا أجاهد الخوف والوجل :

- ولا تنسى يا سيدتي أنني سأبيت في القاهرة ليلة واحدة .

فقلت :

- إن كان ولابد من ذلك فإن عصر اليوم هو ميعاد زيارتي لطبيب الأسنان .
ثم سمعنا وقع خطوات الشيخ فحضنا سريعا في شئون الزراعة ،
ولا أكتمك أنني أحسست وأنا أضافحه بشيء أعتره تأنيب ضمير ، فقد
فرضت بيني وبين نفسي أن الرجل غير مرتاح إلى أن أحب ابنته فظهر
الحب لي في مظهر الجريمة ، وقد عمدت أميرة ألا تطيل جلوسها معنا
فتركنا وخرجت ، وظلمت أتكلم أنا والأستاذ في شئون شتى كان من
بينها أن حفزني إلى القراءة والكتابة وتنبأ لي بمستقبل سعيد .

وكنت سائرا في طريقي بعد أن خرجت من عنده وأنا أتناول حبي
لأميرة بالتحليل والتعليل . وكانت النتيجة - كما تتوقع أنت - أن رأيته
غاية شريفة ومعنى كريما .

كنت أرقب قطار الضاحية عصر هذا اليوم وأنا واقف في المحط
أتصفح وجوه النازلين بحرص ولهفة ، حتى لا تضل عيناى عنها
فلا أراها . وسرنا خارجين من مبنى المحط في صمت وارتباك خلنا معه
عيون الناس تأخذنا من كل جانب ، وتصورنا أن كل ناظر إلينا يعرف
قصتنا . ولما انجلت عنا هذه الغمرة سمعتها تسألني في رفق وابتسام :

- أذهب أنت معي إلى عيادة الطبيب ؟

فقلت مداعبا :

— ١٤٨ —

— طبيب الأسنان .
 — لا حاجة بى إليه .
 — ولكننى محتاجة إليه .
 — هذا صحيح ، ولكن الأجلد بنا أن نذهب معا إلى طبيب أرى
 كلينا فى حاجة إليه ، ثم نفاوضه فى علاجنا جملة واحدة .
 فقالت وهى تخبس ضحكها :
 — وترى أين تقع عيادة هذا الطبيب ؟
 — فى خارج المدينة ، مع ملاحظة أنه لا يستقبل المرضى بعد الغروب .
 — ومعنى هذا أننى أؤجل اليوم زيارة طبيب الأسنان ؟
 — ذلك حتم ، فإن الوقتين متعارضان .
 وما مضت ساعة من الزمن حتى كنا فى إحدى الحدائق ، حيث
 انتحينا هنالك ناحية نتمتع بالهدوء . وجلسنا متجاورين على كرسي
 يظلل عريش من الخشب تنمو عليه الأغصان ، وكانت الفتنة إلى جوارى
 لا يفصلها عنى إلا قليل . فتنة رأيتها هم قلى وكيان وجودى ، تفوح
 من شعرها الحالك رائحة عطرها الشذى الخفيف الذى نفذ إلى خياشيمى
 فأعاد إلى ذاكرتى كل موقف من مواقفنا الماضية ، ونظرت أميرة إلى الساعة
 فى معصمها ثم نظرت إلى بطرف فاتر كأن فيه بقية من سكر وقالت :
 — كان يجب أن أكون الآن فى عيادة الطبيب لو أن الأمور سارت
 وفق ما دبرته .

فقلت :

— لا تدبير مع المقادير يا آنسة .. وما كان يجب أن تكونى هناك
 ولكنه يجب أن تكونى هنا .
 ثم أخذت أنفاسى طويلا واتجهت إليها بكل ما فى وأردفت أقول :
 — ماذا تتوقعين أن أقول لك ؟ هل تستطيعين أن تخمنى موضوع
 الحديث ؟ .. إخاله لا يخفى على ذكائك .
 فأجابتنى بصوت هادئ نافذ النيرة بعد أن صبت على مغناطيس عينها :

- وهل تظن موضوع حديثنا من الخفاء بحيث يحتاج إلى تفكير ؟ لن أكون مبالغة إذا قلت : إنه حديث معاد .. معاد حقيقة لكنه غير ممل . خضنا فيه بالعيون والجوارح ، وإن لم تخض الألسنة فيه مرة واحدة . ولكن .. آه .

ثم حولت بصرها وأطرقت قليلا ، ورأيت على ملاحظها مسحة من الخوف فأمسكت كتفها قائلا لها :

- أميرة .. لا تغضبى إذا قلت لك : إن العام الذى قضيت بعض أيامه على قرب منك كنت فيه أشبه برجل يعيش فى قصر مسحور ، تملؤه المفاجآت والألغاز فقلبه عرضة فى كل يوم إلى هزة عنيفة . أحب أن أعرف سببا حملك على أن تجشمى قلبك السير فى طريق دوار والسبيل أمامه ممتدة واضحة .

ثقى بأننى غير خادع ولا كاذب حين أقول : إنك ملكت قلبا بكرا لمسته فيما مضى أنامل حب لا يزيد على حب الطفل للبه ، أما اليوم فقد عرفت الحب وأدركت لذة الشقاء فيه ، وعرفت الدمة ، وأدركت سر امتزاج الأرواح ، أنت ضرورة لحياتى فلا أرى الوجود إلا بك . فإذا كان موقفك منى غير موقفى منه : فثقى أن وجه حياتى سيتبدل .

فقلت : أنت تتعجل الحوادث وهذا مما لا يوافق طبعى . أتريد أن تضع للغيب « تصميم » كما يفعل المهندسون قبل بناء قنطرة أو بيت ، وقد قلت إنه لا تدبير مع المقادير ؟ لا يزعجك يا صديقى أن أصارحك بأننى على الرغم من السعادة التى أحسستها بعد حبك : أراى فى حيرة من أمرى . ولا أنكر أننى كنت أريد عن طريقك عامدة ألا أحب وقد ساعدتنى طبيعة قلبى على ما أردت طول هذه المدة ، وما دمت مصرا على أن تدخل إلى نطاق سرى فلا بأس من أن تسمع ما أقول :

- كنت فى الثامنة من عمرى حين فاجأت المنية أمى عقب ميلاد أختى الصغيرة ، وأنا ابنة وحيدة جاءت على شوق فحظيت بتدليل

الأبوين . ماتت أمي فقاسيت ألم العزلة ومرارة الوحدة في سن مبكرة ،
وصاحبني المرض زمنا طويلا كما قلت لك ثم صبح الجسم ولكن النفس
بقيت مريضة ، أحببت العزلة وعزفت عن المرح وأصبحت لا أنظر إلى
الغد نظرة فتاة تفكر في أمر نفسها . صرت لا أهتم إلا بأبي وأختي
ولا أبه بشيء إلا بالسهر على راحتهما كأنتي امرأة فرغت تماما من
شئون دنياها . وكثيرا ما تحدث معي بعض صديقاتي عن جبهن وأسرار
قلوبهن فأصغيت إلى ما يقلن كما تصغي إلى حديث خرافة . ولكنني الآن أيقنت
أن تأخره عن القلوب يذبلها كما تذبل الزهرة أن جفاهما الندى ..

فسارعت أنا أقول :

— حتى إذا ما سقاها رد إليها النظرة المسلوقة .

فابتسمت قائلة : دعنا من أمر نحن متفقان عليه الآن وكلانا مقتنع به
.. كنت أشعر بأنني غير سعيدة .. أحس كأن شيئا لا أعرفه ينقص
حياتي ، فأتناول مرافقها بالفحص فلا أرى أحدها منقوصا ، وهنا يزيد
اكتئابي لأنني لا أعرف سبب اكتئابي .

وسارت حياتي على وتيرة مملّة ، لا يرفه عني إلا ما أصطنعه من
أسباب الترفيه ، وهي مع ذلك لا تبسط من انقباضى إلا بسنطة مؤقتة
أعود بعدها إلى الحالة الأولى ..

وسكنت قليلا :

— نعم .. ثم ظهرت أنت في طريقي فجأة كما تهب النسمة المنعشة
فى سفير الهجير . وحدثنى نفسى بعد لقائنا عدة مرات أنه سيكون بيننا
أمر غير عادى ، فكنت إذا لقيتك أحسست رغبة شديدة فى ألا أتحدث
معك وبقيت أجاهد حتى انكشف المستور . إن قلبى فى أشد الحاجة إلى
مثلك . أما أنت فما كان أغناك عن مثلى !!

قلت متعجبا :

— وكيف !؟

— ١٥١ —

— إذا أردنا أن نقطع في الحديث شوطا يصل بنا إلى النهاية فلننتى
أقول إن الطريق بيننا شائك كثير العقبات ، وما كانت مسارعتى إلى
لقائك إلا لحرصى على أن أبصرك بموقفنا ، نحن كالواقفين على صخرة
تشرف على البحر ، وأخشى أن تشغلنا لذة موقفنا فتتقدم .
— يخيل إلى أن حديثك لا يشبع فضولى ، ولذلك أود أن أسألك وأن
تجيبينى بصراحة .

فأومات موافقة .

— هل تؤمنين بوجود كمال مطلق ؟

— لا .

— وأنت مع ذلك تحبين الكمال .

— نعم .

— فى الصورة التى يمكن أن يوجد عليها فى عالمنا الناقص .

— بالطبع ، وإذا طلبت الكمال المطلق كنت خيالية .

— إننا نحن الشبان نتخيل دائما لشريكة حياتنا صورة نبتدعها ثم
نسعى بكل ما نستطيع إلى العثور عليها بعد ذلك . وأعتقد أن الفتيات
يفعلن ما نفعل ، فهل فعلت ذلك ؟

— أظن .

— هذا حسن ، وهل هناك فارق كبير بين صورة رسمتها وبين حقيقة
شخصى !

— لا أعتقد أن هناك فارقا ، ولكننى مع ذلك آسفة لأنى وجدتها
وكان يسعدنى أن تبقى فى ذهنى وحده ، لأعزى النفس بأننى لم
أجدتها فى الخارج .

— تنقليننى من عجب إلى عجب .

— هذه طبيعة موقفنا .

فقلت وبوادر الغضب تلوح على وجهى :

— ١٥٢ —

— إذن فأحب أن أعرف العقبة الرئيسية ، فهل تسمحين ؟
قالت في ترفق :

— العقبة الرئيسية أننى مخطوبة .

فنظرت إليها ذاهلا وفغرت فمى ولم أتكلم ، ثم همست بعد برهة :
— إنها سخرية .. أجل سخرية من القدر ، كيف وذلك ما لم
نسمع به ؟

— إذن فأنصت إلى لتعلم الحقيقة : لى أب صاغه الله من رقة وحنان .
فقاطعتها :

— ويحرص على سعادتك .

— كل الحرص ، وأرجو أن تسمعننى .. هو لا يتردد فى أن يحقق لى
السعادة بكل ما يملك ، لكن حدثنا داخلا حل بنا فوقنا موقفا شادا
لا يزال قائما حتى هذه الساعة .

كان لى عم هو والد الأستاذ سامى ، رجل متلاف غير كاسب ،
كثير الأبناء ، أضاع ثروته التى كانت تقارب ثروة أبى فى حلبة السباق
ومجالسه وملذاته . ثم وافته المنية فى سن باكرة وخلف أسرته فى مهيب
الزواجع . ولكن أبى ذلك الرجل الرقيق الطيب أفاض عليهم من عطفه
وماله ما حفظهم من شدائد الدهر ، وتخرج سامى فى كلية الحقوق ،
واحترف المحاماة فى الإسكندرية ، ونبتت فى ذهن أبى فكرة رآها بارعة
حدثنى بها فى إحدى الليالى فقال :

— أميرة .. بنيتى : ألا ترين معى أننى رجل مدبر وأننى كثير المال
قليل الأبناء ، وأن أبناء أخى كثيرون ولا مال لهم ، وأن « سامى »
شاب لا أرى فيه ما يمنع أن يكون زوجا لك . إن وافقتنى يا ابنتى دعمنا
أسرتنا وحلنا بينها وبين أن تنهار . ويخيل لى أنه لا يسعده إلا أن تكونى
زوجه وأنه يحرص عليك حرصه على أنفاسه .

وكان ذلك من ثلاث سنوات ، فلم يسعنى إلا أن أطرق ولا أجيب

بشيء ، فاعتبرها أبى موافقة منى .

ويقولون : إن بنى القرابة الذين يدرجون فى موطن واحد ويقضون أيام الصبا وهم متدانون ، كثيرا ما تنشأ بينهم علاقة حب ، ولكن لم أشهد ذلك ، بل على العكس أرانى لا أحس نحوه بشيء إلا ما تحسه الأخت نحو أخ ليس بينها وبينه انسجام ، ومن أجل هذا حدث لى ما قصصته عليك ، رأيت كأن مرفقا من مرافق حياتى غير موجود ، وطفقت أبحث حتى عرفت ما هو ، فلما عرفته ندمت على أن عرفته .

وسكنت أميرة وأمسكت أنا عن الكلام ، وحولت بصرى عنها وأسندت جبينى على كفى . وكانت خطوات النهار قد تقدمت نحو المساء وبدأ الكثيرون من رواد الحديقة يغادرونها ، وأخذ الهدوء يخيم على المكان شيئا فشيئا . واكتسى بالحزن موقفنا الذى كنت أرجو أن يكون راقصا . وأدركت هى ما صرنا إليه فقالت قاصدة أن تخفف من جفاف الموقف :

— وهكذا صدق قارىء الكف الذى حدثنى بأنه سيقع فى حياتى حادث عظيم .. والذى أنبأنى بذلك يوم قال : حدث عظيم فى نوعه . فابتسمنا معا وفاض الأسف من بسمتنا ، ثم قلت :

— والقصة ..

— أية قصة ؟

— التى كتبناها فى سكون الليل والتى قلت أنت عنها إنها من نسج فنان ، فهل كانت فأن حياتنا ؟

وجعلت أردد ما قاله أبوها على لسان البطل : أحببت الناس فيك كما يحب العابد ربه فى العباد ، وأخفيت عنك حبي الواسع وبحبت لك بحبي المحدود » وكنت أتكلم كأننى مسحور ، أما هى فقد رفعت طرفها بعد إطرافها فرأيت دمعة تترقرق فى عينيها . ثم قالت :

— تستطيع الآن أن تعدنى أختا وصديقة ، كما عدتكم أنا أختا

- ١٥٤ -

وصديقا ، أفهمنى ؟ أحب كل منا صاحبه ولا سلطان لنا على الحب .
ولكن علينا أن نتحكم فيما لنا عليه من سلطان ، وقد تدبر الأيام حلا
لمشكلتنا العسيرة .

فلم أرد عليها بقول . فربتت كتفى وهى تقول :
- أتعدنى بذلك ؟

فقلت والطرف شاخص والقلب واجف :
- أعدك !!

وكانت الشمس مخلقة على الأفق جاهدة فى استرجاع أشعتها من بين
أغصان الحديقة وأنا أنظر إلى أميرة وكأنى لا أراها وحدها ، بل كأنه
يقف بينى وبينها رجلان : والد وخطيب .

ثم وقفنا للوداع تحت نور أحد المصابيح فى الشارع وتصافحت
أكفنا بتحية حارة ، وفارق كل منا صاحبه وقلبه يقول : ماذا عسى أن
تخبئ لنا الأيام ١٩

* * *

حل ميعاد سفر الأسرة إلى العزبة فى صيفنا الثانى ، وكان صيفا
طيب البداية ، لأن أميرة قالت لى بعد أسبوع من مقامهم هناك : إن
والدى على استعداد طيب لأن يوفيك أجرك وأن يكافئك على
إخلاصك ، ولكنه يريد أن يعلم أى الشئتين تستريح إليه ، فهو لا يمانع
فى أن يزيد مرتبك ، ولا يمانع فى أن تستأجر أرضا تزرعها ، وقد صح
ما قالت لأن الأستاذ ما لبث أن فاتحنى فى هذا الشأن واتفقنا على أن
أزرع عشرة أفدنة من بدء هذا الموسم . ولو أن هذا صادفنى فى حياتى
قبل ذلك بعام واحد لاهتز له قلبى هزة عنيفة لأننى فى أعقاب نكبة أبى
فى ماله رأيت المال فى الدنيا هو كل شئ ، أما اليوم بعد أن تحقق لنا
منه الضرورى وما يكفل الحاجة فإننى أرى فيه رأيا آخر وأحله من قلبى
منزلة ثانية ، بعد أن غير الحب نظرتى فى الوجود .

- ١٥٥ -



فرايت دمة تترق في عينيها !

كان هوانا يائسا قانعا أشبه شىء بهوى الرهبان ، أو حب العجائز ، وأصبح كل منا ينظر إلى صاحبه على أنه ظاهرة مؤقتة بدت فى جو حياته ولا تلبث أن تزول ، وتتمتع بعشرة أقرب ما تكون إلى التجرد ، كأننا روحان تخلصنا من وضر المادة وظلمة البدن . لقاء عابر وجلسات قصيرة وحديث يجرى فى مجرى واحد لا يكاد يتغير .

نتحدث دائما عن أحلامنا وسهرنا ونترأى فى النوافذ والليل هاجع ، وأطيل السهر مع الأستاذ فى قراءاته وكتابته أنهل من مورد علمه وأشيع فى نفسى الدفء بقربها منى ، ولا أدري كيف لذت لنا هذه الحياة طوال الصيف . حتى خيل إلى أن يأسنا من أن نجتمعنا كلمة الله هو سر سعادتنا بالحب ، وبقيت أسير الخيال طوال هذا الصيف ثم سافروا واتفقنا قبل سفرهم على أن نراسل .

كان وصول الرسائل إلى أمرا عاديا سهلا بطبيعة الحال ، أما وصول الرسائل إليها فقد اتفقنا على أن يكون عنوانها على الغلاف باسم الخادم العجوز ، وهى امرأة أرملة طيبة القلب تفيض عليها أميرة عطفا واسعا وتحفظ هى للأميرة ودا وحبا لا ينفدان . ويحدث أن تصل رسالة أو رسالتان فى كل شهر إلى هذه الخادم من ذويها فى الريف وتتولى أميرة قراءتها والرد عليها من أجلها إن شاءت . فلم تجد بأسا فى أن تصل رسائلى إليها باسم هذه الخادم الطباخة وما على إلا ان أكتب العنوان بخط ردىء نوعا ، وتستطيع أميرة بخاتم البريد أن تعرف الجهة التى وافت منها الرسالة . ولا خوف مطلقا أن تقع فى يد أبيها لأن الخدم هم الذين يتسلمون الرسائل .

ولم تكن المكاتبات بيننا صريحة واضحة فلإنى كنت أكتب إليها مستعيرا اسم بعض صديقاتها وكنت أشير إلى ما أريد من بعيد إشارة غامضة لا يفهمها إلا من له علاقة بالمكتوب . على أننى لم أكن كثير الكتابة وما كنت أعمد إليها إلا فى الساعات التى تضيق فيها نفسى

— ١٥٧ —

وأحس رغبة لا تدفع فى أن أحدث إليها .

والتقينا قبل سفرها فى نهاية هذا الصيف ، وكان لقاؤنا فى المكان الذى ولد فيه حبنا هنالك فى الطرف الشمالى من حديقة الفاكهة ، وعلى مقربة من خلايا النحل . وقلت لها :

— إننا فى حلم يا أميرة .. لا نعيش على الحقائق بل نغذى أنفسنا بالأوهام ، وإن سعادتنا التى نتمتع بها الآن تبدو عظيمة هائلة ، ولكنها لا تلبث أن تتضاءل إن مستها يد الزمان ولو مس خفيفا ، أجل تتضاءل إلى حد يقرب من الفناء ، كما تتضاءل الكتلة من الصوف المنفوش بين كف القابض عليها .. وكأننا لا نستطيع أن نأخذ ما نشتهيه من متع النفس إلا إذا أغمضنا أعيننا عن ماضينا ومستقبلنا ، كأن معاملتنا مع الزمن من ذلك النوع الذى يطلق عليه اسم « تحت الحساب » نأخذ ما نشاء وما لا نشاء ، لأن حسابنا أجل .

فقلت :

— أرجوك ألا تنغص على هذه اللوحة الطارئة التى ظهرت فى حياتى السقيمة . إن الله الذى حرم بعض البقاع نعمة الخصب والعمران والسكنى ، حتى أطلق عليها اسم الصحراء ، لم يحرم هذه البقاع من نفحة خصب وحفنة ماء ، وبعض نخيل وشجر ، حتى رأينا الواحات فى الصحارى . فإذا بخل الزمان على حياتنا بالخصب ، فإنه قد من عليها بالراحة .

قلت :

— عندى فكرة أظنها ستروقك ، أفضى بها إليك إن سمحت بأن أتدخل قليلا فى بعض شئونكم .

فأملت رأسها نحوى تستمع ، فقلت :

— ١٥٨ —

— إذا كان الوالد الكريم حريصا على أن يكفل لأبناء أخيه السعادة وبخاصة الأستاذ سامى ، فأظن أنه يكون أشد حرصا على أن يكفل لبناته السعادة وبخاصة الأنسة أميرة .

فقلت :

— هذا لا شك فيه ، وهو كلام وجيه .

فأردفت :

— والمال ضرورى لأولاد عمك ، ولكنك لست ضرورة للأستاذ سامى ، أو على الأصح ليس هو ضروريا لك فيما يبدو لى .
فأومات موافقة . فأتبعت :

— هناك إذن طريقة وسط ، وهى أن تكاشفى أباك بأنك لا تحبين ابن عمك وأن الوالد يستطيع أن يسوى أمور أبناء أخيه بهبة أو وصية ، وبذلك يسعد الطرفان .

ونظرت إليها متلهفا أن أسمع حكمها على اقتراحى ، فإذا بها تململق فى ذهول وتضع يدها على رأسها مدعية أن صداعا عنيفا يعمل فى رأسها ما عمله الكسارة فى جوز الهند ، ثم تفر من مجلسى ، وتلقى على التحية وهى فى الطريق .

ولم تبين قبل سفرها موقفها من اقتراحى ، ولا موقعه على قلبها إن كان رضا أو سخطا .

وأصبحت فى هذا العام كثير المشاغل ، كثير القراءة كثير الكتابة . واندجحت فى غمار الحياة وتعرفت على كثير من وجوه المديرية من حولى ، وذاع اسمى بين الأدباء الناشئين وابتدأ يحمل الحياة يخف عن كاهلى شيئا فشيئا وجرى الرخاء فى معيشة أسرته ، وكدنا ننسى بؤسنا الماضى .

وقد شهدت بنفسى فى سفر قريب ، يوم ذهبت لأرى أبوى بعد غيبة تزيد على عام ، وقابلتنى الأسرة بمحبة أسالا دموعى ، لأنهم أحاطوا بى عند مقدمى ، كما تحيط العصافير بأمرها عند دخولها العش .

وأحسست سعادة عظمتي حين رأيت في شخصي الضعيف شخصية المنقذ . وجلست أمسى تنفرس ملامحي ، فرأيت عليها آيات الهدوء . وقالت لي : أحس يا بني أنك مرتاح . فقلت : حمدا لله . قالت : لا تظن يا بني أنك فقير بل أعتقد أنك من أغنى الناس ، فأنت تنفق من كنز دعاء ورضا لا أراه ينفد ، ثم رفعت طرفها إلى السماء وجعلت تهمهم بلعاء غير مسموع .

ورجعت من هنالك راضيا ، فقد أيقنت أنني أؤدي مهمة وأنني عضو أساسي في جسد أسرتي .

وقابلتنى زينب بخير عجيب ، فقد قالت لي وهي تذرف دموعا لا أعلم حقيقة :

— سيدى ، لقد حدث في غيبتك حادث مؤسف .

فقلت منزعجا :

— خيرا يا زينب .

— خيرا يا سيدى .. هو حادث يسير تافه ، لكنه بالنسبة إلى يعتبر

كبيرا .

— أسرعى وقولى ما الذى حدث .

فسكنت برهة ، تحسست فيها وجهها وعدلت المنديل على رأسها ، ثم نفضت ثيابها كما تنفضها من غبار عالق ، وقالت بعد ذلك :

— حامد ..

— ماذا جرى لحامد ؟

— إنه غارلنى .

فانفجرت ضاحكا وقلت :

— وهذا حادث مؤسف ؟ إذن فأين الحوادث اللذيذة ؟

فرايتها تنصرف خارجة وهى تبكى أو تتباكى ، فأمسكت بذراعها وحجزتها عن الخروج ، وأنا مسترسل فى الضحك والحديث ، فإذا بها تضحك .

— ١٦٠ —

فقلت لها :

— اجلسى فإننى أريد أن أتفاهم معك فى أمر .

وما أن فعلت حتى قلت لها :

— لا تراعى إذا حدثتك بأن لكل فتى وفتاة أملا يعتز به وشخصا يحسن إليه .

ثم ضحكت قائلا :

— وأنت تعلمين أننى شخصا أحب . فلا ضير عليك إذن فى أن تحبى ، ولا ضير على حامد فى أن يحب ، وحب حامد لزبيب أمر مفروغ منه ، ولكن ما الذى يمنعك من أن تفسحى صدرك له ؟
— كنت أود أن أتزوج شخصا سواه .

— وأين هو ؟

— لا أعلم . كان فى عزبة من العزب المجاورة ، ثم التحق بخدمة أحد الكبراء فى القاهرة وكان آخر عهدي به منذ عام ، ولما تسقطت أخباره قال لى أناس : إنه تزوج ، وقال لى آخرون : إنه لا يزال عازبا حتى الآن .

— أكنت تحبينه ؟

فضحكت مطرقة ولم تجب . فقلت :

— إنك سخية القلب .

فلم تفهم ما أعنى ، ثم سألتها :

— ولكن .. أتكرهين حامدا .

— ولا أحبه .

— اتفقنا . إذن فمن المحتمل جدا أن تنشأ بينكما بعد الزواج رابطة حب عنيف . اسمعى يا زبيب : يخيل لى أن بقائى فى هذه الأرض غير طويل وأنت وحامد من الذين أخلصوا لى وأحبونى ، ويسعدنى ويرضينى أن أراكما زوجين . إنه رجل . وحكمى عليه وأنا رجل مثله أصدق من

حكمتك عليه وأنت فتاة لا تحسنين تقدير المصير . أجيبينى : أنت موافقة ؟
 - لا أستطيع أن أعصيك .
 - لا .. ليس الأمر بمجرد طاعة ، ولكن أنت مرتاحة ؟
 فقرأت فى عينيها الرضا وعلى قسماط وجهها القبول .
 وفى مساء ذلك اليوم أبلغت حامدا ما فعلته من أجله ، فمال يقبل
 يدي وجيبينى ، وهو يقول :
 - كنت أحبها يا سيدى ولكنها كانت غير راضية ، وقد عرضت
 عليها الزواج مرة بعد مرة . فما كان منها . إلا أن رفضت ، وكان رفضها
 فى بادئ الأمر مطمعا أقرب شىء إلى القبول ، ثم تغيرت بعد ذلك
 لسبب لا أعلمه . فما كانت تطيق أن تلقانى فى طريق ، ثم جاء يوم
 تحققت أمنيته على يديك .
 وما مضى شهران حتى كانت الأغاريد ودقات الدفوف تتجاوب فى
 سكون الليل بين مساكن الفلاحين وتحملها إلى نسمات الخريف حلوة
 مطربة ، وأنا مشرف من إحدى النوافذ .
 وكنت فى هذه الليلة فى نشوة من السعادة لا تقل عن نشوة حامد
 نفسه ، لأن قلبى المجروح استطاع أن يدرك مدى جراح القلوب .

١٤

ما كان أسعدهما من زوجين بعد زفافهما !! رأيت ذلك بنفسى
وحدثنى به حامد فأحسست لذلك انقباضا على الرغم من أننى أحب
للعروسين الهناءة . وكان انقباضى راجعا إلى أننى توهمت أن هذا موقف
قد يتكرر . ففرضت أن أميرة صارحت أبأها مجبها ، وأن هذا الرجل
الهادئ العطوف الوديع ، قابل اعتراف فتاته بابتسامة الواصل من حل
المشكلة ، ثم تضررت حديثا بينهما فيقول الأب فيه لابتته :

— أتجبن ١٩ ! ليس فى الحب الشريف عار ، ولكن أتعتقدن يا بنيتى
أنه من الضرورى أن تبنى البيوت على الحب ١٩ لا . ليس ذلك ضروريا .
وكم من بيوت تقوضت أركانها مع أن الحب كان أول لبنة فى بنائها .
وكم من زوجين نشأت بينهما بعد الزواج علاقة لا يستطيع الثوت أن
يمحو آثارها من صفحات القلوب .

ثم تصور أن أميرة شخصت ببصرها وأعملت ذهنها لترى مدى
صحة هذا القول فى عالم الواقع ، فما لبثت أن وضعت يدها على حقيقة
زينب وحامد .

وهنا تنهدت . ثم قلت فى نفسى ما سبق أن قلته للحبيبة :
لا تدبير مع المقادير !! آه .. وماذا يكون لو أننى فقدتها ؟ .. كثير من
الناس شغلهم حب عن حب وألهاهم جديد عن قديم .. بكوا ثم مسحت
يد الزمان دموعهم ، ثم خلصهم النسيان من سكير العذاب .
وعدت فابتسمت ساخرا من نفسى ، حين تحولت فكرتى إلى مجرى
آخر :

رأيت السعادة العظمى هى فى أن تجمع المصادفات بين روحين خلقتا
من معدن واحد وقدر لهما يوم خلقهما أن تزاولا فى الحياة مهمة

مشتركة كما يصنع الصانعون شقى المقص ، وهم مقدرون أنهما إذا اجتمعا أديا على أتم وجه غرضا صنعا من أجله . ومن الجائز بعد ذلك أن تفرق حادثة ما بين شقى المقص ، فيجتهد الناس فى أن ينقبوا لكل شق عن قرين ، ولكنهم قلما يجدونه إذا ألغينا من حسابنا مشقة البحث والتنقيب .

وهذا هو الصيف الثالث أو الفصل الرئيسى من فصول خيأتى . بدأت الحوادث فيه تجرى سريعة رعناء كما تجرى الأنهار بفيضان مفاجئ . فقد كنت فى منزل الأستاذ الليلة نسم وتحدث فى أمور خاصة وعامة ، وفى جو تسوده علاقة قاربت أن تكون قديمة . فخنفت فيها الجملات واختفت منها الرسميات ، كنت هناك حين طرق باب الشقة زائر لا أدرى لم أنكرت طريقته ... أحسست أن وراءه أمرا غير عادى فشاخ فى نفسى شىء من الظلمة ، وعرانى انقباض باكر قبل أن يلج الداخل علينا باب الحجرة التى كنا جلوسا فيها . وقبل أن أسمع الأستاذ يهتف بجنان : ولدى سامى ١٩ وعلى حين رأيت أميرة - وكنت قد وجهت إليها كل انتباهى - ترتجف أهدابها الطوال كعادتها إذا أخرجت أو فوجئت ، ثم سمعتها تقول بعد فترة صمت : أهلا بالأستاذ . كنت لا أزال واقفا فى انتظار أن يجيبى كل منا صاحبه ، وخيل إلى أن وقفتى طالت كثيرا ، لأن الأستاذ جعل يغمر جبين ابن أخيه بقبلاته ، وما إن فرغ حتى تحول الضيف إلى الأنسة وجعل يسلم بكلتا يديه ؟ فهل تتصور هذا ؟ صافحته أميرة فأبقى يمينها فى يمينه ثم عمد أن يضع يسراه على ظاهر كفها التى فى كفه حتى رأيت أكفا ثلاثا تهتز بالسلاسل . وكنت أنقل بصرى الزائغ من واحد إلى واحد وأراقب نظرات الأستاذ ، فأراها تفيض بالفرح والمحبة ، ولا أكتمك أننى نقيمت عليه فى هذه اللحظة ... لا تلمنى ، فإنه منطق القلب !!

وأخيرا ، وبعد انتظار خلعت فيه أن الزائر لا يرانى أو أنه يتجاهلنى ،

أقبل فسلم فى صمت وكبر ثم جلس بين عمه وابنة عمه ، وجلست أنا حيث كنت جالسا .

كان الشيخ يقول :

— فرصة سعيدة يا بنى ، ولكن أما كان من الخير أن ترسل إلينا قبل مجيئك حتى نستطيع أن نوفر لك الراحة فى الطريق بين المحط والعزبة ؟
فقال :

— ليست مشقة ... وربما كنت قد فعلت ذلك لأجعلها مفاجأة سارة
ثم نظر إلى أميرة وهو يتسم ويسألها بعينه أن تعلق على فكرته
فقالت :

— ولكن حرصنا على راحتك يفوق حرصنا على التمتع بالمفاجآت
ولم تكن قسماتها تشارك لسانها فيما يعبر عنه ولكن « ساميا » باغتينا
بضحكة عالية أسند معها رأسه إلى ظهر الكرسي الذى يجلس عليه ثم
قال :

— أشكر لك هذا الشعور يا أختى ... وإنها لفنة جميلة .

ولم يدع الموقف لى فرصة واحدة أستطيع أن أستأذن معها فى
الانصراف ، فقد كنت جالسا أتململ وأحسست أننى فى هذا المكان
شئ لا لزوم له الآن . وكان الشيخ متواصل الحديث مع سامى ، كثير
السؤال عن أفراد الأسرة . أما « أميرة » فقد كانت مرتبكة ، دائبة
التلفت تحاول جاهدة ألا تلتقى نظراتها بنظراتى ، وتقرر على أرض الغرفة
المفروشة طرقات متواصلة مضطربة .

ثم فتر الحديث بين الثلاثة ، فقامت من مجلسى واستأذنت فى تأدب ،
ولكن « أميرة » سارعت فقالت قبل انصرافى
— لا شك أن الحديث قد صرف والدى عن أن يقدم كلا منكما
للآخر .

وأشارت بيدها وهى تقول :

- الأستاذ سامى بك المحامى ، والأستاذ عبد العزيز ناظر العزبة .
 فأوما ضيفهم فى كبرياء وعظمة ، ولكن أميرة أردفت :
 - ولا أنسى أن أقول شيئا مهما : هو أن الأستاذ أديب أعجب به
 أبى .
 وقبل أن أسمع ما هم الأستاذ أن يتكلم به ، أو أن أرى مدى اللمحة
 التى ظهرت على وجه سامى ، أحنيت رأسى بالتحية ووليتهم ظهري
 للخروج .
 ثم عرفت مع الأيام من يكون هذا الأستاذ سامى ؟ فهل تحب أن
 تعرفه ؟

طراز من الشباب ناعم مدهنون ، حملته الحياة على أكف سخية
 فهدته وغنت له . اسمه فى سجل المواليد « سامى » ويدعوه أصدقاؤه
 « سامى بك » وقد يلقبونه فى مكتبه باسم « الأستاذ » ويدللونه فى
 البيت باسم « سوسو » فأت ترى الآن أربعة أسماء لشخص واحد ، قد
 توحى إليك بأنه من الجائز أن يكون لصاحبها أربع شخصيات ، وقد
 يكون فى الرجال خلقا فريدا ، ولكنه مع الأسف ليست له نصف
 شخصية .

لا تقل إنه غريبى ، لأننى سأسرد عليك بحمل خلاله :
 - ألد الأوقات التى يقضيها فى أربع وعشرين ساعة ، وقت يمضيه عند
 الحلاق أو فى الحمام أو واقفا أمام واجهة أحد المحال ليرى أكثر الألوان
 انسجاما على ذوى الوجود البيض ، وهو أبيض الوجه . يحبه
 « التزى » ويكرهه . . يحبه لأنه كثير الملابس ، ويكرهه لأنه يعيد إليه
 الحلة ليصلحها عشر مرات . يجيد التحدث عن « الأفلام » ويحفظ أسماء
 الممثلات خاصة ، حتى لقد نظمت إحدى المجلات الأسبوعية مسابقة
 عويصة الموضوع ، فكان الفائز فيها . وكانت هذه المسابقة هى أن
 رسمت المجلة عشرة أزواج من عيون الممثلات بين غريبات ومصريات ،

وكتبت في أعلى الصفحة : « أتستطيع أن تعرفهن من عيونهن ؟ »
وكان الأستاذ سامي هو الذي عرفهن جميعا بما له من عبقرية .
يمضغ الكلمة مرة أو مرتين قبل أن يتفضل بها عليك فيخرجها من
فمه ثم يرسلها من بين شفتين تأخذ عليهما وضعا آخر عند مخرج
الكلمة ، وحين تحدث إليه ، تجدد نفسك غير مشغول بما يقول ،
ولو أنك تكون ولا شك ناظرا إلى فمه باهتمام شديد . ثم يفرغ الأستاذ
من حديثه وتراجع نفسك فتسألها عما كانت تهتم به ، فتجيبك بأن
عنايته بأسنانه الناصعة البراقة هي التي استأثرت باهتمامك طول
حديثه . ثم لا تلبث أن تقول : لن يتحقق مثل هذا البياض لأسنان هذا
الشاب إلا إذا كان ينقعها في منظف طول الليل .

يحرك عنقه بتقدير لأنه يخاف على بنية قميصه المنشأة أن تكسر
وعلى عقد رباط العنق أن تتحول . يؤذيه البرد بسرعة ، وتلفحه الشمس
إن رآته كأنما تفتحت عنه وردة !!

لسان « مختلط » عام وهو لا يكاد يحسن لغته ، ولست أقصد أنه
يجيد معظم اللغات الحية ، وإنما أقصد أنه إذا تكلم في شأن ما ، بلغتنا
الفصحى أو الدارجة ، وقف فجأة في أثناء الكلام كمن يعالج معنى
لا يجد له لفظا ، يقلب كفه في حيرة ، ويقطب جبينه في استغراق ،
ويطمح ببصره في شroud ، ثم يزلزل الجبل فيقذف حصاة ، حين يلجأ
إلى التعبير عن المعنى الذي ظنه عميقا ولم يجد في لغتنا لفظا ، بكلمة
فرنسية أو إنجليزية في عاميتنا وفصحانا ألف مرادف لمعناها .

وهو بعد ذلك غير مبرز في ميدانه ، عام عادي ، ولن أقول إنه أقل
من العادي ، حتى لا تهمنى . نزع سريع الغضب ، مندفع لا يتدبر
العواقب .

وأن الله الذي يلقي في قلوب الناس حبا من أول نظرة . قد ألقى في
قلبي وقلبه مقنا من أول نظرة كذلك ، لم تعجبني خلة فيه لأننى رأيت

لا يمنح الشيء ما يستحقه من اهتمام . فهو يبالغ فى العناية بهندامه إلى حد قد لا تصبر عليه الفتيات ، ويتحدث فى أمور لا تعتبر من الأهمية بحيث تشغل ذهن السواد الأعظم من الناس . حتى إذا ما دفعت به ظروف إلى أحد ميادين الفكر التى يجدر بكل مثقف أن يتكلم فيها ، ألفيته فج الأفكار ، ضعيف العبارة ، سقيم الحجة ، وهو نبات متسلق لا يتأتى له أن ينهض إلا معتمدا على سياج ، أو متشبثا بجذع شجرة ، من أجل ذلك يملق عمه ثملقا مكشوبا يستطيع أن يسميه الأستاذ توددا وتحببا واعتزافا بالجميل ، أما أنا فلا أعتقد فيه إلا أنه متملق .

وأحسست فى الصباح التالى لمقام الأستاذ سامى أن ذلك الريف الساكن وهذا الكون الوداع تدرّب فى أرجائه الطبول ، وأن أهل شوارع القاهرة بالمركبات وقطارات الترام وأصوات البائعين والشارين ، أهدأ بكثير من عزبة الأستاذ فريد . لكنه لم يحدث بينى وبينه أكثر من أن نلتقى فيحى كل منا صاحبه تحية عادية ، أتعهد فيها أن أكون رسميا ويعتمد هو أن يكون عظيمًا ، ثم تختلف بنا الطريق .

ويمر أسبوع تنهى إلى زينب بعد انقضائه أن الأسرة ستحتفل بعيد ميلاد سامى بعد أيام ، وأن بطايات الدعوة كتبت إلى كثير من الأقارب ، وأن الأنيسة أميرة قبالت وهى مقطبة : ستكون « آمال » ضمن الذين يحلون ضيوفا علينا بمناسبة عيد ميلاده .

وتعود آمال إلى العزبة مرة أخرى ، وإذا بها تريد أن تحسرنى على أن أمثل معها المسرحية القديمة وأنا فى هذه الفترة ضائق بنفسي ، أقاسى من الغيرة نارا تكاد تحرق أوصالى ، وقد كنت فى زورتها الماضية على استعداد لأن أمثل ما دامت مواقف التمثيل ستكون سببا فى أن أحظى بقلب أميرة .

وعادت إلى الحديث عن زهرة « البانسيه » التى لم تكن فى حقل الأزهار فى هذا الفصل . اعترضت طريقي ذات يوم وأنا راجع قبيل

المساء على المشى الذى اختارته لتزهتها بين الحديقة والغابة ، وتبادلنا التحية فقالت لى واحدى يديها على خصرها ويدها الأخرى ترسل بشعرها إلى الوراء :

- لا تنس فى الربيع المقبل يا حضرة الناظر أن تنزع لنا من زهرة « البانسيه » قدرا كبيرا .

فقلت وأنا واقف تجاهها أنظر إليها فى شرود وعجب :

- بمشيئة الله ... سأحقق لك هذه الرغبة

- وسأزورك فى الربيع .

- ذلك يشرفنا ؟

- ألا زلت من الذين يحبون هذه الزهرة ؟

- أى زهرة ؟

- البانسيه !

- أفكر فى شيء لم ينجح موسمته بعد ١٩

- لكن الذين يشتغلون بالأشياء شغلا حقيقيا يفكرون فيها دائما

ولا ينسونها .

فابتسمت وقلت وأنا ألقى عليها نظرة مؤسفة :

- مغفرة إن أنسانى أمر أمرا ، فإننى كثير المشاغل ، لا يستطيع شىء

واحد أن يستأثر بكل تفكيرى .

فقالت وكأنها تسخر :

- زراعى .. وأديب .. وممثل .

وكانت ترسل بين كل كلمة وأخرى من كلماتها الثلاث ضحكة

قصيرة ، فأحسست أننى أهنت وتحركت فى نفسى كل عقدها فتراجعت

خطاى بعد أن كنت هاما بالمسير ، وقلت لها بصوت متهدج ونظراتنا

تتصافح كما تتصافح السيوف :

- هل تسمح الآنسة بأن توضح لى بعض معان غامضة فى حديثها ١٩

أما أنتى زراعى فذلك مفهوم ..

فإذا بها تسارع بحجية :

— وأما أنك كأديب ، فلأن الأنسة أميرة أطلعتنى على بعض ما كتبت ، وأما أنك ممثل ، فلأنك تلبس فى كل فصل ثوبا !! فسرت كاظما غيظى لأننى عللت هذا الهجوم بإحدى علتين : فإما أن تكون آمال مدفوعة بنفسها إلى الانتقام منى لأننى قطعت من ناحيتى شوطا بدأناه معا فى الربيع الماضى ، وإما أن تكون مدفوعة بدافع آخر خارج عن نفسها هى . ومن الخير فى كلتا الحالتين ألا ألقى على نارها حطبا .

ما كنت ألقى أميرة إلا مصادفة ، وكنت أرى دائما على وجهها الشرود وفى عينيها عدم الرضا ، ولم يدعنى الشيخ فى هذه المدة كلها إلا مرة واحدة إلى العمل معه ، ولم أذهب بلا دعوة بطبيعة الحال ، وما كنت أراه إلا وهو فى طريقه إلى الغابة ذاهبا أو راجعا . وقلما رأيت فى صحبته كتباً وتخليته لفرط هزاله كأنه فى آخريات حياته ، وكأن المجد الذى حققه لنفسه هذا العام بكتاب أخرجه فى عالم الأدب هو خاتمة مطافه ، وكأنه لإكليل زهر صنعه بيده قبل موته ليضعه الأحياء فيما بعد على قبره .

وهكذا تناهيتنى عوامل نفسية مظلمة أنكرت معها مقامى الذى كان سعيها فيما مضى . حتى كنت أراقب نافذة أميرة طول الليل فإذا ما كانت فيها جالسة إلى معزفها أو مستقبلة النسيم أمام شباكها ، ودخل سامى أظلمت عينائى ، وتراقصت أمامهما الأغصان فى الساحة واضطربت المراتب ، ثم تصور الغيرة لى أن « ساميا » يميل عليها وهى جالسة فيقبلها ، وأتخيل أنها مستسلمة راضية ، فأفرك عيني بكفى وأدمن النظر بحرص ولهفة ، فلا أرى إلا أنه يغدو أو يروح أو أنها تخرج من الحجرة .

(بعد الغروب)

وساعدتني هذه المحنة على أن أكون لشخصية الأستاذ فريد صورة واضحة :

رأيت من الرجال ذوى الشخصية المزدوجة ، وكثير من الناس أشباه له . هو فى عالم الأدب جرىء صريح خلال مشكلات ، أما فى عالمه الخاص ، فهو متردد ، يتناول القضايا بعاطفته قبل عقله ، ويستجيب لكل رأى ، أعنى أنه لا يوازن بين الآراء جملة واحدة ، ثم يتخير منها أصوبها وأحسنها ، ولكنه يجب فى كل ناحية الحسن فيه ، كالشباب الذى يقف على أبواب الزواج مترددا بين محاسن خمس عرفهن ، فإذا فرضنا أن أميرة عرضت عليه مشكلة قلبها فى هذه الأيام فإنه ولا شك سيميل إلى ألا يحطم قلب فتاته ، ومع ذلك سيميل إلى ألا يقوض آمال ابن أخيه ، وسيجنح مع هذين إلى ألا يفجع شابا مثلى فى أحلامه ما دام الله قد من عليه بقلب طاهر كقلب أميرة ، بصرف النظر عن أننى فقير ، وأننى ناظر عزبته .

ويقلب الأستاذ وجوه الرأى غير موازن بين المزايا والعيوب ، وتطول فترة التفكير على هذا النحو حتى تتمخض المشكلة نفسها عن حل لها كما خلقت حواء من ضلع آدم . وهنا يسلم الشيخ بالأمر الواقع .

وضاقت النفس ذات يوم لأننى أرى أميرة تسبح فى نطاقى وعلى القرب منى ولا أستطيع أن أتحدث إليها . ولم تعد زينب فى هذه الأيام تحملى إلى من أنبائها شيئا ، لأن أميرة أصبحت دائمة الصمت حريصة على الكتمان حتى تركتنى فى موقف حائر لا أدرى معه ماذا تنويه فى أمر مستقبلنا . ضاقت النفس فرأيتنى مندفعاً من الحقول أسعى نحو الحديقة ووقفت هناك أرقب انحدار الشمس نحو مغربها ، وأستمع إلى طنين النحل وهى ترف نحو خلاياها فى هذا المكان الذى ولد فيه جى . وما طال موقفى حتى سمعت وقع أقدام فى طريقها إلى ، ونظرت فإذا

الأستاذ سامى قادم يمشى بين أميرة وآمال ، وكنا كثيرا ما نلتقى ولكن قلبي فى هذه المرة حدثنى أن أمرا سيقع . وفتشت عن شخصيتى الحادة التى كنت فيما مضى ألقى بها من صارت اليوم شغل قلبى ، فتشت عنها حتى وجدتها ، ووقفت مرهف الحواس متأهب الخاطر كأنى أتأهب للمبارزة . ووقع بصرى أول ما وقع على وجه سامى ، فأيقنت أننى أمقته ، ثم نظرت إلى آمال فخيّل إلى أنها تمقتنى ، أما أميرة فلإنها كانت حائلة اللون كأنما هى على أبواب مرض . وكنت فى هذه اللحظة على استعداد كامل لأن أوّل أدنى الكلمات إلى الحسنى بأسوأ تأويل ، فتخيّلت أن ساميا نظر إلى هندامى ثم ابتسم قبل أن يلقي إلى التحية ، وأن هذا الأنيق لا تعجبه ثياب رجل يدير بها شئون مزرعة ، ثم قال بعد ذلك :

— أهذه هى خلايا النحل يا أميرة ؟ هذه أول مرة أرى فيها خلايانا . وقد كنت متصورا أنها من الكثرة بحيث تشغل نصف أرض الحديقة . (ثم ضحك وقال) ومن الغريب أن كل خلية دهنت بلون ، حتى ظهر مجموعها شيئا يدعو إلى الضحك .. ولكن من الجائز أن تكونوا قد راعيتكم السكان فى اختيار الألوان .

فأخذت آمال نوبة من الضحك لا تستطيع دفعها ، أما هو فإنه سره أن أعجبها حديثه ، وكنت أنا جامدا فى مكانى أستغفر الله الذى يحشو بعض الجماجم بالتراب وأصحابها أحياء . ولم تنس أميرة ببنت شفة ، على حين استطرد الأستاذ فقال :

— معذرة يا ..

فأكملت ندائه قائلا :

— يا ناظر العزبة .

— لست أقصد ، وإنما حاولت أن أذكر اسمك الذى شرفتنى به ابنة عمى ليلة التقينا ..

فلم أرد عليه ، فواصل حديثه :

— ١٧٢ —

— أريد أن أقول : ربما كان نقدي هذا مردودا لاعتبارات فنية ، فهل لديك شيء من هذا القبيل ؟
 — إن الأنسة آمال تعرف الكثير عن تربية النحل ، وهي موافقة على وجهة نظرك ، ولو أنها رأت بها ما يجب الرد عليه لتطوعت مختارة .
 فابتسمت أميرة وآمال ، وقال هو من جديد :
 — ذلك حسن ، ولكنني أحب أن أسأل المختصين ، أم تراك غير مكلف أن ترد على ؟
 — ليس في الأمر ما يغضب يا أستاذ سامي ، ولا تنس مهمتك في الحياة كمحام يعرف حدود الحريات ويحترمها ، ويعلم أن المحاكم تستعين بالخبراء في مشكلات القضايا .
 قال بكرياء :
 — هل ترى في موقفى ما يدعو إلى الاعتذار ؟ إنك تتناول الأمور في المزرعة كما يتناولها الأدباء لا الزراعيون .
 — أعود مرة أخرى فأذكرك بالحريات .
 — أنت ناظر مدلل ، وهذه خلاصة الحديث .
 ثم غادر موقفه في حلة ما كنت أتوقعها ، وتبعته آمال ثم سارت وراءهما أميرة بعد أن ألقت إلى نظرة عتاب ، كأنها ما كانت تود أن يقع بيننا مثل هذا . وكم وددت في هذه اللحظة أن أتبعهم من فورى فأبطش أول كل شيء بأميرة ، بهذه النسي أصبحت أصل متاعبي ، ثم أتناول الأستاذ ساميا بما هو أهل له ، فأفهمه أنه في الوجود لا يزيد على أن يكون شجرة لبلاب ، إن هوى ركنها الذى تعتمد عليه تطرحت على الأرض إلى غير قيام . أما أنا فقد شققت طريقى بالفساس في صخرة !! وتمنيت بعد ذلك أن أقول للأستاذ فريد :
 — أيها الرجل ... أيها لأديب ... إن كنت على علم بموقفى فأنت منافق حين تستبكي العيون وتستثير عطف القلوب في مأسى يلفقها

خيالك ويوشيهها بيانك ... وما كان أجدرك أن ترثي لقلبين رأيا أنه
لا حياة لأحدهما وحده لكنك وضعت بينهما سيفا إن موقفك من
الناس ما دمت كذلك لأشبه شيء بموقف النادبات أو المهرجين . هؤلاء
يثرن الدموع ، وهؤلاء يثيرون الضحك وهم بمعزل عن الألم واللذة جميعا
كأنهم آلة صماء .

وما أن فرغت من حديث نفسي حتى أفقت على دمعة حرة تجرى
على خدي ، لأنني ذكرت الرغبة !

وانقضى أسبوعان ثقيلان ، سافر الضيوف فيهما تباعا ، وبدا الريف
يسترد هدوئه ، وأخذت العزبة مكانها الأول من الأرض ، بعد سفر
الأستاذ سامي ، لأنني كنت خلقتها تحولت عن مكانها ، ولم يعد في
منزل الأستاذ فريد أحد إلا أسرته ، وكان قلبي يتنزي للقاء أميرة ...
كنت أريد أن أراها فأحدثها بما يطنني غيظ نفسي ... أريد أن أقول لها
ما أشتهى ثم أقبل بعد ذلك كل شيء ، ولو حزمت متاعى وخرجت
بالليل . فإن في الأرض متحولا للكريم .

والتقينا بين دوح الغابة ، ونخف منذ الآن تحرجي الذي كنت أحسه
حين ألقاها ، وكانت غاضبة من بصرها بطول مجلسنا كأنها أتت بجريمة ،
قلت لها في أول الحديث :

— أرايت ما لقيته من ابن عمك ؟ !

— ربما خمنت السبب .

— لا أعرف سببا إلا أن كلا منا قد استقل ظل صاحبه ، أعنى أننا
تباغضنا بعد النظرة الأولى .

— ربما كان هناك عامل خفي لا أعلمه ، ولكن الذي أثق في وجوده

هو أن « آمال » قد تناولتك عنده بشيء يثير الحفيظة ، وأنه لامني على
طريقة تقديمك إليه ، فزعم أنني أبديت اهتماما بك يزيد على المألوف
وعلى كل حال أرجو ألا يمزك أن الأمور تسير على غير ما يرام .

— هل حدثت والدك بشيء ؟

— لم أفعل بعد .

— إذن فأنت غير مخلصه في أن تنشدي للمشكلة حلا ، سمعت
وقرأت أن كثيرات من الفتيات يلقي الحب في قلوبهن نورا يبدن به
ظلمة المشاكل ، ولكنني أراك على النقيض حائرة مضطربة ، كمن يرى
الغريق في الماء فلا يسبح ولا يستغيث من أجله ، قول أي شيء فإنني
ضجرت من هذا الجمود . قول : لا تعترض سبيلي ، أو قول : غب
سريعا عن آفاقي وارحل إلى مكان آخر ، وإن شئت قول : إنني
أكرهك ، ولكن بغير الطريقة التي سقتها بها يوم أشهدنا الكون على
حبنا المضطهد . إن كنت غير قادرة على التضحية فأنا قادر عليها ،
وأستطيع أن أحتمل في سبيل سعادتك ما تقترحين وما لا تقترحين ،
ولكنني حتى الآن أرى أن سعادتك لن تكون إلا في ظلال .

فرفعت وجهها بعد إطراقها ، فرأيت قطرات الدمع عالقة بأهدابها
الطوال ورأيتهما مرتجفة الشفة ، فاختلج قلبي بالحنان وأدركت أنها في
حيرة حقه . فقلت :

— يخيّل إلى أنه لا مناص من أن نتعامل مع الزمن تحت الحساب « فترة
أخرى .

فقلت :

— نعم .

ثم شخص بصرنا برهة استمعنا فيها إلى حفيف الأغصان في الغاية ،
وكأنما هي توقع لحنا حزينا وقال كل منا لصاحبه بغير كلام : ما أظن
أن القدر سيحول الآن سيفا شهره بيننا ، فهل توافقني ؟ « ثم لا أدري
كيف التقت شفتانا !

وانقضت أيام اعتادت الأسرة أن تقيمها فى العزبة كل صيف ،
وختمت أميرة ليالينا هناك بأن قالت لى :

— أعترف لك يا صديقى بأن كثيرا من التردد يشوب طبعى ، ولكن
يجب أن تصبر ، معتقدا أنني ساهرة على قضية قلبى ، وأن الله الذى
يقضى فى كل يوم بحل آلاف الآلاف من المشكلات لن يضمن على
مشكلتنا بحل .

وهكذا طفرت فى نفسها تلك اللمحة التصوفية التى تعتاد النفوس
إن ألح عليها الكرب أو أسأماها النعيم ، فلم يسعنى إلا أن أبتسم
مسلمًا . ورحلوا . وأقمت أعالج عيشا لا طعم له تغلب فيه الآلام عن
الآمال .

ثم سافرت إلى القاهرة بعد ذلك بشهر . وقصدت إلى الضاحية حيث
يقيمون ، ولم يكن فى حديقة البيت ولا بالقرب من الباب أحد يرانى ،
وهممت أن أضغط الجرس فإذا بيدي تتراجع ، وإذا بى أقلب طرفى فى
نواحي المنزل ثم أتلقت وأسير . وما أن بلغت عيني المخط ووقفت أرقب
القطار الذى سيقلى إلى العاصمة ، حتى استحسنت هذا الحاضر ، فقد
وثب فى ذهني أنه من الجائز أن تكون « أميرة » قد كاشفت أباها بأمر
قلبيها ، وأن يكون الرجل قد أسخطه ذلك على ، وماذا يحدث
لو التقينا ؟ سيكون لقاء لا أرضيه ، فلأبقى إذن حيث أنا حتى يقضى
الله فى أمرنا كما يشاء .

ولم يظلنى هذا المساء إلا وأنا فى منزل صديقى صالح . كنت
مستلقيا على فراشه قبل أن ييجئ وأنا أساور نفسى لأقنعها بعرض المشكلة
عليه عرضا صريحا لعلى أحظى منه برأى سديد . وقد سبق أن كان
صاحب الفضل أيام كنا فى شوطنا الأول .

ودخل صديقى وكان لقاؤنا كما تعرف . وأخذنا نقطع الليل
باستعادة الذكريات وتخيل المستقبل ، ولكنه لم ينس أن يحدثنى عن

حبه . قال عنه :

— لقد أدركت يا صديقى « بعد كثير من التجارب » أن هنالك
لونا من الحب لا ينال العاشقون منه إلا أن يستردوا قلوبهم من أيدي من
أحبوا وهى تالفة الشغاف مخضلة بالدم ، وأصحاب هذه القلوب هم
الذين يلجأون إلى الأديرة فى أعريات الحب فيضمّدون جراحهم
بالمسوح ، ويحيلون النعمة التى تنهش قلوبهم إلى رحمة وشفقة
واستغفار ، وديننا ليس فيه رهبانية ولكن الذى ينال منه الحب هذا المنال
ينقلب دون أن يشعر إلى راهب ، ولكن فى غير دير . يسعى بين الناس
بعيدا عن الناس ويكره خلق الله لكنه يستغفر لهم .
ودب ظلام نفسه إلى نفسى حتى خلت وأنا إلى جانبه أنسى لاقيت
هذه النهاية .

— استمع إلى يا صالح .. إننى أحب ، وقد حفلت حياة حبي بجمادات
منها الغامض ومنها الواضح .

ثم قصصت عليه قصتى ، فأمال إلى رأسه وهو يتسم قائلا لى :
— أحسنت ... تحاول دائما أن تنتفع بالقاموس قبل أن تبلى نسخته
الوحيدة ، عبد العزيز : أنت شجاع ؟
— لا ... وأقسم .

فضحك طويلا ثم قال :

— ولكنى أريدك شجاعا كما كنت فى المرة الأولى .
— نسيت يا صديقى ما فرضته على ، لقد أردتني مثلا فحسب ، ولم
تحملنى على أن أتشجع .
— الموقفان متقاربان . غير أن الأخير يحتاج إلى جهد أشق ، فهل
لك أن تسمع اقتراحى ؟

المسألة مسألة حياة أو موت ، أقصد أنك إذا فقدتها فربما كان فى
ذلك فقد نفسك . ولا أعنى أنك ستموت ، ولكنى أعنى أنك

- ١٧٧ -

ستدغن وأنت حى .

- أفرعتنى يا صالح !

- ذلك ضرورى لشحد همتك ، ولو لم تكن هذه الفتاة مترددة لأقدمت على عمل ما ، لفرت معك .. لصارحت أباهما .. لهددت بالانتحار .. لعملت أى شىء ، وهى تحبك ولا شك ، ولكن عجز الرأى دائما مضیعة للفرصة ، وأنت الآن الطرف الذى یجب علیه أن يعمل .

- أنتما تلتقيان طبعاً ...

- نعم نلتقى .

فتنهذ ، ونظرت إليه فرأيت وجهه تحت نور المصباح قد تراقصت عليه لمحات من الریة أنكرت رؤيتها . فأدرکت من فورى أنه سیتكلم بما لا یرضاه ضمیرى ... ودعك من الضمیر ، أقسم أن قلبى كذلك ینكره . فصرخت فى وجهه ووضعت كفى على فمه واستحلفتة ألا یتكلم . فإذا به یقوم إلى المصباح فیطفئه ویصعد إلى الفراش وهو یقول :

- ثم یا صدیقى طویلاً قبل لیالى السهر الطویل .

وعدت إلى العزبة فى صباح الیوم التالى لأستأنف أيام عیش ثقیل .

حمل الیرید الیوم خطاباً عرفت خطها على غلافه ، ففضضته وقرأت عباراته المختصرة :

- أخی . ولن أدعوك بغير ذلك !!

تستطیع أن تحضر إلینا فإذا ما لقیتنا ادعییت أنك جئت مصادفة . وعسى أن نترأى بخیر ..

هبط قلبى نحو أحشائى واستنكرت هذا الغموض . وركبت أول قطار إلى القاهرة فكنت عصر الیوم على باب مسكن الأستاذ أدق جرسه الخارجى . واسترعى نظرى أن البیت فى سكون غیر عادى ، حتى إذا ما أحاب الخادم وخرج بادرنى بأن قال :

- أنسأل عن سيدى ؟

- خيرا .

- نقل إلى المستشفى اليوم على أثر حرق خفيف أصاب يده .
فأدركت بسرعة أن الحوادث تجدد وأن حياة الرجل مهددة بالخطر
وغمرتني موجة من الأسف والشفقة واللهفة ، حين أنبأنى قلبى أن
وجود الشيخ ربما كان حائلا لا نعرف قدره يحجز بيني وبين العواصف .
ونسيت قضية حبيبى ، وتمنيت له النجاة ولو على حساب هناة كنت
أرجوها .

وركبت الترام إلى ظاهر المدينة حيث يرقد الأستاذ فى إحدى غرفات
مستشفى خصوصى . كان هناك سريران أحدهما له والآخر لأميرة ،
وكان السكون نحيما على المكان ويخيل إلى أنه فاض من وحشة نفسى
لا من عزلة الموضع ، ودخلت الغرفة فبصرت به ممددا فى فراشه وكأنه
مريض من شهر مضى ولم أستطع أن أملك دموعى ولا أن أذفع حرق
الأسى حتى حسدت فى هذه اللحظة أناسا تسارع قلوبهم إلى الشمانة ،
وأناسا يجهزون على المحتضرين ليأخذوا أسلابهم .

ظهرت الشيخوخة التى جاوزت الخامسة والستين فى ثوبها
الحقيقى ، فاخفت النضرة التى أجزتها على وجهه يد النعيم ، وغارت
العينان اللتان نقبتا فى تراث الخالدين سنوات طويلة وتسلب قوامه
الرخيف من لحمه الخفيف ، وشخصت عظام الخدين ونفت الصوت
الذى كان هادئا بطبعه ، وغمرت جسمه موجة من الحرارة .

وجعلت أميرة التى كانت تنظر فى ذهول متوقعة لطمة الزمن ، تقص
على موجز الحادث ، فقالت :

- سهر أبى منذ ليلتين على دأبه ، وامتد به السهر وقتا غير معهود
فأخذته سنة من النوم أفاق منها على لسعة لفيفة كانت فى يده ،
واستصغرنا الأمر . وعاده أحد الأطباء فى المنزل ، ولكنه كان فى اليوم

التالى مهددا بالتسمم لأن السكر ساعد على تخرج الحالة . ثم رفعت
بصرها إلى السماء وكأنها تسألها العون .

كان المقربون يدخلون عليه وكان غيرهم يترك بطاقته ، وقد رأيت فى
هذه الليلة ظلال الموت وكأنها تزحف نحو سريره شيئا فشيئا ، وفاته إلى
جواره ترقب الموقف وتستنجد الطب ، والتقت نظراتي بنظراتها فقلنا فى
صمت : لسنا ندرى !!

وبت فى القاهرة هذه الليلة بيته شخص ينظر إلى المستقبل فلا يراه
إلا كهفا هائل الجوف حالك الظلمة . ثم يممت المستشفى قبيل ظهر
يومى الثانى ، وما أن وصلت إلى باب غرفته حتى رأيت أحد الأطباء
خارجا من بابها وعلى وجهه آيات لم أرتح لها . فدفعت الباب برفق ،
ودخلت فإذا بإحدى الممرضات واقفة وراء السدفة « البرقان » المنصوبة
فى المدخل فوقفت إلى جوارها لأرى الشيخ مرسلا ذراعه الذابلة خارج
الفراش ، وكفه قابضة على كف سامى وأميرة وهو ينقل بصره بين
وجهيهما . وكانت أميرة تبكى منتحبة ، أما ابن عمها فإننى لم أسمع له
صوتا ، ولم أطق هذا الوداع القاسى فخرجت أكفكف دمعى إلى حيث
حجرة الراحة فى المستشفى فجلست أضرب فكرة بفكرة وأطرق كفاً
بكف ، حتى محت ظلال الموت نور الحياة ، وقضى الشيخ وأنا لا أزال
فى مكانى .

كان وقع هذا الخير على الفلاحين فى عزبة الأستاذ سىء الأثر حتى
خلت أنهم - وأنا معهم - فى حيرة واضطراب تشبه حيرة السمك جف
غديره فتأهبت له يد الصياد ، ثم عدنا فتركنا السفينة للأمواج وانتظرنا
ما تجرى به المقادير . وانقضى فصل الشتاء عابسا كئيبا يحدثنى كل يوم
من أيامه بأننى فى غربة وأن مقامى فى هذا المكان لن يطول ، وأفضيت
بهذا الكلام لحامد وزينب ، فأعربا عن رغبتهما فى أن يتبعانى إلى حيث
أرتحل إن كان فى مقدورى أن أدبر لهما العيش على مقربة منى .

وفترت بيننا الرسائل فى هذه الأشهر التى أكبرت فيها حزن أميرة ،
ثم استدعتنى إلى القاهرة فى مقبل الربيع ، ودخلت البيت للمرة الأولى
بعد أن تخلى عنه صاحبه والتقينا معا فى الحجرة التى كنا نجلس فيها
رثما ينزل إلينا الأستاذ . وكانت فى ثياب حزنها فتنة حزينة ، لا أكاد
أرسل بصرى إليها حتى أسترجه وأنا نهب بين شوقى وحيائى ، وطال
بيننا الصمت كأننا فى ماتم ، وكان الموقف يدعو إلى التأمل لأنها كانت
غير التى أعرفها ، ظهرت فى صورة فتاة أضلها اليتيم وهى فى غير سن
اليتيم ، وأنهكها صدمة الزمن كأنها الأولى لها .

ثم درج الحديث بيننا فاترا ضعيفا ، فحطنا فى شأن الزراعة ،
ولا أدرى ما الذى حملنى على أن أفجأها فأقول لها :

— من المحتمل يا آنسة أن تتحول حالى إلى طريق لا أرضاه ، ولذلك
أرانى مضطرا إلى أن أدبر شأن نفسى فى القريب فأبحث عن عمل آخر .
فإذا بها تغادر مكانها وتجلس إلى جوارى وكنت لا أزال مطرقا
شاخص البصر إلى الأرض ، فرفعت ذقنى بكفها وأدنت وجهها من
وجهى ناظرة فى عيني وهى تقول بصوت مرتجف خائف :
— أحق ما تقول ؟

فقلت :

— سيكون جونا كثير الغبار فيما يبلو لى !!
لكنها لم تجب ، بل ألقت ذراعها على كتفى ووجهها لا يزال مسامتا
وجهى وأنفاسها الحرى تلفح خدى ، وشفتاها الداويتان ترددان :
— أحق ما تقول ؟

وأحسست أننا فى موقف خارق .. فى لحظة من العمر تعبر مرة
واحدة ، كما يقولون عن الكوكب الذرى أنه يعبر السماء مرة لا غير ..
وأدارت رأسى ملامحها المحزونة ، وغمرتني موجة مختلطة ، من حب
وشفقة ورتاء وخوف من المستقبل ، فإذا بها بين أحضانى حتى نسينا

باب الحجره المفتوح وإن كنا غير جالسین فی تجاهه . ثم أفقت من هذه النوبه التي اعترتني ، نظرت إليها فإذا هي لا تزال تحت سلطان الغمره عيناها نصف مغمضتين ، وذوائبها السود بعضها متراجع وبعضها حائر على الوجه ، والصدر الذي شاب بياضه سواد الثوب يعلو ويهبط مساوقا حركة الأنفاس .

ولم تطل مدة التأمل ، ولم يكن بيننا الساعه حديث ، ولكن شريطا متتابع الصور استعرضه خاطري بسرعة البرق : لقاء أيها أول يوم .. ودفعه إياي برفق في طريق الحياه على قدر ما استطاع . ورعايته سبيل رزقي في أخريات عمره .. والأستاذ سامي .. وجرحه لكرامتي .. وأخيرا .. حديث صالح . فتعلمت كأنما لسعنتي عقرب ، وأذنت فمى من أذننها وهتفت بها كما تهتف بالسكران لفيق :

... أميرة .. أميرة .. لا تنسى ما بيننا من حواجز !!

فانتفضت كأنني صبيت على رأسها ماء ، ثم اعتدللت في مجلسها وهي تقول بصوت خنقه الدمع .

— نحن .. نحن أشقياء !!

« آه هل يستطيع الزمن الذي يلي كل شيء فينا أن يجرى على ذكرياتنا أكف النسيان ؟ إنه لا يستطيع .

الزمان كالنهر يا صديقي له موسم فيضان ، وهذا موسم يالمنسبه إلى فهو يجرى بالحوادث مجدا سريعا » .

* * *

ولم ينقض الربيع حتى زارتنا أميرة في العزبه وليلى في صحبتها ، وما كان أشق أن أرى الصغيره في ثياب الحداد !! .. كانت تبحر وراء الفراش في المشى بين الحديقة والغابه كما تعودت ولكن صورتها كانت غريبه على ، لأنها كانت في إطار من الحزن .

وأعلنت أميرة عند مقدمها أنها لن تقيم إلا يومين اثنين ، والتقيت معها

فى مدخل الغابة وفى وضوح النهار لثلا تأخذنا خواطر الفلاحين بالريسة ، وجلسنا متباعدين على المقعد الذى اتخذ من فروع الشجر ، والذى كان فى يوم مضى مسرح أحلام وآمال . وبدأت أميرة تتكلم بحدة وثقة واعتداد بالنفس ذكرتني جميعا بأميرة التى رأيتها أول يوم تناقشنا حول الجمال والإنتاج ، فنظرت إليها منكرًا شخصها ، وقلت فى نفسى : أفى الوجود مثل هذه الغرابة ؟ وذكرت موقفنا الأخير يوم كانت بين يدي جثة فيها نصف روح ، لو لم تكن بين يدي رجل شريف لتغير وجه حياتها . وسرت فى بدني حرارة الغيظ حتى أحسست أن إبراً حمأة تخرج من منافذ جلدي فأصغيت إلى حديثها تقول :

— اعتبرنى منذ الآن فتاة تعرف وجهها فحسب ، كما تعرف إحدى جاراتك أو إحدى عابرات سبيلك إن كنت موظفاً فى المدينة تخترق كل صباح شارعاً بعينه .

فحملت ولم أجب بشيء ، وكانت هى محولة بصرها نحو أنظفارها قلبها وتفحصها . قلت فى هدوء متكلف :

— ثم ماذا ؟

— ثم إننا نتمتع بشيء « تحت الحساب » ولا يدفع ثمنه فوراً .
— هذا حسن . لكننى أراجعك لأعلم رأيك الآن وأخيراً فى شخصى الذى تبدل الحكم عليه بهذه السرعة .

— رأى فى شخصك لم يتغير .
— كلام متناقض ، لأن تغيير رأى لا يولد إلا إذا طرأ على الشخصية عامل جديد .

— لا ترهقنى من فضلك فلست على استعداد لمحاكمة طويلة .
— من حقى أن أتقاضاك ما يفرضه الحب ، ولست أقصد إلا أننى أعرف سر قولك .

فهبت قائمة وأدارت ظهرها إلى كما تستدبر إعصاراً ، ثم التفتت

- ١٨٣ -

لفتة قصيرة وهي تغادر مكانها وألقت على عبارة خيل إلى أن أرجاء
الغابة اهتزت لها :

- لن أستطيع .. غير ممكن أن أتزوج رجلا ..

فأكملت وأنا ساهم مأخوذ :

- رجلا فقيرا !!

ثم رأيت خيالها من خلال دموعي وهي تخرج من الباب نحو الساحة
وكنت لا أزال لاصقا بالكرسی لا أستطيع أن أزيله وشفنای تهمسان :
- أيتها الغادرة ! ..

لا تسألني عن أثر هذه الصدمة في نفسي إلا إذا أردت أن تستجوب رجلا أتلفت مخه هراوة غليظة ، فلقد شعرت بعدها بأنني طفل وأحسست حاجة عظمى إلى الهدوء والحنان فسافرت إلى قريتي .
وأنكرتني أمي حين رأته ، وألح أبى في المسألة فلم يسعني إلا أن أدعى أنني ناهض من فراش المرض ، ومر طعم الحياة وقطبت لى الدنيا ، ودخلت على أمي وأنا جالس وحدي في إحدى الأمسيات فجلست أمامي وأدنت بصرها منى تنفوس وجهي الذي فاض بآيات السأم ، ثم مسحت شعري وربتت كفتي وخدي وسألته بصوت كان صادرا من قلبها رأسا :

— ما بك يا بني ؟؟

فلم أملك أن أحجز دموعي ، وقصصت عليها القصة ، فما كان إلا أن هونت من عسرة أمرى العسير قائلة :

— النسيان .. آه غدا تنسى ؟ أما بقاؤك في هذه العزبة فلا أراه صوابا . النساء يا بني شرور كلهن .. سأنسبك كل هذا بالزواج ، ولا تحفل بأمر المال ، فتحن والحمد لله قد صبرنا في سعة .

كانت تقول هذا وهي تنقل مس يدها الرقيق من رأسى إلى خدى ومن كفتي إلى كفى ، فأحسست برد الراحة وهدأت ثورة نفسي .

ولم يطل مقامى بين أبوى ، ثم سافرت إلى هناك ، وتراءت لى مناظر العزبة وأنا على الطريق بينها وبين محط سكة الحديد ، فأنكرتها ، حسبتها فيما مضى جنة النفس ، فلقيت اليوم منها سكير الحياة ، ولم تمض أيام حتى تسلمت هذه الرسالة :

» حضرة ..

« مع اعتزافنا بما قدمت من خدمة خالصة واجتهاد محمود ، أبلغك
أننا سنستغنى عن خدماتك بعد شهر واحد من تسلمك هذه الرسالة ،
وهو التاريخ الذى يتجدد فيه العقد من نفسه إن لم ينذر أحد الطرفين
الآخر بفسخه .

وحررنا هذا للعلم .. »

وذيله الأستاذ سامى بإمضائه الكريم ، ولم يكن هذا الخطاب موضع
عجب منى ، لأننى كنت متوقعه بين لحظة وأخرى ، ولكنه كان موضع
عجب وأسف معا من زينب وحامد ، فقد ذرفا بعد علمهما به دموعا
غزيرة . أما أنا فإنه لم يسعنى إلا أن أكتب إلى وزارة الزراعة طالبا أن
أكون ضمن الذين سيمنحون إقطاعا زراعيا ، وكنت أسطر طلبى وأنا
مظلم قانظ ، لأن هذه الحادثة هيئت فى نفسى ذكريات عن الوظيفة
كادت النفس تنساها .

وأرسلت طلبى بالبريد موقنا أننى بعثت به إلى القبر ، لأننى لن أسعى
فى سبيله ، وليس عندى استعداد كثير ولا قليل لأن أعيد مأساة الوسطاء
كما أنه لم يكن عندى استعداد لأن أقيم فى قريتى متبطلا ، ولست
أرضى كذلك بأن أعود مرة أخرى إلى مصنع المنتجات الزراعية .

ولبست نفسى ثوبها الأول حتى كأنها لم تخلعه يوما من الأيام :
رأيتنى كأنى ذلك الشاب الذى تخرج فى كلية الزراعة منذ شهر واحد ،
تضطرم نفسه تلهفا إلى المال ، وربما كنت اليوم أرغب فيه مما مضى .
لقد أنزله الحب من قلبى المنزل الثانية ، ثم عاد الحب فأنزله اليوم من
قلبى المنزل الأولى ، بعد أن هوت « أميرة » بكلتا يديها على أحلامى
هدما وتطليما .

وحدث لى أن كنت فى زيارة أحد وجهاء المنطقة — وقد عرفت
معظمهم — وكان قد سبق له أن زار عزبة الأستاذ ورأى مجهودى فيها
وعنايتى باتباع أحدث طرق الزراعة وأنجحها ، ودار بيننا حديث عادى

رأيت فيه فرصة سانحة ، فأشرت من بعيد إلى أننى قد أتخلى عن خدمة ورثة الأستاذ فى وقت قريب ، فرأيت الوجيه قد انبسطت أساريه وإن أخفى سروره عنى . ثم قال بعد ذلك :

— إن كثيرا من الملاك يرحبون بك إن كنت ترغب !

ثم كان يوم لن أنساه .. يوم رأيت الأستاذ « ساميا » يهبط العزبة قبل موعد رحيلى عنها بأسبوع ، وكان طبيعيا أن يجرى لتصفية الحساب .

آه .. كان وحده ، ولشد ما ملت نفسى واحتقرتها حين تمنيت أن ترى « أميرة » بصحبته ، على الرغم من كل ما كان !!

واجتمعت به مرارا فى الحجرة العامة التى تدار فيها شئون الزراعة ، ومن الغريب أنه لم يكن بادى النزق ، ولا سريع الطيش فى هذه الزورة الأخيرة ، وإن كنت أنا مرهف الحس إلى حد بعيد ، وعرف كل منا ماله وما عليه . ثم سافر الأستاذ مودعا بنقمة قلوب الفلاحين واختفى من أفق حياتى إلى الأبد ، وطفقت أعد مقامى على أصابع يدى ، وذاع خبر استبعادى عن العزبة فى المنطقة كلها ، وللرقيقين فى إذاعة الأخبار قدرة تقرب من قدرة الصحف اليومية ، فما لبثت أن استدعانى الوجيه المذكور وأبدى رغبته فى أن يتعاقد معى ناظرا لزراعته ، فقبلت بالطبع .

كنت أريد أن أغيب عن مسرح حزين الحوادث كثير الدموع قليل البسمات ، فلم أمانع أى شرط شرطه على . وكنت موقنا أن طلب الإقطاع الزراعى سيلقى فى وزارة الزراعة ما لقيته فى ردهاتها وعلى أبواب موظفيها من إهمال ونسيان ، لذلك لم أعقد عليه آملا .

وهأنذا اليوم فى أصيل أحد أيام الصيف ...

رأيتنى واقفا بلا تدبير فى أحب مكان إلى قلبى . فى مكان قلت لك

عنه : إنه صار أعز من مسقط رأسى !! فى الطرف الشمالى من حديقة

الفاكهة حيث خلایا النحل . أرقب الغروب الحزين ، وأرى عمراننا
صنعتة یدای وأتأمل خرابا جوزی به قلبی ، وتسطع فی أنفی رائحة
لا أعرف مأتاها ، فإخالها عطر الغادرة ، وأجهد ذهنی لیكون صورة عن
الرجل الحديد الذی سیدبر شئون الجنة من بعدی .

وغابت شمس الیوم الأخير فی هذ المكان ، ولم یبق علی الأفق إلا أثر
من أرجوان الشفق ، فاستدرت خارجا من الحديقة وأنا أكاد أصطدم
بأشجارها ، وسرت علی الممشی بينها وبين الغابة تنهاوی علی
الذکریات من کل جانب .

ثم لجأت إلى سکنی حیث وافانی حامد وزوجه فنی أوائل اللیل ،
لیسمرا معی مودعین ، وأؤكد لك أننی كنت أنتظر وقت خروجهما
بصبر نافذ لأذهب إلى النافذة وأرقب منزل الأستاذ فريد تحت ظلمة
اللیل . لم تكن فيه نافذة مفتوحة ولا شعاع یضیء لكننی لم أحول عنه
بصری حتی استرجعتنی من ذهولی أصوات مرتلة ودقات علی صفائح قد
اقتذت طبولا ، یدور بها جماعة من الفلاحین حول مساكن العزبة وهم
یرددون ما یهتف به أحد الصبیان : « یاللا یا بنات الحور سیبوا القمر
ینور » فاعتدلت من متکئی مخففا عن ذراعی اللتين دب فیهما الخدر ،
وقلبت طرفی إلى السماء لأرى القمر المخسوف ثم تطرحت بعد ذلك
فراشی .

ولو كنت واقفا فی ضحا الیوم التالی علی امتداد محط سكة الحديد
وعزبة الأستاذ ، لرأیت عربة ذات عجلتین تدرج علی الطريق خارجة من
العزبة ، وعلیها متاع قلیل أظهر شیء فیة الكتب ، ولم یكن هذا
إلا متاعی .

* * *

دعنا نظوی السنین یا صاحبی یحدثنا کما تطویرنا السنون بأحداثها ..
فلن أقص علیک ما وقع لی بعد رحلی عن موطن حبسی وإلا أمלטک

.. وأنت معى الآن فى ضيعتى الصغيرة التى تبلغ أربعين فدانا ، والتى تقع فى شمال الدلتا ،والتى تقول عنها : إنها جنة .

هل تستكثر على هذه النعمة وأنت ترانى أخطو إلى الستين ١٢
آه .. لقد أطلت عليك ولكن لا مناص من أن تستمع إلى قصة
الشيخ :

لم أشتَر هذه الأرض بمال ، لأنه لم يكن لى من المال ما أشتري به أرضا ، ولكننى قضيت سنة فى العزبة الثانية ثم كتبت إلى وزارة الزراعة بأنها محتنى إقطاعا فى هذه البقعة ، وكان بلا واسطة لأنه لا يناله إلا الفقراء . وهكذا مرت على فرصة من العمر أحسن الفقر فيها إلى ، وكنت قد ادخرت ما أستطيع أن أدبر به شئون الإقطاع ، وأذكر أنى دخلته وأنا مكتمل الشباب لا أتجاوز التاسعة والعشرين ، فسكنت دارا صغيرة بنتها الحكومة من اللبن وبدأنا العمل بآلات قليلة وماشية غير كثيرة فكنا فى هذا الأرض أشبه بالصيادين يغالبون الموج ليترعوا من بين أغواره السمك . وقد أحضرت حامدا وزينب وأقاما معى ، وعمرت حقولى ثلة من أبنائهم ، ولا يزال حامد على قيد الحياة وقد جاوز الستين ، يذكرنى فى الفترة بعد الفترة باليوم الذى عرجت فيه على عزبة الأستاذ فريد وأنا قادم من القاهرة ، ودخلتها فى إحدى الأمسيات ولكن من طريق غير الطريق الذى عبرته يوم أن دخلتها ناظرا « . وكان ذلك بعد عامين من رحيلى عنها . دخلتها من طريق ضيق يمشى إزاء قناة ويدخل إلى مساكن الفلاحين ثم قصدت منزل الرجل الوفى ورأى هو وزوجه فاحتبست الكلمات فى حلقهما بهتة ودهشة ثم أفقا وكأنهما فى حلم ، وزفت إليهما خيرا رآياه سعيدا ، واقترحت عليهما أن يستعدا للرحيل إلى بعد أيام قليلة . وخرجت من هذه العزبة فى الليلة نفسها وهواتف الذكريات تلح على قلبى . واكتحلت عيناى بنظرة إلى بيت أميرة هناك وكان مظلما ، لكنها كانت على القلب بردا وسلاما .

وخضت غمار الزمن كما يخوضه أى إنسان . وذقت من حلول الحياة ومرها ، وشيعت إلى القبر أمى التى بشرتنى بضوء النهار فى أحلك أيام الظلمة من حياتى ، ثم أبى ، وعشت دعامة تطوف حولها بقية أفراد أسرتى فحيأت للبنات بيوت زوجية هنية ، واستقدمت أخى الذى حدثك عنه فى أول قصتى ليزاول معى شئون الزراعة ، وجددت فى أعمالى فجربت زراعة الموز فى هذه البقعة ونلت منها أرباحا أحسد عليها .

أما صديقى صالح فلا بد أن تعرف ختام قصته :
لقد انقلب هذا العريد فجأة ومرة واحدة ، إلى متصوف زاهد ، وكان ذلك بعد أن بلغ الثلاثين وبعد أن استنفد صحته وماله ، فقد عاش بعد ذلك مريضا بالقلب ، ولكنه حول شقته المنزوية فى ركن السطح إلى محراب للعبادة ، وجعل الخزانة التى لا تخلو من زجاجات النبيذ خزانة ترجمها كتب التصوف ، ثم قضى وهو فى شباب كان جائرا أن يطول لو أنه أنفق منه بمقدار .

لا تقلق فإنى أراك مشتاقا إلى حلقة تبدو فى حديثى كأنها مفقودة ، لأننى أعرضت شيئا ما عن شخصية تراها مهمة وهى شخصية أميرة .

آه . رأيت نفسى بعد محنتى فيها ميليل الخاطر غير محدود الأمل لا أرى لى هدفا فى الحياة واضحا أسعى إليه . فكنت كمن يضرب فى الصحراء ضالا ، فهو لا يرى طريقا خيرا من طريق ، ولكنه يمشى كما اتفق .

رأيت المال فى أول حياتى كل شىء ، ثم أحببتها فقلت : لا .. بل الحب كل شىء ، ثم وقع بيننا ما وقع فعدت أقول : أنا مخطئى المال هو كل شىء . وما بلغت الأربعين حتى كنت رضى الحياة ، فسألتنى نفسى : هذا هو المال ، فأين السعادة ؟! وفتشت عنها فرأيتها فى الحب . وأين الحب ؟! لقد فقدته منذ أعوام فى الغابة وأنا على المقعد الخشبي يوم خلقتنى لاصبقا بمكانى وأسرعت خارجة وهى فى ثياب الحداد .

فقدته فقدان يأس فلم أشأ أن أبحث عنه . وقال لى الأصدقاء : تزوج وإلا فأتك القطار . فاستصوبت ما قالوا ، وعقدت ألف خطبة ، ولكن لا أدري كيف فسخت . ربما كان ذلك لأننى فتشت دون أن أحس عن شيخ امرأة فى قرارة باطنى وأعماق نفسى ، أنشدتها باللاشعور فأرفض بالشعور كل امرأة سواها .

وبقيت هكذا حتى فات الأوان ، فبدأت أتفلسف فأقول :
 — أمن الضرورى أن أتزوج ؟ ليس من الضرورى . إن الأحياء لينشدون الخلود بوسائل تتفاوت بتفاوت مستواهم : ينشده الشخص العادى فى أن ينسل ويترك من وراءه من يحمل اسمه لعدة أعوام ، وينشده الممتازون فيما يتركونه بين المجتمع من آثار طيبة يذكرهم بها . وهذا كله صورة من صور الخوف التى تساور النفس حين تذكر الفناء .
 على أنه لو وقع لى أنسى تزوجت لألفيتنى أقول : ذلك ضرورة . حب وسكن ، وإبقاء على الجنس ، وسعادة بالبنين ، وتزويد للوطن بأيد وعقول .

وهكذا تقع الأحداث أولا ثم نلتمس لها العلل ١١
 على أن يأسى فى حبى قد قادنى برفق إلى روضة الأدب ، فجعلت القراءة والكتابة هم نفسى ، وفررت إليهما كما يفر إلى المنحدر .
 وأنت ترانى اليوم بين الأدباء فى منزلة ليست بأرفع المنازل ، ولكننى مذكور . وقد تخلّيت عن أعمال الزراعة فلا أهبط هذه العزبة إلا زائرا أو مستجما ، وأقمت فى القاهرة منذ أعوام لأننى أزالو التحرير فى إحدى الجملات الحديثة ، وأردت من عهد قريب أن أكتب قصة طويلة ، فلم أر خيرا من أن أكتب قصة نفسى ، وأن أخرج للناس مأساة بعد تغيير الأسماء والأماكن ، فرأيت بعد أن قرأت نقد الناقدين أن الذين وفقوا من قديم الزمن إلى أن يضعوا أيديهم على أدق خلجات النفس إنما

كتبوا عن تجاربهم ونشروا على الناس صحائف قلوبهم ، فلا خير إذن من أن تكتب قصة نفسك .

ونظمت المجلة بابا للمشكلات الاجتماعية ، وكنت أنا أتلقى الرسائل التى ترد فى هذا الشأن وأتولى الرد عليها ، فحدث أن قرأت هذه الرسالة بين ما قرأت :

— « هو يتهمنى بأبنى غادرة ، ولكن لا يزال سر نفسى فى قلبى وحدى . كان ترددى سببا جر علينا البلاء معا ولكننى أنا التى أحمل الوزر . تحابينا فى شبابنا ثم افترقنا فراقا أجج الحقد فى قلبه ولا يزال حتى اليوم حاقدا على ، على أننى لو لقيته وكشفت له عن السر ، لصفح وغفر ، وإن لم يعد لأحدنا أمل فى صاحبه ، أرانى مترددة خائفة ، مثقلة الضمير ، فهل تشير على بأن ألقاه ؟؟ » .

وظهر العدد التالى من المجلة حاملا هذا الرد :

« لا تهابى لقاءه يا سيدتى ما دمت تنشدن غاية شريفة ، وإن كنت واثقة أنه رجل شريف . ليس أشهى إلى الأحباب إن طال الأمد أن تهب على قلوبهم نفحة من نفحات الماضى ، لأنه قطعة من العمر تعز على كثير من القلوب ، حتى إن بعض الناس يعيشون فيه ذاكرين أيامه ، مغمضين عيونهم عن الحاضر والمستقبل . كأنهم يحشون بظهورهم فى طريق الحياة . لا تردى بعد اليوم ، وحسبك من التردد ما قد لقيت منه » .

كان ذلك من نحو عشر سنوات ، أيام كنت فى الخمسين من عمرى ، فانظر إلى سخرية القدر !!

إننى أروى لك هذه القصة وكأنه ليس بينى وبينها الآن علاقة ، وكأنها قصة غبرى ، لأن السنوات التى طرحتها وراء ظهرى

- ١٩٢ -

أطفأت حدة إحساسى وغيضت ينبوع دموعى الذى كان يسيل لأتفه الأسباب . نحن فى شبابنا نتفاعل مع الحياة تفاعلا سريعا .. نرسل فيها ونستقبل بطبيعة السن كأننا جهاز لاسلكى دقيق ، أما الشيخوخة فكل ما نفعله فإنما هو مغترف من ومضات الشباب ومن ذكرياته .

كنت فى دار المجلة غارقا فى العمل حين دخل الخادم يعلن إلى أن سيدة تطلب مقابلتى . وفتح الباب فبصرت بها محتشمة جميلة . يسترعى نظرك منها أول ما تنظر ثيابها السود وسيبية حريرية تغطى فضلتها كنفها وظهرها ، شدتها على رأسها فى انحراف إلى الحاجب الأيمن ، وشفت عن أعلى جبينها الناصع ، ومفرقها الواضح ، كأنه خط من النور .

ورفعت صوتها بالتحية فتراجعت فى خضم السنوات حتى رأيت كأننى فى الثامنة والعشرين من عمري أستمع إلى نبرات صوت أميرة . فانتفضت من مجلسى بمركبة غير منتظمة تبعثرت معها الأوراق من أمامى وهمست أقول :

— أحقيقة ما أراه ؟

ثم أفقت وجلسنا .

نالت الأيام منها كما نالت منى ، فمالت إلى النحافة ، وبدت على وجهها تجاعيد خفيفة كأنها من رسم قلم دقيق ، لكن العينين والأهداب الطوال لم ييطل سحرهما الزمن . كان المكتب يفصل بينى وبينها حين فتحت حقيبتها وأخرجت منها كتابا ورسالة مغلقة حال بياضهما فمال إلى الصفرة ، ثم ألقت بهما كليهما أمامى وأنا أنظر كأننى مسحور ، وانقضت فترة صمت قلت بعدها :

— أأنت صاحبة الرسالة التى حملت المجلة ردا عليها ؟

— نعم .

— إذن فهناك سر .

- ١٩٣ -

— أكنت تظن أن ما كان بيننا ينهدم بسهولة ؟ ! ولم أسألك وقد ظننت ذلك ؟

ثم مدت يدها فتناولت الكتاب قائلة :

— هذه هي قصتك الأخيرة التي سرني على البعد أنها نالت إعجاب القارئ ، وإن لم تنل إعجابي . جعلتني بطلتها فخلدت بين صفحاتها أيامنا السعيدة ، وأيامنا الباكية كذلك ، لكنك لم تنصفني ، فقد بالغت في اتهامي وخلعت على صفحات من الغدر ونكت العهود وأبكتني وأنا أقرأ حتى سالت دموعي على الصفحات ، لقد نشت جرحا خللت أنه اندمل مع الأيام ، فإذا بي أراني مدفوعة إلى أن ألقاك وأن أوضح لك كل شيء . وقد حاولت بعد فراقنا وزواجي من سامي أن أكتب إليك بحقيقة موقفي ، لكنني عدت فاستصوبت ألا أفعل عل هذا يساعدك على النسيان .

وماذا كنت تظن قلبك فاعلا لو أنني كتبت إليك ؟ أنا واثق أنني كنت سأحظى برثائك ، ولكنك ما كنت تنساني ، أما وقد وقفت منك موقف الغادرة وضننت عليك بسري ، فلعل هذا قد أثار في قلبك نقمة جعلتك تدبر أمر حياتك وحفظت عليك نفسك من التلف .. فابتسمت ، ولم أعترض على منطق فات أو ان الاعتراض عليه . فأضافت :

— لكن ضميري ظل في يقظة طويلة .. كنت أستمع إليه وهو يقول : لابد من ضمادة لهذه الجراح ، فأسدل على مسامعي .. ثم جعلت الأيام تمر حتى خفت صوت الضمير ، مرة أخرى ، فجئت إليك . أعترف لك يا صديقي ..

« ويا أخى .. ولن أدعوك بغير ذلك » كما قلت في آخر رسالة . فأطرقت .

— وأقسم أنني كنت صادقة . لا داعي للعتاب !!

ونظرت ، ولمعت عيناها اللتان ما زالتا عينيها ، ببريق أسف ورجاء ،
وقالت :

- نعم لا داعى للعتاب ، فإننا الآن كمن يدخل مقبرة أثرية ليمتع
ناظره فيها بنقش جميل ..

أعترف لك أن ترددى هو الذى جر علينا البلاء ، ولكننى كنت
صادقة العزم فى أن أعمل من أجلنا عملا ، ولكن الحوادث عارضتنى ،
وجرت الأيام بغير ما كنت أرجوه .

تكاشفنا بالحب ورجعت من موقفى معك بعد الغروب وأنا مصممة
على أن أصارح أبى بأمرى وأن أحطم كل حاجز يحول بيننا مهما يكن
قويا . كنت فى طريقى إلى المنزل أحدث نفسى بهذا الحديث ، فلما
دخلت والتفت عيناى بعينى أبى أطرقت وخجلت بينى وبين نفسى حتى
خيل إلى أنه يعرف سرى . وكثيرا ما كان يتحدثنى فى أمر زواجى من ابن
عمى فيكاد لسانى ينطق بما تهتف به نفسى ولكننى لا ألبث أن أعود إلى
صمتى .

وسكتت قليلا ريثما تهدأ أنفاسها المتداركة ، ثم نظرت إلى نظرة
فاحصة حادة وقالت ، كأنها ترد تهمة خالتها تخامر قلبى .

- وستعلم الآن أن ذلك الرجل الطيب الرقيق لم يكن له ذنب فيما
وقع . جعل ليلة ونحن فى القاهرة يلح على ويقول :

- أنا يا أميرة كما تريننى رجل مدبر ، هامة اليوم أو غدا ، ولن
يطول أجلي بعد إلحاح المرض وانهيار الشيخوخة ، أفلا ترين من الخير
يا بنتى أن أعجل بزفافكما ، حتى أقضى ما قد يكون من بقية أجلي ،
فى راحة وسعادة ؟

فاعترضت عليه باعتراضى الخالد :

- إننى سعيدة يا أبى بقربى منك ، فدعنى أسهر على راحتك فترة
أخرى .

ثم تعللت ببعض الشئون وقمت من مجلسه قبل أن يرى فى عينى دمعة تفضح سرى .

ثم كان صيفنا الأخير بالأهل بالأحداث والمتاعب . حين هل سامى وجاءت آمال ، وتولت هذه المخدوعة إشعال نار الغيرة بينك وبينه لأمر تعرفه أنت .

فقلت :

— ولعلك تعرفينه .

فأجابت :

— لقد عرفت فيما بعد .

واشتد على إلحاح أبى كما اشتد على إلحاح حبنى ، فاعتكفت فى غرفتى فى القاهرة أناجى همى وأدبر مخلصا من أمرى العسير . ودخل على أبى يسألنى عن حالى بعطف وحنان خلعت معهما أنه سيضجى من أجلى بكل شيء لو أننى كاشفته . قال : ما بك يا أميرة ؟ وأقبل نحو فراشى وبه لفة أب وأم معا ، فلم أستطع أن أسيطر على دموعى وادعيت أننى مريضة ، وأن بى انقباضا لا أعرف مآتاه فحنا على يقبل جبينى ، ونظرت إلى وجهه فرأيت عليه مسحة نراها على وجوه الأحياء حين يؤذنون بتوديع الدنيا ، فاشتد بكائى حتى رأيت دمعة تترقرق فى عينيه ، وحاولت أن أبته هم نفسى فلم أستطع .

ولكن هذا كله لم ينسنى أن تدبى أمرنا ضرورى ويستدعى السرعة كذلك ، فهدأتى تفكيرى إلى أن أكتب له بما لم أستطع أن أتحدث فيه . فسهرت طول الليل ، أكتب وأمزق ثم أعيد ما مزقته كتابة ، ثم أنحو على ما كتبه تمزيقا ، حتى كانت رسالة رأيت أنها تعبر عما أقصده تماما . ثم عدت فترددت فى طريقة وضعها بين يدى الوالد : أضعها على مكتبه مكشوفة أم أدسها فى درجه ، أم أرسلها بالبريد ؟ وأخيرا بعثتها بالبريد .

— ١٩٦ —

ثم كان أن وقف القدر منها مقهقها ساخرا !!
لم يتسلم هذه الرسالة التى حملها البريد إلى أبى أحد ، إلا أميرة ،
كان طريق الفراش فى اليوم التالى ، فريسة للحمى .
قلت :

— آه .. فهمت كل شىء .

فقلت :

— أنتظن أن القصة قد انتهت ؟ إن لها بقية أعجب مما تتخيل .

كان من المستطاع لو وقف الأمر عند هذا الحد ألا آبه لشيء من أمر
سامى ولا من غيره ، فأعمل على أن تجمع بيننا كلمة الله ، ناسية
أو متناسية أن ابن عمى أشربت نفسه حب الانتقام ، وأنه وقع بينى وبينه
فى الصيف الأخير ما أرى معه من الوفاء له ولك ألا أذكره ، وإن عرفته
أنت بوحي من قلبك . نعم كان من المستطاع أن أعمل شيئا ، لكنه
حدث أن أبرقنا إلى سامى بعد حضورك ليرى عمه الذى عددناه فى
الدنيا ضيفا ، ثم كانت لحظاته الأخيرة ، وفارقت الحياة كل جوارحه
إلا عينه ، ووقفت أنا وسامى نرى آية الموت وهى تمحو آية الحياة ،
فأمسك أبى بكفى وكف ابن أخيه جامعا بينهما فى يده ، وأخذ ينقل
نظراته بين وجهينا وشفته تنحركان ولكن بدون كلام فإنه ما كان
يقوى . وفهمت أنا بالطبع أنه يوصينا بالزواج . فشبت فى قلبى نار
الحزن على رجل حى ورجل يموت . وأنا أقول فى نفسى : آه لو تعلم
يا أبى .

فهززت رأسى موافقا لأننى رأيت هذا بعينى وأنا واقف مع إحدى
المرضات من وراء السلقة .

وهنا قدمت إلى الرسالة المغلقة الحائلة البياض ، فرأيت عليها طابع
بريد قديم ، واسم الشيخ الذى ظننته قاتلى ، وكان الخاتم الذى يحمل
التاريخ واضحا ينادى بصدق ما تقول .

فقلت :

- والآن فهمت كل شيء !!

فقالت :

- بل بقي شيان : ثم زرتني فى القاهرة .. (وأطرقت غاضبة من طرفها) .

وكان أن التقينا فى حجرة الاستقبال للمرة الأخيرة . أتذكر ؟
أردت أن أهيب لك وداعا لا يشوبه الحرمان الذى فاض على علاقتنا الشريفة . لا تستصغرنى ، لقد كنت أشبه شيء فى نظرى برجل قضى عليه بالموت ، فأريت أن أضع بين يديه كل ما يشتهى فى لحظاته الأخيرة . لأنه لم يكن فى مقدورى إلا أن أنفذ وصية أب لم يسع إلى فى حياتى مرة ، وإنما كنت أنا الجانية على نفسى ، ولو كنت قادرة على أن ألغى ساميا من حياتى وأبى موجود فما كنت قادرة على أن ألغيه من حياتى وأبى ميت ، حتى لا تتناولنى الألسن والناس لا يعلمون كما أعلم أنك رجل شريف ، وأنت كبرت فى نظرى إلى حد يفوق الوصف بعد لقائنا آخر مرة .

لم يكن أمامى بعد ذلك إلا خطوة أخيرة ، شاقة عسيرة ، وهى أن أنشى عن طريقى أعز نفس على قلبى .. وتستطيع أن تتصور معى بؤس امرأة تجبرها الظروف على أن تمسك خنجرًا لتغمده فى قلب حبيبها ، فسافرت إليك ثم التقينا فى الغابة ، وجعلت قبل لقاءك أجمع أشتاتنا من الرذائل والشراسة والغدر والنسيان ثم أضفيها على نفسى ليخدعك ظاهرى عن حقيقتى ، فأعمى عليك الموقف . وما زلت كذلك حتى استطعت أن ألمح إليك بكلمة كم تمنيت بعدها أن يخلصنى الموت من متاعب آثارها ؟!

وكانت محدثى لا تزال مطرقة ، لكننى رأيت على خديها دمعين كبيرين يجريان على صفحتهما الناصعة كما ينزلق الندى على بياض الزئبق .

- ١٩٨ -

ومرت فترة سكون خلعت معه أنفاسنا ستحتبس معه إلى الأبد ،
ولكننا تناظرنا بعده فى وقت واحد وتنهدهنا فى لحظة واحدة . قلت :

- وهل تظنيننى إلا صافحا ؟
فقلت :

- صافحا .. وكريما .

- أتذكرين .

فهزت رأسها مستوضحة .

- ذلك الفتى الذى شدنا بتضحيته فى قصة كتبها أبوك ، حين ظهر
فى أفق حبيبته وقال لها : سأ تزوج أختك ليقوم بينى وبينك أربعة
حوائل : الزوج والعهد ، والولد ، وأنى زوج أختك ؟؟
ففتحت فاهها ، واتسعت عينها تذكر الماضى البعيد ، على حين كنت
أنا أقول :

- أنا فى موقف أشد ، لأننى لم أتزوج ليلى .

- إن كان الأوان قد فات وظهرت فى أفقك حين لا ينفع الظهور ،
كالثمرة المخار ترجعها الشجرة ، فإننى قد كسبت أن تخففت من عبء
ضميرى .

فقلت لها :

- وهل أنت سعيدة ؟

فلم تجب إلا بأن سألت :

- وهل أنت سعيد ؟؟

ثم تصافحنا ونحن فى غمرة من الماضى تقرب أن تكون ذهولا .

* * *

هذا أنت يا صديقى ترى أن موكب الحياة قد يلفظ أناسا فيتخلفون
عنه وهم فى مقتبل العمر ، فتجيش نفوسهم بآمال مختلطة يتحقق بعضها
الآخر ولكن العظيم منا هو ما تبخل به علينا دنيانا .

- ١٩٩ -

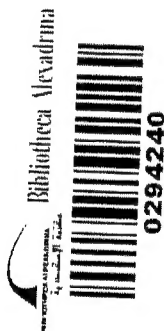
وطلبت المال فوجدته !! وطلبت الشهرة فنلت منها ما يرضيني !!!
وأحببت الأسرة فأقمت دعائمها وأحطت وجودها !!
وكانت هذه كبريات أمانى .
وتسألنى اليوم بعد أن غربت شمسى ولم تبق لى من الحياة إلا آثار نور
يرسلها الشفق وحده على أفقى ، تسألنى هل نلت كل ما تتمناه ؟ فأقول
لك : إلا شيئا واحدا أعده اليوم وحده أعظم أمانى جميعا ..
الولد !! الولد !!
وهل تتصور أننى أحسد « حامدا » وأتمنى أن لو كان لى مثل
حظه ، حين أسمع تصايح أولاده بين الحقول وفى باحة الدار ؟
معذرة يا صديقى ..
كأننا لا نفهم حقائق الأمانى إلا فى أخريات العمر !! ..
بعد ألا يبقى لنا من آثار الحياة إلا النور الذى يرسله الشفق
وحده !! ... أعنى بعد الغروب !!

« ملقنت »

مؤلفات الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

- | | |
|--------------------------|----------------------|
| (١٥) الجنة العذراء | (١) لقيطة |
| (١٦) خيوط النور | (٢) بعد الغروب |
| (١٧) الباحث عن الحقيقة | (٣) شجرة اللباب |
| (١٨) البيت الصامت | (٤) شمس الخريف |
| (١٩) أسطورة من كتاب الحب | (٥) غصن الزيتون |
| (٢٠) للزمن بقية | (٦) من أجل ولدى |
| (٢١) جوليت فوق سطح القمر | (٧) سكون العاصفة |
| (٢٢) قصة لم تتم | (٨) الماضي لا يعود |
| (٢٣) الدموع الخرساء | (٩) ألوان من السعادة |
| (٢٤) لقاء بين جيلين | (١٠) أشياء للذكرى |
| (٢٥) الوجه الآخر | (١١) النافذة الغربية |
| (٢٦) غرام حائر | (١٢) الضفيرة السوداء |
| (٢٧) حلم آخر الليل | (١٣) حافة الجريمة |
| (٢٨) عودة الغريب | (١٤) الوشاح الأبيض |

مكتبة مصر
٣ - شارع كامل صدقي - الجيزة



الشمس ٤٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه